جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القادسية / كلية الآداب

قسم اللغة العربية

توظيف الأجناس الأدبية في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي (ت: ٤١٤هـ)

رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة

(سجا محمد جواد الخيكاني)

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة القادسية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إشراف

الأستاذ الدكتور

ياسر علي عبد الخالدي

١٤٤٥هـ

٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

صدق الله العلي العظيم

(الحجر: ٤٧)

الاهداء

بك عرفت الحياة وبك فخري وبك اعتزازي

(والدي الغالي)

إليك قلباً حنوناً ما زلت اهفو إليه طفلةً..

أنتِ شمس نهاري وقمر لَيْلِي...

(والدتي العزيزة)

إليك عيني شاخصة في مستقبل سعيد شريك حياتي

(زيد)

إليكم؛ لأنكم نبض يجري في عروقي

(أخوتي)

ولأنكم أهلي فبكم أكون..

(أسرتي الثانية)

وللختام رونقه إلى من بتوجيهه السديد وعلمه الوافر تجاوزت الصعاب العلمية جميعها، إلى الأبوة العلمية والشخصية الإنسانية التي أعجز عن وصفها

(أستاذي الكبير الدكتور ياسر الخالدي).

الشكر والعرفان

قَالَ النَّبِيّ محمد (ﷺ): (**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**)، وقال: (**مَن صَنَعَ إِليكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوه، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوا بِهِ فَادعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأتُمُوه**)[1].

واعترافاً بالجميل، فإني أحُمد الله عز وجل وأشكره على تمام نعمته، وفضل إحسانه أَنْ مَنَّ عليَّ بإتمام هذه الدراسة التي أرجو أن تحوز رضاه أولاً، وآخراً لما فيها من خدمة للعربية لغة القرآن الكريم.

الشكر والامتنان والعرفان إلى أستاذي الدكتور المشرف الأستاذ الدكتور **(ياسر علي الخالدي)** الذي رافقني طيلة مدة البحث وأمدني بالمعلومات والنصائح القيمة راجيةً من الله عز وجل أن يسدد خطاه ويحقق مناه فجزاه الله عني كل خير.

والشكر موصول إلى المعاون العلمي الأستاذ الدكتور **(ثائر رحيم)** صاحب المواقف النبيلة، وإلى رئاسة قسم اللغة العربية وملاكه العلمي القدير متمثلاً برئيسه الأستاذ المساعد الدكتور**(ثائر عبدالكريم البديري)**، ومقررة الدراسات العليا الأستاذ المساعد الدكتورة**(رواء نعاس الخزاعي)** وأساتذتي الأفاضل جميعاً بقسم اللغة العربية؛ لما قدموه من علم ومعرفة وتوجيه طيلة مدة دراستنا وتلمذتنا على أيديهم، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء.

والعرفان والامتنان أزجيه لأسرتي التي قدّمت كل ما ساعدني وأعانني في إتمام هذا الجهد العلمي الذي أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينال رضاكم.

([1]) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ١٦/ ٣١٣.

إقـــرار الـمـشـــرف

أشهـدُ أنّ إعداد هذه الرســالة الموسومة بـــ(توظيف الأجناس الأدبية في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي(ت:٤١٤هـ)التي تقدّمها الطالبة(سجا محمد جواد الخيكاني)تم إعدادها بإشـرافـي فـي قسم اللغة العربية/كـلية الآداب/جامعة القادسية، بمراحلها كافة وهي جزء مـن متطلبات نيل شهادة الماجستير فـي اللـغة الـعربية وآدابها، وأشرحها للمناقشة.

الإمضـاء:

أ.د. ياسر علي عبد الخالدي

الـمشـــرف علـى الرســالة

التاريـخ: / / ٢٠٢٣

توصية السيد رئيس القسم

بـنـاءً علـى التـوصـية السيد المشرف، وتقرير الخبير العلمي، أرشـح هـذه الرسـالة للمناقشة.

الإمضـاء:

أ.د. محسن تركي عطية

رئيـس قســم اللـغة العربية

التـاريـــخ: ١٥/ ١٠/ ٢٠٢٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرار لجنة مناقشة رسالة الماجستير

جامعة القادسية/ كلية: الآداب
الدراسات العليا

نقر انا اعضاء لجنة مناقشة طالبة الماجستير: لمياء محمود حمد حميد

قسم: اللغة العربية اطلعنا على التصحيحات والتعديلات التي تم اجرائها من قبل الطالب والتي تم اقرارها في المناقشة من قبلنا فهي جديرة بدرجة جيد جداً في اللغة العربية / كلية الآداب وعليه وقعنا.

اعضاء لجنة المناقشة:

ت	الاسم	اللقب العلمي	التوقيع	الصفة
1	جميل بدوي محمد الزهيري	استاذ		رئيسا
2	صلاح حسون جبار	استاذ مساعد		عضوا
3	فاطمة حميد يوكوب	استاذ مساعد		عضوا
4	ياسر علي عبد الخالدي	استاذ		عضوا ومشرفاً

يصادق مجلس كلية الآداب / جامعة القادسية على قرار اللجنة

أ.د. نبيل عمران مرسي
العميد
٢٠٢٣/١٠/١٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة	أ-ج
التمهيد مدخل للأجناس الأدبية وملامح من كتاب الصداقة والصديق وسيرة التوحيدي، المحور الأول: ماهية الأجناس الأدبية، المحور الثاني: كتاب الصداقة والصديق، المحور الثالث: السيرة الذاتية للتوحيدي، المحور الرابع: منهج الكتاب	١-٢٤
الفصل الأول الشعر في كتاب الصداقة والصديق	٢٥-٨٨
المبحث الأول: الأغراض الشعرية	٢٥-٥٢
المبحث الثاني: اللغة الشعرية	٥٣-٧١
المبحث الثالث: الصورة الشعرية	٧٢-٨٨
الفصل الثاني الأجناس النثرية المُحدثة في كتاب الصداقة والصديق	٨٩-١٣٦
المبحث الأول: الخبر	٩٠-١٠٦
المبحث الثاني: الرسائل	١٠٧-١٢٤
المبحث الثالث: الحكايات والحكم والوصايا	١٢٥-١٣٦
الفصل الثالث الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة	١٣٧-١٦٨
المبحث الاول: الأحاديث النبوية وأقوال أهل البيت	١٣٧-١٤٧
المبحث الثاني: أقوال الفلاسفة الغرب	١٤٨-١٥٨
المبحث الثالث: أقوال الفلاسفة والشخصيات العربية	١٥٩-١٦٨
الخاتمة	١٦٩-١٧١

مظان البحث	١٧٢-١٩٢
ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية	A-B

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الذي أحمدهُ على نعمه وفضله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبي الأمة المصطفى الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آل بيته الأخيار المنتجبين وبعدُ:

عُنيت الدراسات بأدب التوحيدي عنايةً وافرةً، وقد طالت أقلام الباحثين الكثير من الجوانب التي احتوتها كتب التوحيدي على وجه العموم وخصصت بعضها لدراسة كتاب واحد من كتبه ومن بين هذه الكتب كتاب الإمتاع والمؤانسة، والمقابسات وغيرها من كتب التوحيدي، ولقد زَوَدَنا التراث العربي بثروة ضخمة من أدب التوحيدي تنوعت بين الأدب، والفلسفة وغيرها من المضامين التي عرفت بها مؤلفاته، ولم يستثنَ كتاب من كتبه عن الدراسة والعناية الخاصة ومنها الكتاب الذي نحن بصدده، إذ توقفت عند الدراسات التي تناولته من جوانب مختلفة، فقد قدم الدكتور قسول ثابت دراسة حول **(الصداقة والصديق عند التوحيدي)** وتناول فيها مفاهيم عامة عن الصداقة وكيف وصف التوحيدي هذه العلاقات، وركز على الفقرات الجميلة و المقطوعات البديعية والأخبار الطريفة بوصفه تحفةً فريدةً، وهنالك دراسة أخرى تناولت **(الصداقة والصديق في تراث أبي حيان التوحيدي)** كتبها الدكتور محمد إبراهيم حُر الذي لم يختص بهذا الكتاب بل مرَّ على كتب التوحيدي أغلبها وركز على كتاب المقابسات، والصداقة والصديق؛ لأنهما ينتظمان فكرة متقاربة مع تقدم الصداقة والصديق على المقابسات، وكذلك **(صور من شعر الصداقة والصديق في القرن الثالث الهجري)** للدكتور فتحي علي عبده الذي درس جنبةً أدبيةً من الشعر في تلك المرحلة وركز فيها على الصداقة والصديق وهو لم يختص بكتاب التوحيدي فحسب.

أما الدكتور أحمد كمال زكي فقد كتب بحثا بعنوان **(في الصداقة والصديق)** وأسس للدراسة بمستهل كتاب الصداقة وما حمله من مضامين ورؤى تؤسس على اختلاف هذا الكتاب لأخذ الحديث عن الصداقة ومفاهيمها وضوابطها وقد سجلت في هذا البحث، وركز على بعض الجوانب الجمالية مثل التنبيه على السياقات والأسلوب وما منحه التوحيدي من اللغة منسجمة مع رؤى العصر، فضلاً عن البحث الذي كتبته الدكتورة سمر العطار بعنوان **(هات هذا الصاحب وخذ الخلافة: أبو حيان التوحيدي ومعضلة الصداقة)** وتناولت الدراسة أدب التوحيدي وجنبة من كتاب الصداقة والصديق، وجاءت دراستي لتتمم هذه الدراسات وتقف على كتاب الصداقة والصديق من جنبة أدبية لم تنلها أقلام الباحثين والدارسين وقد عنونته بـ**(توظيف الأجناس الأدبية في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي (ت:٤١٤هـ)**، وعلى الرغم من سعة الدراسات التي تناولت أدب التوحيدي وكتاب الصداقة والصديق إلا أنني قد تعرضت إلى عدد من المشكلات ومن بين هذه المشكلات هي كثافة الدراسات التي تناولت التوحيدي عامة وكتاب الصداقة والصديق خاصة، والاختلاف الكمي بين النماذج الشعرية والنثرية، فالشعر أكثر سعة من النثر على المستوى الفني، والفرد العربي أكثر ارتباطاً به من النثر، ممَّا حقق اختلافاً بين عدد صفحات الفصول، إلا أنَّ طبيعة المادة العلمية هي الفيصل في هذا الاختلاف، ولم أسعَ لإضافة مادة على المستوى النظري؛ بغية عدم الوقوع في الإطناب والتكرار، ولكنْ بفضل الله والإرشاد الذي قدمه لي أستاذي الفاضل الدكتور ياسر الخالدي تجاوزت هذه المشكلات، واتبعت المنهج الاجتماعي في معالجة النصوص، وعلى وفق طبيعة المادة العلمية التي احتواها الكتاب قسمت الرسالة على تمهيد وثلاثة فصول، وقد عنون التمهيد بـ**(مدخل للأجناس الأدبية وملامح من كتاب الصداقة والصديق وسيرة التوحيدي)** وتضمن التمهيد محوراً أول تناول فيه ماهية الأجناس الأدبية من حيث المفهوم المعجمي، وكذلك المفهوم الاصطلاحي وتناول أيضاً الأجناس الأدبية عند العرب القدماء والمحدثين، وبيَّن المحور الثاني كتاب الصداقة والصديق ماله وما

عليه وما فيه من مضامين، وجاء المحور الثالث ليدرس السيرة الذاتية للتوحيدي من حيث اسمه ونسبه، وميلاده، ونشأته، ومؤلفاته واهتماماته الموضوعية، من ثم ذكرت في النقطة الأخيرة وفاته، ودرست في المحور الرابع منهج الكتاب من حيث مقدمة الكتاب وأسباب التأليف، وجاء الفصل الأول بعنوان **(الشعر في كتاب الصداقة والصديق)** وبعد توطئة لهذا الفصل درست فيه ثلاثة مباحث عنون الأول بـ**(الأغراض الشعرية)** وتناولت فيه غرضي **(المديح والرثاء)**، وغرض **(الفخر)**، فضلاً عن غرض **(الهجاء)**، وغرض **(الحكمة)** ودرست في نهاية المبحث **(الشكوى والعتب والاعتذار)**، وبيَّن المبحث الثاني **(اللغة الشعرية)** من حيث المستوى اللغوي الذي تناولت فيه اللغة المبسطة في كتاب الصداقة والصديق وكذلك اسم الفاعل وأسلوب الاستفهام، وكذلك التضاد وتناول المستوى الجمالي في ضوء الاغتراب والموتيف، ودرست المبحث الثالث والأخير **(الصورة الشعرية)**، ولقد بيَّنت فيه التشبيه من حيث اللغة والاصطلاح، والأمثلة التي وردت في الكتاب و كذلك الاستعارة من حيث اللغة والاصطلاح والنصوص الشعرية التي وردت، فضلاً عن الكناية التي تناولتها في اللغة والاصطلاح والأمثلة التي وردت من حيث الصفة والموصوف.

وجاء الفصل الثاني الذي عنون بـ**(الأجناس النثرية المحدثة في كتاب الصداقة والصديق)**، وبعد توطئة الفصل تناولت في المبحث الأول **(الخبر في كتاب الصداقة والصديق)** وبينته من حيث اللغة والاصطلاح وقسمته على الخبر التاريخي الذي شكل حضوراً وافراً في كتاب الصداقة والصديق وكذلك الخبر الأدبي، وأيضاً الخبر الاجتماعي، ودرست الخبر اللغوي أيضاً، وبيَّن المبحث الثاني **(الرسائل في كتاب الصداقة والصديق)**، إذ تم التعرف عليها من حيث اللغة والاصطلاح وتقسيمها على ما اشتهرت به على قسمين الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية، ودرست في المبحث الثالث موضوعات أقل حضوراً من الخبر والرسائل وهي **(الحكاية والحكمة والوصايا)**، وأما الفصل الثالث الذي عنون بـ**(الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة)** فقد قسم على ثلاثة مباحث عنون المبحث الأول بـ**(أحاديث الرسول صلى**

الله عليه وآله وسلم)، وأقوال أهل البيت)، وبيَّن المبحث الثاني **(أقوال فلاسفة الغرب)**، وجاء المبحث الثالث ليبين**(أقوال الفلاسفة والشخصيات العربية)**، وبعد الانتهاء من التمهيد والفصول الثلاثة توصلت إلى عددٍ من النتائج سجلتها في خاتمة موجزة وهي خلاصة ما توصلت له عن طريق قراءة الكتاب قراءةً وافيةً وإحصاء دقيق، للأمثلة والموضوعات التي وردت فيه من ثم كتبت مظان البحث الذي تضمن مجموعة من المصادر والمراجع التي تقسمت على الكتب، والرسائل والأطاريح، والمجلات المحكمة.

ولقد أفدت من جملة من المصادر كانت خير عون في إنهاء هذه الدراسة ومنها الكتاب الرئيس **(الصداقة والصديق)**، وكذلك بعض الدراسات التي تناولت أدب التوحيدي من الكتب والأبحاث الأكاديمية، واكتفيت بكتابة اسم الكتاب ورقم الصحيفة في الهامش؛ ليكون مظان البحث هو مكانٌ لذكر المصدر كاملاً، وهذا بغية الابتعاد عن التكرار، وسعي مني للعزوف عن الإطناب.

وللوقوف على الموضوع سعيت إلى توظيف عدد من المصادر التي تنوعت بين المصادر الأدبية والتاريخية والفلسفية محاولة مني للإلمام والوقوف على المضامين التي وردت في الكتاب؛ كونها مضامين موحدة تهدف إلى بناء قيم اجتماعية شوهتها بعض المظاهر الدخيلة على الثقافة العربية، إذ استعمل التوحيدي جملة من الأحاديث النبوية وأقوال أهل البيت**(عليهم السلام)**، والفلاسفة والشخصيات العربية التاريخية والأدبية وحتى اللغوية منها، وكذلك عدد من الشعراء الذين مروا بهذه التجربة وأفاد منهم التوحيدي في توظيف أشعارهم في كتابه.

وبعد هذه الرحلة العلمية الماتعة بصعوبتها وجهدها لا بدَّ من كلمة أخيرة أقدمها لأستاذي الفاضل الاستاذ الدكتور ياسر علي عبد الخالدي المشرف على الرسالة الذي لم يبخل عليَّ بوقت وجهدٍ وارشادٍ وتوجيه فله الكثير من الطيب في هذه الرسالة، ولذا اقدم عظيم الشكر وكثير الامتنان له.

ولقد قدمت ما بوسعي لتتم هذه الرسالة على أتم وجه، فإن كان ذلك فهو بتوفيق من الله ورسوله وآهل بيته وتوجيه أستاذي المشرف ودعاء الأهل والأحبة، وإن قصرت فمن نفسي ذلك إنها خطواتي الأولى والله ولي التوفيق.

الباحثة

التمهيد

مدخل للأجناس الأدبية وملامح من كتاب الصداقة والصديق وسيرة التوحيدي

أدب التوحيدي من الآداب الثرية في عطائها الأدبي والفكري الباذخ؛ لتعدد مشاربه التي عاد إليها عند الكتابة، وساتحدث عنه في ضوء ذلك، علماً أني سأبدأ الحديث عن الأجناس الأدبية قبل الخوض في التوحيدي وآدبه.

المحور الأول: ماهية الاجناس الأدبية:

قبل الدخول لموضوع الأجناس لا بدَّ من التوقف عند المفاهيم بوصفها مفتاحاً لمعرفة دلالة كل منهما، إذ ورد **المفهوم المعجمي** للجنس في لسان العرب هو" الضرب من كل شيء، وهو من الناس ومن الطير، ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة"[١]، وقد مثَّل هذا المفهوم قيمة الجنس من حيث دخوله في كل قسم في حياتنا وعملنا ودراستنا.

ولم تذكر كتب التعريفات الاصطلاحية القديمة تعريف الجنس أو الأجناس[٢]، وجاء **المفهوم الاصطلاحي** عند مجدي وهبة، إذ قال "أحد القوالب التي تصب فيها الآثار الأدبية، فالمسرحية مثلا جنس أدبي، وكذا القصة ،وهكذا..."[٣]، فالجنس يحدد لون وشكل الوسيلة المختارة في التعبير والنقل والإفصاح، وعرَّفه الدكتور محمد القاضي قائلاً:" مقولة تسمح بالجمع بين عدد معين من النصوص حسب معايير مختلفة وترسي في الوقت نفسه

---

(١) لسان العرب :م٥/٢١٥.

(٢)ينظر: كتاب التعريفات: ١٠-٢٥٥، وينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ٢٢- ١٨٨٥.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ١٤١.

قواعد لقراءة هذه النصوص وتأويلها"[١]، فالأجناس نصوص تجمعها معايير معينة.

الأجناس الأدبية عند العرب

تعمقت صلة العرب بالأدب، وبلغوا الغاية في تذوقه والتأثر والتأثير به، وقد استطاع الأدب فعلاً أن يقوم بهذه المهمة، ويحقق الغاية منها من دون سائر الفنون الأخرى؛ لاعتماده على اللغة التي تقوم على الكلمة التي تفنن العرب في التلاعب بها، وتنميقها، واستعمالها وسيلة للتغني وإقناع المتلقي، فحاول النقاد العرب القدامى وضع نظرية للتجنيس الأدبي تعنى بمقاصد التبويب والتصنيف النوعي والأجناسي، إذ قسموا الكلام على جنسين كبيرين متمايزين هما: المنظوم والمنثور، أو الشعر والنثر ولاينضوي تحت النثر أنواع كثيرة منها: السجع، الخطابة، والرسالة، والخبر والحديث، وغير ذلك في حين لا ينضوي تحت جنس الشعر سوى نوع وأحد هو الشعر الغنائي، وإن تعددت أغراضه ومذاهبه[٢].

واستعمل النقاد العرب القدامى أيضاً مصطلح الجنس الأدبي مثل الجاحظ(٢٥٥هـ) في كتابه البيان والتبيين في سياق حديثه عن خطباء العرب رداً على الشعوبية قائلاً:" ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه متحيزاً من جنسه"[٣].

ونتلمس فكرة الجنس عند ابن طباطبا العلوي(٣٢٢هـ) عن طريق مفهوم الشعر بأنه: "كلام منظوم بائن عن المنثور، الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم، الذي إن عُدل من جهته مجته الأسماع،

---

(١) معجم السرديات: ١٣٠.

(٢) ينظر: الأدب المقارن: ١٦٥

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٨٢.

وفسد على الذوق"[١]، وبيَّن أبو هلال العسكري(٣٩٥هـ)" أنَّ الجنس على قول بعض المتكلمين أعم من النوع قال الجنس هو الجملة المتفقة سواء كان ممَّا يعقل أو من غير ما يعقل"[٢].

وقسَّم ابن خلدون(٨٠٨هـ) كلام العرب على جنسين أدبيين هما: الشعر والنثر ولكنه يستعمل للتعبير عنهما مصطلح **(فـن)**، إذ يقول:" أعلم أن لسان العرب وكلامهم على فئتين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي وأحد، وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل وأحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام... وأعلم أن لكل وأحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصل للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص المخاطبات وأمثال ذلك"[٣].

أما العرب المحدثون فقد بيَّن الدكتور محمد غنيمي هلال أنَّ النقاد على مرَّ العصور وصفوا الأدب بأنه أجناس أدبية: فمنذ" كان نقاد الأدب اليوناني وعلى رأسهم إفلاطون وأرسطو لايزال النقاد في الآداب المختلفة على مر العصور ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناساً أدبيةً أي قوالب عامة فنية تختلف فيما بينها حسب بنيتها الفنية وما تستلزمه من طابع عام"[٤]، ويذهب سعيد يقطين إلى أنَّ الجنس هو" الاسم العام الذي يجمع مختلف الأنواع بغض النظر عن العصر"[٥].

---

(١) عيار الشعر: ٣.

(٢) الفروق اللغوية: ١٦٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٦٤٣.

(٤) النقد الأدبي الحديث: ١٣.

(٥) شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي دراسة إجناسية لأدب نزار قباني: ٢٨.

وفرق النقاد بذلك بين خصائص النثر وسمات الشعر وأهم المعايير الضابطة لكل منهما فوضعوا لها حدوداً ووازنوا بين سمات كل منهما، واهتمام النقاد كان واضحاً جلياً بقضية التصنيف الإجناسي، وتقارب الأنواع فيما بينها موضحين خصائص كل جنس، ونقاط الاشتراك الممكنة بينهما.

المحور الثاني: كتاب الصداقة والصديق:

من الحقائق المتفق عليها بين أكثر الباحثين أن القرن الرابع الهجري هو العصر الذي وصلت فيه العلوم والفنون والآداب إلى أعلى درجات الرُقي التي بلغتها، وإذا كان العصر العباسي الأول هو العصر الذهبي للدولة العربية الإسلامية، وفيه نقلت العلوم القديمة إلى العربية، وفي العصر العباسي الثالث نضجت العلوم على اختلاف موضوعاتها[1]، وفي هذا الجو نشأ أبو حيان التوحيدي وفتح عينيه على عصر من أخصب العصور معرفة، ساعدته على ترك إنتاج خصب في أكثر نواحي المعرفة، وليس غريباً إلى مثله أن يترك للأجيال مثل هذه الثروة الضخمة النادرة في قيمتها، خاصة أنه عاش قرابة القرن أو يزيد؛ ولأنه أجاد فن التأليف وقضى عمره في تحصيل **المعرفة** والتدوين، ولم يكن يحسن شيئاً آخر غير ذلك، ولذا جاءت مؤلفاته غزيرة في كمها، وعميقة في فكرها، ولولا أنه لم يحرقها في آخر حياته لكانت الفائدة أعم، ومن ميزات التوحيدي أنه كان أميل إلى فلسفة التشاؤم منه إلى فلسفة التفاؤل، نتيجة لما قاساه من الحرمان وكابده من مرارة الغربة وذل الفقر، وما عاناه من الإخفاق المتكرر في كل مساعيه ولم يكن في الأصل صاحب مزاج سوداوي يغلب عليه الحزن والانقباض وإنما كان محباً للحياة مقبلاً عليها، وهو يدرك ذاك تماما، ويقَّرر أن من شق أمله شق عمله، ومن اشتد إلحاحه توالى غدوه ورواحه، ومن أسره رجاؤه طال

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي رأيه في الاعجاز وأثره في الأدب والنقد: ١ /٢١.

عناؤه وعظم بلاؤه، ومن التهب طمعه وحرصه ظهر عجزه ونقصه[١]، ومن أهم مؤلفاته التي لها علاقة بالإشكالية المطروحة كتاب: **(الصداقة والصديق)**، ورد الاسم مختلفا في بعض المراجع وهو **(الصديق والصداقة)**، **(الصديق والتصديق)**، وهو أول ما نشر من كتب أبي حيان التوحيدي، ولقد جمع في هذا الكتاب أكثر ما قيل في موضوع الصداقة والصديق عند العرب في الجاهلية والإسلام شعراً ونثراً، ونقل كذلك عن الفرس واليونان وغيرهم من العجم[٢].

فـ**(رسالة الصداقة والصديق)** لأبي حيان التوحيدي التي كُتبت خلال ثلاثين سنة وتمت في أوائل القرن الحادي عشر عندما كان عمر كاتبها يناهز التسعين، لا يمكن أن تعد كتاباً فلسفياً علمياً بل هي أشبه بكتب**(الاستشهادات الأدبية)**، ولكنها لا تدور حول موضوعات عدة، بل حول موضوع وأحد، ففي هذه الرسالة جمع التوحيدي من دون ترتيب واضح كل ما سمعه أو ما قرأه عن فكرة الصداقة والصديق منذ العصر الجاهلي وحتى أواخر القرن العاشر الذي عاش فيه[٣].

المحور الثالث: السيرة الذاتية للتوحيدي:

أولاً: اسمه ونسبه:

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، أبو حيان، هكذا أجمع على **اسمه** كل من ترجم له[٤]، ولم يذكر وأحد منهم اختلافاً في ذلك، وذكر كل من ترجم له أن التوحيدي نسبة إلى نوع من التمور كان يبيعه أبوه، وإن رجح كل من ذكره أن التوحيدي نسبة إلى اعتزاله؛ ولأنهم يسمون أنفسهم أهل

---

(١) ينظر: الإمتاع والمؤانسة: ١٣.

(٢) ينظر: الصداقة والصديق عند التوحيدي: ١١٨.

(٣) ينظر: هات هذا الصاحب وخذ الخلافة: أبو حيان التوحيدي ومعضلة الصداقة٢٦٤.

(٤) ينظر : الأعلام : ١٤٤/٥ ،وأمراء البيان: ٤٩٢/٢، تاريخ الادب العربي: ٣٣٥/٤.

العدل والتوحيد[١]، وتميل الباحثة إلى أنَّ تسميته جاءت نتيجةً لارتباطه الديني، ولا تميل للقول الذي يذهب إلى نوع من التمور كان والده يبيعه، فضلاً عن تعدد الأقوال في أصله، إذ قيل من شيراز أو من نيسابور، وقيل من واسط[٢].

ويلحظ هنا كما يذكر الدكتور زكريا إبراهيم أنه ليس من السهل على مؤرخ سيرة أبي حيان التوحيدي أن يقطع برأي في الأصل الذي انحدر منه، فإن البعض يزعم أنه فارسي من أصل شيرازي أو نيسابوري أو واسطي، في حين يزعم آخرون أنه نشأ في بغداد، ثم وفد بعد ذلك على شيراز[٣]، وأكثر من ترجم له وعنى باستيفاء دقائق حياته هو ياقوت الحموي(٦٢٦هـ) قائلاً" التوحيدي، شيرازي الأصل وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي، صوفي السمة والهيئة، وكان يتأله، والناس على ثقة من دينه، قدم بغداد فأقام بها مدة ومضى إلى الري، وصحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل بن العميد، فلم يحمدهما وعمل في مثالبهما كتاباً، وكان متفننا في العلوم جميعها من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبنى ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه والسلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً، محارفاً محروماً يتشكي صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على

---

(١) ينظر: أمراء البيان: ٤٩٢/٢، وينظر: معجم الأدباء: ١٥/ ٥، وينظر: تاريخ الأدب: ٣٣٥/٤.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب: ٤ /٣٣٥.

(٣) ينظر: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف والأدباء: ١٣.

حرمانه، ولم أرَ أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب، غير أنَّ أبا حيان ذكر نفسه في كتاب الصديق والصداقه وهو كتاب حسن نفيس...[١]، ويبدو أن السبب في إهمال المؤرخين له حدة لسانه، وسوء مزاجه وتنوعه، وكذلك التشكك في دينه ورميه بالزندقة.

ثانياً: ميلاده ونشأته:

ولد التوحيدي في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في أوائل العقد الثالث[٢]، ويذكر الدكتور زكريا إبراهيم أن التوحيدي في العشرة الثانية بعد الثلاثمائه، أي حوالي عام **(٣١٠ أو ٣١١هـ)** على وجه التقريب، وعمَّر أبو حيان على رأس الخمسمائه أو بعدها بقليل[٣]، فبلغ عشر التسعين[٤]، ويذكر الزركلي أنَّ التوحيدي مات في استتارة عن نيف وثمانين عاماً[٥]، ونزل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر[٦]، وعاش حياة معذبة لجأ خلالها لمهنة الوراقة التي لم تكن تدر كثيراً ؛ ثم ذهب إلى الري؛ لينال فضلاً من أي من الوزيرين الفضل بن العميد**(٣٦٧هـ)**، والصاحب بن عباد**(٣٨٥هـ)** ولكنه لم يجد لديهما ما أمله ففارق بباب الصاحب بن عباد **(٣٧٠هـ)** وانتقم لنفسه بتأليف كتابه في مثالبهما، وظل مُطارداً وهارباً حتى مات في استتارة كما يذكر الزركلي[٧]، وقد اتفقت المؤلفات جميعها على أنه كان حاد الطباع، ميالاً إلى الانفراد بنفسه، ناقماً على حياته وعلى الناس

---

(١) ينظر: معجم الأدباء: ١٥/٥-٦.

(٢) ينظر: أمراء البيان: ٢/ ٤٩٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٤٩٢.

(٤) ينظر: أبو حيان التوحيدي : ١٧.

(٥) ينظر: الأعلام : ١٤٤/٥.

(٦) ينظر: أمراء البيان: ٢/ ٤٩٢.

(٧) ينظر الأعلام: ٥/: ١٤٤، وينظر: أمراء البيان: ٤٩٥-٤٩٧، ومعجم الأدباء: ١٥/ ٥.

الذين لم يقدروه كما يستحق؛ وسببوا له الكثير من الآلام؛ مرة بتجاهله وتركه نهباً للفقر، ومرة بالاتهام في دينه ومطاردته بسبب ذلك حتى مات في استتارة[١]، إلا أنه على الرغم من هذه الحدة كان مبرزاً في علمه وكان كما يذكر الدكتور ذكريا إبراهيم أنه فيلسوف الأدباء وأوديب الفلاسفة[٢]، وهذا يقودنا إلى عقله وشخصيته العلمية على نحو ما يأتي، كان أبو حيان واحداً من ألمع ثمرات الفكر الإسلامي وأكثرها نضوجاً، وهو صاحب عقلية من أكثر العقليات الإسلامية خصوبة وعطاء وتفجراً بالنفيس من القول، والسديد من الفكر، والراجح من الرأي، والوفير من الإنتاج، والسخي من العطاء[٣]، إذا كان المقصود بالشخصية كما يقول علماء النفس هو جميع الصفات الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية في حالة تفاعل بعضها مع بعض الآخر، وتكاملها في شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية معينة، فالتوحيدي فيلسوف نفساني يتمتع بعين بصيرة نفاذة، وروح نقدية منمازة، فهو يفطن إلى عيوب الناس الخفية، ويدرك حقيقة بواعثهم، ولعل هذا هو السبب في أننا كثيرا ما نراه يغوص في طوايا النفس البشرية، لكي يكشف على الملأ نقائصها وشتى مظاهر ضعفها المختلفة، وهو قد يبدو قاسياً أحياناً في أحكامه على الناس، ولكن رُبَّما كان السر في هذه القسوة هو أنه كان يرفض المجاملة الرخيصة، والنفاق، والمؤاخاة الزائفة[٤].

وقد شهدت له كتبه بأنَّه متصوف، وفيلسوف، وأنه جمع بين العلوم المادية وغيرها، وفي كل علم قسط من النظر وليست له طريقة خاصة في

---

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي: ٥-٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ٦، وينظر: معالجة الحضارة الاسلامية : ١٨١-١٩٩.

(٣) ينظر: معالجة الحضارة الاسلامية : ١٨١، وينظر: أبو حيان التوحيدي : ٢٠ ، وينظر: أمراء البيان : ٢/ ٤٩٢.

(٤) ينظر: مبادئ علم النفس العام : ٣٣٧.

التصوف، ولا مذهب معروف في الفلسفة، بل إنه أحاط بجميع الطرق، وحنى عليها، وطابت نفسه بعشرة أهل مشقتها والأخذ عنهم[١].

ثالثاً: مؤلفاته واهتماماته الموضوعية:

اكتسب أبو حيان من شيوخه معرفة موسوعية واضحة، ممَّا أدى إلى اتسام إنتاجه الفكري بطابع تحرري متفتح، لا نكاد نجد له نظيراً عند غيره من مفكري عصره [٢]، فلم يقف اهتمامه الموضوعي عند الفلسفة والأدب، بل امتد أيضاً إلى الكلام والفقه والشريعة والتصوف والنحو واللغة، إلا أن أبا حيان قد إلتزم في معظمها أسلوباً وأحداً، ألا وهو أسلوب المحاورة والمسامرة، فجاءت كتبه سهلة المأخذ، بعيدة عن التكلف والتعسف، بريئة من اللبس والغموض[٣]، قد ذكر المؤرخون سبعة عشر مؤلفاً من كتب أبي حيان اتفق عليها كل ومن ياقوت الحموي في معجمه، ومحمد كرد علي في أمرائه[٤] وهي :

١) رسالة الصداقة والصديق.

٢) الرد على ابن جني في شعر المتنبي.

٣) الإمتاع والمؤانسة **(جزءان)**.

٤) الإشارات الإلهية **(جزءان)**.

٥) الزلفة.

٦) المقابسة **(أو المقابسات)**.

٧) رياض العارفين.

٨) تقريظ الجاحظ.

---

(١) ينظر : أمراء البيان : ٤٩٤.

(٢) ينظر: أبو حيان التوحيدي: ٣٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٨٨، وينظر: الاشارة في النص : ١٨.

(٤) ينظر: معجم الأدباء : ٨/٧، وينظر: أمراء البيان: ٢ /٤٩٣-٤٩٤.

٩) ذم الوزيرين.

١٠) الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.

١١) الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.

١٢) الرسالة البغدادية.

١٣) الرسالة في أخبار الصوفية.

١٤) الرسالة الصوفية.

١٥) الرسالة في الحنين إلى الأوطان.

١٦) البصائر والذخائر وهو عشر مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة.

١٧) المحاضرات والمناظرات.

وقد زاد الدكتور مصطفى الشكعة في معالم الحضارة الإسلامية[١]، كتابه أو الشوامل وهي شركة بينه وبين مسكويه(**٤٢١هـ**) بينما لم يذكر الزركلي في أعلامه سوى ثمانية مؤلفات، وكان ياقوت الحموي هو العمدة في ذكر هذه المؤلفات؛ وإثباتها، فإن هناك كتباً أخرى لم يشر إليها في حين أشار إليها التوحيدي نفسه في ثنايا كتبه، مثل كتاب (**النوادر**)، وكتاب (**الكلام في الكلام**)، وقد زعم المستشرق مرجليوث أن للتوحيدي كتابين آخرين هما كتاب التذكرة التوحيدية، وأخبار القدماء، وذخائر الحكماء، وربما كان هذان الكتابان هما كتاب (**الرسالة البغدادية**)، وكتاب (**البصائر والذخائر**)، باسمين مختلفين، مثل كتاب (**الهوامل والشوامل**)، وكتاب (**رسالة في العلوم**)، وكتاب (**رسالة الحياة**)، وكتاب (**رسالة في علم الكتابة**)، هذا فضلاً على (**رسالة الإمامة**) التي اشتهرت بـ(**المعروفة برواية السقيفة**) و(**المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي**) وهي واردة بنصها في الجزء الأول من (**الإمتاع والمؤانسة**)، مما اضطلع بنشره بعض الباحثين في كتب أو رسائل قائمة بذاتها، ولا نستبعد أن تكون

---

(١) ينظر: معالم الحضارة الإسلامية : ١٨٣.

للتوحيدي كتب أخرى لم يصل إلينا نبؤها، فإن المعروف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج، حريصاً على النقل والرواية، محباً للبحث والجدل[١].

رابعاً: وفاته:

تضاربت آراء ممن ترجم للتوحيدي في تحديد سنة وفاته، فمنهم من جعلها سنة (٣٦٠هـ) وهذا التاريخ غير صحيح بدليل أن التوحيدي أحرق كتبه سنة (٤٠٠هـ) ورسالته إلى القاضي أبي سهل سنة (٤٠٠هـ) ويرى البعض إلى أنه توفى في مطلع القرن الخامس الهجري إلا أن الظاهر أن الأجل مدّد بعمره إلى العام الرابع عشر من القرن الخامس، إذ توفي وعمره (١٠٤) أعوام، وذكر **آدم متز**[٢] أن التوحيدي توفى سنة (٤٠٠هـ)، وهذا أبعد عن التصديق؛ لأن الدلائل الأخرى من التوحيدي وغيرها ترجح أنه توفي سنة (٤١٠هـ)، وما بعدها إلى سنة (٤١٥هـ) وروى فارس بن بكران الشيرازي- وكان من أصحاب التوحيدي في الساعات الأخيرة من حياة صاحبه – فقال " لما احتضر أبو حيان كان بين يديه جماعة فقالوا: اذكر الله هذا مقام خوف وكل يسعى لهذه الساعة، وجعلوا يذكرونه ويعظونه"[٣]، وقد يعود هذا التضارب إلى تنوع الرؤى بالتوحيدي وانتمائه ومعتقده.

---

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي : ٨٧-٨٨ ، وينظر: أمراء البيان : ٤٩٨/٢.

(٢) آدم متز: مستشرق سويسري ألماني أستاذ اللغات الشرقية واهتم بدراسة الأدب العربي. ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متز، مكتبة وهبة، مصر، د.ط، د.ت: كلمة الناشر.

(٣) ينظر: دلالة الأنس في ليالي الإمتاع والمؤانسة: ٣-٤.

المحور الرابع: منهج الكتاب:

أولاً: مقدمة الكتاب:

بدأت المقدمة بدعاء يحمل في طياته صيغة الرجاء من حيث الستر والرزق والألفة التي تُصلح القلوب وتنقي الجيوب حتى نتعايش، وبهذا الفعل هو تطبيق لشرائط الدين آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسه ما يقدح في ذات البين ثم يشرع في ذكر تأليف الرسالة، ثم ذكر دعوة الخوارزمي(٢٣١هـ) ثم عاد ليذكر دعاءً خاصاً به، وبعد ذلك طرح موقفاً عن الصداقة العجيبة والرصينة وكان حديثه سيار القاضي وأبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني(٢٤٨هـ)، إذ بيَّن علاقتهم وترابطهم النفسي، ذاكراً أحاديث لهم تخص الصداقة، وهنا قام التوحيدي بتقديم راضٍ عن الصداقة، فضلاً عن ذلك مقدمة الكتاب لا تشرح لنا غرض الكاتب وما يريد أن يحققه في كتابه، بل هي عبارة عن دعاء إنسان ضعيف يقف أمام إله جبار، وإن كان لهذا الدعاء ارتباط قوى بموضوع الكتاب، فالعبد هنا لا يسأل ربه أن يغفر له خطاياه وأن يجعل مصيره الجنة، بل أن يرزق الناس والألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقى الجيوب، حتى نتعايش في هذه الدار مصطلحين على الخير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة[١].

ثانياً: أسباب التأليف:

وفي تأليف الرسالة فيقول: "سمع منى في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة...وسئلت إثباته ففعلت ولكن من الذي سمعه في بغداد يتكلم عن الصداقة والألفة، ومن الذي سأله أن يثبت

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق أبو حيان التوحيدي: ١.

ذلك؟ لا يذكر التوحيدي بدقة الأجوبة عن هذه الأسئلة في هذا الموضع، بل يفضل أن يتحدث عن أشياء أخرى، وبعد صفحات عدة يعود فيذكر سبب إنشاء رسالته **(الصداقة والصديق)** فيقول: وذكرت شيئاً منها **(الرسالة)** لزيد بن رفاعة أبي الخير من جماعة إخوان الصفاء، ذكره التوحيدي في كتاب **(الإمتاع والمؤانسة)** فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله وزير صمصام الدولة البويهي استوزره عام(٩٨٣م) وقتله سنة (٩٨٥م) سنة أحدى وسبعين وثلاثمائة(٩٨١م) قبل تحمله أعباء الدولة، وتدبيره أمر الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على إذلالها جارية، فقال ليب ابن سعدان: قال لي زيد عنك كذا وكذا قلت: قد كان ذاك، قال: فدون هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم، فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب، فجمعت ما في هذه الرسالة، وشغل عن رد القول فيها، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان [يعنى أنه قتل قبل أن يرى الرسالة"[١]، وعلى الرغم من الضعف الظاهر في بنيان الرسالة المنطقي فإن كتاب التوحيدي يظل تحفة نادرة في تراثنا العربي لمعالجته فكرة واحدة وهي الصداقة.

١) بيَّن المحقق ترجمة للتوحيدي وعصره وما ألحق بحياة التوحيدي.

٢) وضع مقدمة واضحة للكتاب بيَّن معالم الكتاب

٣) قدم للموضوع من خلال حديثه عن الصداقة والصديق بعنوان رئيس، من بعد ذلك عاد لكتاب الصداقة والصديق ليتحدث عنه وكيف صارت فكرته في تدوين هذه الرسالة وكيف كانت الظروف غير مؤاتيه حتى تمكن من كتابة هذا الكتاب، وفي هذا الكتاب حافظ التوحيدي على وحدة الموضوع خلافا لبعض مؤلفاته، حيث جاءت الرسالة من دون تقييم أو تبويب من الأقوال التي تتصل بالصداقة والصديق، سواء تقر بفائدة الصداقة أو تنفيها

---

(١) هات هذا الصاحب وخذ الخلافة : ٢٦٥.

والرسالة وإن اشتملت على كل ما يتعلق بالصداقة من آراء، إلا أنها في جملتها تدعو إلى سوء الظن بالأصدقاء والصداقات؛ لأن أبا حيان استجاب فيها لتجاربه وطبيعته[١]، وهذا يؤكد أن توظيفه للنصوص جاء على نحو القصد.

ومن مميزات هذه الرسالة ما انطوت عليه من مترادفات، مثل قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة: الصداقة إذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من توازي الشهوة، وأثر من آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد وأخذ بأهداب السداد، وأما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والشقق والتهيم والهوى، وهذه كلها أمراض أو كالأمراض، وهكذا فهو يعالج هذه الظواهر الاجتماعية بمعيار فلسفي نفسي، ويتحدث عن تقارب النفوس وتباعدها وتداعي الطباع وتلاقيها، باستحياء صادق لدخائل النفوس وخلجات القلوب، فمناغاة الصديق أعبث بالروح وأندي على الفؤاد من مغازلة المعشوق؛ لأنها تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق[٢]، وباختصار فإن التوحيدي لم يتناول مشكلة الصداقة بشكل علمي، فلم يكن هناك مقدمة تتبعها تقسيمات واضحة، أو نتائج بارزة، كما فعل أرسطو، ولم يكتب حوارَ الصداقةِ والصديق يفند فيه آراء الآخرين ومعتقداتهم كما فعل أفلاطون، بل فضَّل أن يجمع كل ما سمعه، أو قرأه عن الموضوع منذ العصر الجاهلي وحتى القرن العاشر، وكان غالبية الناس الذين استشهد بهم من الشعراء، أو الأدباء، أو الفلاسفة اليونان والمسلمين واللغويين ولم يسمع في كتابه سوى صوت امرأة إعرابية واحدة تشكو من علاقتها هي بالناس في زمانها، ولم يكن لها اسم على عكس الرجال الذين نعرف عن بعضهم أشياء

---

(١) ينظر : أبو حيان التوحيدي: ٦.

(٢) ينظر: الصداقة والصديق : ١٣.

كثيرة **(فكتب التاريخ الأدبية تذكر لنا أي مناصب شغلوا في حياتهم، والكتب التي كتبوها، وماذا قال عنهم أصدقاؤهم أو معارفهم، وفي أحيان قليلة من هي حبيباتهم، كما هي الحال عند جميل بثينة)** آخرون، ومن هم وعلى الرغم من عدم وجود منهج علمي، أو ترتيب منطقي في كتابه، ومحاولته الدائمة الاختفاء خلف أقوال الرجال الآخرين، فإن القارئ يستطيع، وبعد جهد، أن يكتشف الخطوط العريضة لأفكار التوحيدي حول مفهوم الصداقة[1]، وهناك تناقض واضح في وضع الإنسان في هذا العالم: فمن جهة خلق الإنسان مدنياً بطبعه، وهو بحاجة إلى صديق، ومن جهة أخرى فإن الإنسان عاجز عن أن يجد صديقاً حقاً وهذه هي المعضلة التي أراد التوحيدي أن يعرض لها، وأن يجد لها حلاً مقبولاً، وعلى الرغم من مئات الاستشهادات التي يوردها من دون ترتيب، أو تنظيم منطقي، فإن من الواضح أن هناك ثلاثة مواقف رئيسة في الكتاب تناول مفهوم الصداقة والصديق بشكل عام، وما عداها يشير إلى مشاكل فرعية، كالتمييز بين الصداقة والعلاقات الإنسانية الأخرى، أو إلى صداقة المتشابهين والأضداد، أو إلى ضرورة كثرة الأصدقاء أم قلتهم، أو إلى مسألة من هو أفضل الصديقين، وهكذا والمواقف الرئيسة هي:

١- موقف أن سليمان المطلقي السجستاني(٣٨٠هـ)، أستاذ التوحيدي في الفلسفة، وفيه يؤكد أن تعريف أرسطو الصديق هو إنسان يمثلك قبل ان يمثل نفسه وعبَّر عنه بقوله**(الصديق هو أنت)**.

٢- موقف التوحيدى نفسه: كيف يمكن أن يجد الإنسان الفاضل إنساناً فاضلاً مثله، وهو منذ أن خلق مطبوع على الشر؟ ليس هناك إنسان فاضل، والصداقة نتيجة لذلك مستحيلة والصديق ليس سوى وهم.

---

(١) ينظر: هات هذا الصاحب وخذ الخلافة : ٢٧٣.

٣- موقف ابن برد الأبهرى، وكان من غلمان بن طاهر، وفيلسوف آخر من دون اسم، المسألة ليست مسألة أخلاقية شخصية، وإنما لها علاقة متينة جداً بالعصر وبالحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالصداقة تزدهر في ظل حكم عادل، وتموت في ظل حكم طاغ، وهذا يعنى أن أخلاق الناس ليست غريزية، كما يقول الدوميدي، بل مكتسبة، فالمدينة العادلة تنتج نشأ عادلاً، ويكثر فيها الرجال الفضلاء، تصبح الصداقة غير بعيدة المنال، ونتيجة لذلك، وهذه المواقف الثلاثة لا يمكن أن تجتمع مع بعضها؛ لأن أولها يؤكد أن هناك صفوة فاضلة من الناس في أي عصر[١]، وثانيها يلاحظ أن الإنسان شرير في كل زمان ومكان، وثالثها يخلص الإنسان من مسؤولية الخير والشر، ويضعها على عاتق المجتمع، ولكن على الرغم من اختلافاتها حول طبيعة الإنسان، فإن الصداقة المثالية بين رجلين تظل إما نادرة، أو مستحيلة، وبما أن الإنسان مدني فيما يرى التوحيدي، ولا يمكن له أن يستمر في هذه الحياة من دون أن يكون له أصدقاء ، فمن له أن يعترف بقصوره وقصور الآخرين، وأن يتعلم معنى الصبر والصفح عن الذنوب، هذا ما يقترحه الكاتب لحل المعضلة، ويأتى ذلك قبل نهاية الكتاب عندما يخاطبنا نحن القراء، وتعاد الفكرة نفسها بشكل غير مباشر في آخر صفحة منه، وقبل اعتذار التوحيدي من طول رسالته[٢].

ويقول التوحيدي: الأنسب نص مهم ونحن لم نخالف في ماعممنا به من الذم في باب الإخاء والأنس **قول النابغة(٦٠٤م):**

ولست بمستبق أخا لاتلمه

---

(١) ينظر: هات هذا الصاحب وخذ الخلافة : ٢٧٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٤.

على شعث: أي الرجال المهذب؟ أما آخر بيت شعر يستشهد به التوحيدي في كتابه فهو يحض على الغفران: ومن لم يطب نفسا ويستبق صاحبا، ويغفر لأهل الود يصرم ويصرم، وهكذا، نستنتج أن التوحيدي لم يشأ أبداً أن يدعونا إلى الزهد في البحث عن الصديق، إلا أنه أراد أن ينبهنا إلى طبيعتنا الإنسانية غير الكاملة، وإلى قلة إنصافنا في بحثنا عن صديق كامل، وليس بوسعنا نحن أن نكون من الكاملين، وبهذا يقترب من أرسطو الذي يقر بوجود أنواع أخرى من الصداقة إلى جانب تلك الصداقة المثالية، إلا أن التوحيدي لا يحدد بالضبط ما يعنى، بل كل ما يقوله هو إنه سيغفر للصديق إذا ما وجد **(من يسلم لنا جملة إخائه)**[1]، وقال التوحيدي في بداية رسالته: "ومن أين يظفر بالغداء، وإن كان عاجزاً عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصراً عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طمرين للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف يهرول وراء الخير المدبر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكي إلى غير رحيم"[2].

ثم يشرح لنا بدقة المشكلة التي يعاني منها فيقول: استمراري على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مُرَّتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأسى؛ لأني فقدت كل مؤنس، وصاحب، ومرفق، ومشفق، والله! لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عصار، أو نداف، أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمست غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستانا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتاداً للصمت، مجتنفا على الحيرة، محتملا الأذى، بائساً من جميع من

---

(١) هات هذا الصاحب وخذ الخلافة : ٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٦.

ترى، متوقعا لما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفاء وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول"[١].

ويقدم لنا التوحيدي صورة بائسة لرجل عجوز يعاني الفقر، من دون صديق ولا مؤنس، ينتظر الموت في أيةِ لحظة لكنه مع ذلك متكبر على المسلمين الآخرين الذين يصلون إلى جانبه في الجامع من أمثال البقال والعصار والنداف والقصاب، هل هذا يعني أن الصداقة بين العالم والبقال مستحيلة؟ الإسلام يدعو إلى المساواة بين جميع الناس والمرء لا يدرى لماذا يبدو التوحيدي كأنه يحتقر هؤلاء ؟ كما أنه من المفروض أن يكون المسلم نظيفا عندما يصلى. لكن التوحيدى لايشم إلا رائحة الصنة في المصلين إلى جانبه، وكالعادة، لا يفسر الكاتب لنا موقفه بوضوح، بل يكتب شيئا عن تمجيد الصمت كأنه يقول لنا إن عصره يجبره على الصمت، وإنه لا يستطيع أن يوضح أفكاره أكثر من ذلك. وسيتبين لنا فيما بعد أن الصداقة الحقة في عرف التوحيدي، كما هي أيضا عند أرسطو، لا تتم إلا بين أناس متساوين في مقاماتهم الاجتماعية، وفي ملكاتهم العقلية، وإذا كان أرسطو قد أورد مثال الزوج والزوجة، أو الأب والابن؛ ليبين وجهة نظره حول عدم مساواة الطرفين؛ لأن الزوج، أو الأب، هو رب البيت، وصاحب السلطة العليا، فإن التوحيدي أورد مثال العالم والبقال، والنداف، والقصاب؛ لأن العالم يتمتع بملكات عقلية كبيرة، ولا يمكن لمن دونه في ذلك أن يصبح صديقه الحق[٢]، ولربما كان دعاء الخوارزمي الذي ورد في بداية الرسالة، بعد المقدمة وسبب تأليف الكتاب، المفتاح الرئيسي لمشكلة العصر الذي تستحيل فيه الصداقة. يقول الخوارزمي الذي مات غما على إثر محاورات جرت له مع البديع الهمذاني عام(٣٨٣هـ):"اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب

---

(١) الصداقة والصديق: ٨-٩.

(٢) ينظر: هات هذا الصاحب وخذ الخلافة : ٢٦٦.

الناس فقد فسدت، ولا تمتنى حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم"[١].

وعلى الرغم من أنَّ التوحيدي لا يوضح لنا منذ البداية أن الوفاء والقلب النقي، والعقل، والعلم، هذه الفضائل الخلقية والعقلية التي يعظمها الخوارزمي، هي أشياء أساسية وضرورية لوجود الصداقة الحقة بين شخصين في أي مجتمع كان، فإننا نستنتج ذلك بطريقة غير مباشرة وتتضح الأمور لنا شيئا فشيئا عندما يعرض علينا التوحيدق حواراً جرى بينه وبين معلمه الفيلسوف أبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني، يقول التلميذ للمعلم: "وإني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجه نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يابني! اختلطت ثقتى به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهرة ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة، حتى إنا نلتقى كثيرا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها نسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل"[٢].

ونكتشف أن التلميذ لا يفهم ماهية هذه الصداقة والعجيبة، بين شخصين تختلف مهنتهما أشد الاختلاف، إلى جانب تباين أصلهما، فالتلميذ الفيلسوف يخوض في **(الغوامض والدقائق)** وصوره مأخوذة من الحكمة[٣].

---

(١) الصداقة والصديق : ٢.

(٢) هات هذا الصاحب وخذ الخلافة: ٢٦٧.

(٣) ينظر : الصداقة والصديق : ٣.

بينما القاضي يخوض في الظواهر، ويتعامل مع سواد الناس، بالإضافة إلى أن أصل أحدهما من سجستان والآخر من بلدة الصيمرة بالقرب من البصرة، فيشرح المعلم أن هذه الفروق ماهي إلا خلاف الشكل للشكل، ويؤكد الصفات التي تجمعهما، وهي لا تختلف عما أبرزه الخوارزمي في دعائه: الوفاء، والقلب النقي، والعقل، والعلم لكنه يضيف أيضا تأثير النجوم على صداقته للقاضي. وكان العرب آنذاك، كفلاسفة اليونان، يؤمنون بأهمية علاقة الإنسان وأبراجه الفلكية. ثم يؤكد المعلم لتلميذه أن «الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور[١]، وبعد ذلك يقسم الناس إلى فئات ليشرح للتلميذ من يستطيع أن يصادق ومن لايستطيع أن يصادق:

١) فئة الملوك، وهؤلاء جلوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفى بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف،. ويشبههم في ذلك خدمهم، وهم أيضا خارجون عن حدود الصداقة

٢) التناء وأصحاب الضياع، وهؤلاء لا يفهمون شيئاً عن الصداقة.

٣) التجار، همهم جمع الثروات وهذا ما يقف بينهم وبين كل مروءة.

٤) أصحاب الدين والورع، على قلتهم فلربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على احكام الحرج ،وطلب سلامة العقبى

٥) أهل العلم والكتاب قد تصح لهم الصداقة **(إذا خلوا من التنافس)**

٦) الهمج والرعاع من الناس من طبعهم اللؤم؛ ولذلك تستحيل الصداقة بينهم[٢].

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ٥.

(٢) ينظر المصدر نفسه: ٣٣.

وإنَّ الملاحظ على هذا التصنيف أنه وجداني يرتبط بذات التوحيدي وبيَّن الطبقات على وفق ما يراه ولم يذكر التوحيدي خاتمةً لكتابه ظناً منه أنه قد أوصل رسالته بهذا التقسيم الذي نظم الكتاب على وفقه ومن ثم ذُكر الاعتذار الخاص بالمؤلف عن طول الرسالة حيث قال:" وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة، يسهل انتساخها وفراءتُها، فماجت بشجون الحديث وروادف من الطيب والخبيث[١].

ثم ذكر فهرس الأعلام والأماكن والبلدان والأمم والقبائل والطوائف وأسماء الكتب المذكورة في الكتاب **نستنتج** من ذلك كله أن الصداقة في عرف المعلم السجستاني هي في حكم المستحيل، وإذا ما حققت بين شخصين فإنهما لا يمكن أن ينتميا إلا إلى فئة أصحاب الدين والورع، أو إلى طبقة الكتاب، وإذا ما كان المعلم يترك لنا بعض الأمل في إمكان عقد صداقات، خاصة بين أولئك الذين صفت نفوسهم من الشر والتحاسد وإن كانوا قلة في هذا العالم إلا أن التلميذ التوحيدي يجعلنا نشكك منذ البداية في طبيعة الإنسان، مؤكدا لنا أن الصداقة لم توجد حتى في عصور أفضل من عصره، وفي زمن كان الدين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادي بين الناس[٢].

مورداً مثال جميل بن مرة(**٨٢هـ**)[٣]حين: لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبا، ولا ستروا لي عيباً، ولا حفظوا لي غيباً، ولا أقالوني عثرة، ولا رحموا لي عبرة، ولا قبلوا منى عذرة، ولا فكوني

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٩.

(٣) جميل بن مرة: عباد بن عباد بن حبيب بن أبي المهلب بن أبي صفرة أبو معاوية العتكي الأزدي المهلبي البصري. ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تح: د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢: ٥/ ٦٧.

من أسرة، ولا جروا منى كرة ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشغل بهم تضييعاً للحياة، وتباعدا عن الله تعالى... ولذلك قال الشوري لرجل قال له أوصني قال: أنكر من تعرفه، قال زدني قال: لا مزيد[١].

وبعد مثال جميل بن مرة، يورد التوحيدى أربعة استشهادات، وكلها تعيد الفكرة نفسها: الصداقة شيء مستحيل الإنسان مفطور على الشر، لايعرف الوفاء قلبه فاسد، وعقله غير راجح، ولا تربط هذه الأمثلة بين عدم وجود الصداقة وبيئة اجتماعية سياسية بعينها، بل تركز على طبيعة البشر الفاسدة في كل زمان ومكان: الأخير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم والاعتماد عليهم يؤكد لنا ابن كعب(**الصداقة مرفوضة، والحفاظ معدوم، والوفاء اسم لاحقيقة له**)[٢]، وهكذا منذ بداية الكتاب، يعرض التوحيدى علينا موقفين تجاه الصداقة حتى قبل أن يعرفها:

الموقف الأول وهو الذي يؤيده معلمه السجستانى، والقائل بأن الصداقة صعبة التحقيق لأن الناس مشغولون في سعيهم وراء السيطرة والقوة كالحكام، أو الثروة كالتجار وأصحاب الضياع، أو غارقون في الجهل كعامة الناس. ولكن صفوة مختارة منهم قد تستطيع أن تعقد صداقات، وهذه الصفوة هي من الناس التي صفت نفوسها من الحسد والتباغض. ويقترب السجستاني في نظرته هذه من الفارابي معلمه الذي يؤكد أن السعادة المثلى لا تتم إلا في مدينة متدينة، ومجتمع فاضل يعيش فيه أهله متآخين.

أما الموقف الثاني وهو الذي يؤيده التوحيدي، فيركز على أن الصداقة مستحيلة لأن أخلاق الناس ليست مكتسبة بل غريزية، والإنسان في نظره لا يبشر بالخير والتوحيدي، على عكس عادته، يوضح ذلك لنا هذه المرة، فلا الأمثلة هكذا ويتركنا نستنتج موقفه، بل يقول في موضعين،

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ٨-٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٠.

الموضع الأول قبل أن يعرض الأمثلة: **(وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبه بالصديق)**، والموضع الثاني بعد انتهائه من إيراد استشهادات عن استحالة الصداقة، يقول: **(استرسال الكلام في هذا النمط شفاءً للصدر. وتخفيفاً من البرحاء... وتعليلاً للنفس)**[١].

ما تعريف هذه الصداقة المثالية التي لا يمكن أن تدرك ؟ يستشهد التوحيدي بتعريف أرسطو فيقول: (قيل لأرسطو طاليس الحكيم معلم الإسكندر [الملك].من الصديق ؟ قال: إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك)، ثم يسأل أبو سليمان السجستاني بأن يشرح هذا التعريف، فيقول: وهذا رجل أرسطو دقيق الكلام، بعيد المرام وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها، ألا ترى أن لهذه الموافقة أولا، منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأول هذه الموافقة توحد، وآخرها وحدة، وكذلك أن الإنسان واحد بما هو به إنسان، كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق؛ لأن العادتين تصيران عادة وأحدة، والإرادتين تحولان إرادة وأحدة، ولا عجب من هذا، فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر الحلاج(**٣٠٩هـ**) بقوله:

"روحه روحي، وروحي روحه إن يشأ شئت، وإن شئت يشا"[٢]

وليس يبعد هذا عليكم إلا لأنكم لم تروا صديقاً لصديق، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبس[٣]، ويشرح المعلم لتلاميذه الفرق بين الأصدقاء والمعارف، منبها إياهم إلى" أن الصداقة الحقة هي شيء نادر وبعيد المنال، ولكن ليس ينبغي أن يقنط من الظفر

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ١٢.

(٢) شرح ديوان الحلاج: ١٥٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٥-٥٦.

بـه"[1]، ففـي رأيـه أن الإنسـان مخيـر، لا مسـير، وإذا مـا تعلـق بحبـل العقـل، واعتصـم بالـدين، فسيصـل إلـى تلـك الموافقـة، والوحـدة، اللتـين يتحـدث عنهمـا أرسطو.

(١) الصداقة والصديق: ٥٧.

الفصل الاول

(الشعر في كتاب الصداقة والصديق)

المبحث الأول: الأغراض الشعرية

المبحث الثاني: اللغة الشعرية

المبحث الثالث: الصورة الشعرية

توطئة:

الشعر هو ميدان العرب وسجلهم الأول وباعثهم له هو ارتباطهم وشغفهم به؛ كونه نسج تاريخهم الحافل بالحروب والكرم والشجاعة وغيرها، وحضور الشعر وتداوله على ألسنة الناس؛ كونه العامل لحياتهم من حيث تجسيده لثقافتهم، ولقد كان للشعر أغراض مثل **(المديح، والهجاء، والرثاء، والفخر)** وغيره، وأخذت هذه الأغراض بالتطور حتى وصلت إلى الشعر العباسي وما طرأ في هذا العصر من تغيرات نتيجة تداخل الثقافات وسعة الحاضرة وتنوع البيئات، وكذلك المكونات التي تطورت على وفق تطور بنية القصيدة وأثر البيئة فيها، فالشعر في البيئة الجاهلية هو غير الشعر في العصر العباسي من ناحية المضمون، فالاختلاف البيئي أدى إلى تطور بنية القصيدة وتطور ملامحها وأدوات بنائها وأساليبها، وقد أخذت لغة الشعر الدور الرئيس في بناء هذا النص، إذ إنَّ لكل شاعر من الشعراء لغته التي يبني بها نصوصه وأدواته حسب ما يمتلكه من وعي بالمفردة وعمق في التصوير، فضلاً عن استعماله البحر الشعري على وفق الحاجة أي أنَّ البحر الطويل يستعمل في أوقات الحزن والوجع، بخلاف البحر الخفيف الذي يستعمل في أوقات الفرح والبهجة وغيره، وعلى الرغم من أن الشاعر الجاهلي لم يكن عارفاً بالبحور إلا إنَّه كتب بمختلف البحور، فالإبداع الشعري في كتابة النص ينطلق من لغة النص ذاته، ومكونات بنائه التي تمثل الركيزة الرئيسة في المؤثرات الإبداعية والإلهامية للشاعر، وكذلك اللغة تؤسس لفكرة الخيال عن طريق انزياحها من اللغة المباشرة إلى اللغة الموارية التي تقوم بنقل الفكرة من اللغة العادية إلى اللغة الأدبية –الإمتاعية والإدهاشية–[1]، وما تصوره من وعي فكري وحضور ثقافي في ذهن المتلقي

---

(١) ينظر: الفخر في الشعر العربي: ١٥–٢٠.

ممـا يولـد تشـبيهات واسـتعارات وكنايـات تعكـس طبيعـة خلـق الصـورة الإبداعيـة لـدى الشـاعر، ومـن هنـا سـيتم الكشـف عـن هـذا الفصـل مـن خـلال ثلاثـة مباحث وهي على ما يأتي:

المبحث الأول

الأغراض الشعرية

مدخل:

تمثل الأغراض الشعرية رافداً من روافد الإبداع الشعري ولاسيما في طريقة بناء هذه الأغراض وتقديمها بشكل قالب شعري يعبر به الشاعر عمَّا يجوب صدره من مشاعر وعواطف، وتنوعت الأغراض الشعرية منذ العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي وهذا التنوع ناتج عن البدايات الأولى للشعر الذي بدأ بأغراض تداولها القدامى وأخذت بالانفتاح حتى جاء العصر العباسي بأغراض جديدة وظفها التوحيدي في كتابه، إلا أن النصوص الشعرية التي تنولها في كتاب الصداقة والصديق تنوعت وسأوضحها في هذا المبحث، فضلاً عن بروز بعض الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي؛ كون الشاعر العباسي اتسعت مرجعياته الثقافية ومشاربه المعرفية، وأفاد منها التوحيدي في كتابه، عن طريق استدعائها، ونجد أن ثقافة التوحيدي التي تنوعت بين الفكر الاعتزالي والجذور الفارسية والانتماءات الفكرية اليونانية وارتباطه الديني جعل هذه المضامين جميعها تدخل في تحديد النصوص الشعرية التي أفاد منها في كتاب الصداقة والصديق الذي مثَّل رسالة اجتماعية بصياغة أدبية، أي أن انعكاسات الواقع الاجتماعي عبَّر عنها الشعراء ليرصد ما باحت بهِ قرائحهم[1]، ومن هنا سأتناول الأغراض الشعرية التي أوردها الشاعر في هذا الكتاب وهي كما يلي:-

أولاً :غرضا المديح والرثاء: يمثل غرض المديح أكثر الأغراض الشعرية حضوراً في الأدب العربي على وجه العموم، إذ تشكلت فكرة المديح

---

(١) ينظر: إحياء الشعر: ٨٢-٩٠.

في مراحل فجر التاريخ الأولى للإنسان؛ وذلك عن طريق الفوارق الاجتماعية بين الفرد والأخر، أي قيام أفراد بمدح آخر بمرتبة من المراتب التي يسمو بها على غيره، على الرغم أن كتب التاريخ لم تصدر لنا إرهاصات المديح عند الإنسان الأول، إلا أن ملامحه الأولى قد بانت بين تفضيل شخصٍ على آخر من خلال أحاديثهم أو طعامهم أو أشكالهم وإلى آخره.

ولقد تنوع المديح بعد حين في أدبنا العربي بين مديح المعبد وأتباعه من الكهان والسدنة، فضلاً عن الأشراف والسادات وغيرهم، وتطور في العصر الإسلامي إلى مدح النبي، ومدح الملوك والخلفاء والقادة وغيره ممن شارك في الدولة، ومن المقربين من البلاط [١]، وأخذ المديح في العصر العباسي مثل غيره من الأغراض الشعرية، ولقد وصل مديح العباسي ولاسيما مدح البلاط والحكومات إلى معاني المبالغة والمغالاة حتى إنهم زيفوا بعض عواطفهم فخرج شعرهم عن حقيقة العواطف وصدقها إلى مدح أصحاب النعم من الخلفاء ووزرائهم وما شابه من أصحاب البلاط [٢]، واشتمل كتاب الصداقة والصديق على غرض المديح، ومن مختلف العصور، وله في ذلك شواهد، ومنه قول الشاعر زياد الأعجم(١٠٠هـ) من {الوافر}

" أخ لَك لَا تَرَاهُ الدَّهْر إلا على الْعَلَّات بَسَّامًا جَوَادًا

أَخٍ لَك لَيْسَ خَلَّتِه بمذق [٣] إذَا مَا عَادَ فَقْر أَخِيه عَادًا"[٤].

---

(١) ينظر: المديح: ٧-١٣.

(٢) ينظر: المديح في الشعر العربي: ٣٩.

(٣) مذق: المَذِيقُ اللبن الممزوج بالماء مَذَقَ اللبنَ يَمْذُقه مذْقاً فهو مَمْذوق ومَذِيقٌ ومَذِقٌ خلطه الأخيرة على النسب والمَذْقةُ الطائفة منه ومَذَقَهُ ومَذَق له سقاه المَذْقةَ ومنه قيل فلان يَمْذُق الوُدَّ إذا لم يخلصه وهو المَذْق أَيضاً وأَنشد يَشْربُه مَذْقاً. لسان العرب: ٣٣٩/١٠.

(٤) الصداقة والصديق: ٢٢١.

عرض أبو حيان التوحيدي في هذا النص صورةً من صور الصداقة من خلال تواشج هذه العلاقة؛ لتكون بمثابة الأخوة، إذ امتدح هذا الصديق بأنه وقت النوائب ووقت العلل والأزمات يكون مبتسماً جواداً، وكرر لفظ **(أخ لك)** مرتين في النص وهنا بيان واضح لمدى تأثر أبي حيان التوحيدي بهذه التجربة الاجتماعية التي عبرت عن حاجته لمثل هذه العلاقات؛ ليمثل له الأخوة بأجمل تمثيل، وعلى الرغم من ذكر لفظ **(الأخ)** مرتين إلا أن الموضوع يحيل إلى الصداقة لكنها الصداقة العميقة، وممَّا يدل على ذلك قوله **(خلته)** التي أراد بها معنى الصداقة.

ويصر التوحيدي على تكرار لفظ (الأخ) ومشتقاته بأكثر من مرة في هذا النص، وقد تكون هنا الحالة هي مصداق واضح على محاولة الشاعر تبيان مديات العلاقة وترابطها ذهنياً ونفسياً واجتماعيا مع أفكاره، وعليه قد يكون هذا التكرار النمطي هو أسلوب من الأساليب التي اتبعها التوحيدي في اختيار نماذجه الشعرية بهذا الكتاب؛ لتكون خصيصةً تحسب لإبداعه اللغوي وارتباطاته الفكرية[١]، فضلاً عن ذلك أن توظيف هذه النصوص بقصدية مباشرة ناتج لاضطرابات حلت في البنى الاجتماعية، وأدت إلى تنازعات أثقلت على القيم وبلغت الذروة في ذلك المجتمع، إذ سعى المجتمع إلى **(تسليع)** كل شيء بهدف منفعة مادية وهي طريقة فجة داخل مظاهر المجتمع الإسلامي، وهذا ما اثأر حفيظة التوحيدي[٢]، وكذلك يقول الشاعر ابن حمام بن جابر[٣]{الطويل}

---

(١) ينظر: التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ(دراسة اسلوبية: ٤٧.

(٢) الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية: ٥٦-٥٧.

(٣) هو أبو بن حمام بن جابر بن قراد بن مخزوم، بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس شاعر فارس. ينظر: انساب الإشراف: ٣٨.

"أ عاذلتي كَمْ مِنْ أَخٍ لِي أوده كريم عَلَيَّ لَمْ يلدني وَالِدِه

إِذَا مَا الْتَقَيْنَا لَم يُرِينِي وَكَّدَه وَلَكِنَّنِي مُثْنٍ عَلَيْهِ وَزَائِدَةٌ

وَآخَر أُصَلِّيَ فِي التَّنَاسُب أَصْلِه يُبَاعِدُنِي فِي رَأْيِهِ وأباعده

يُؤَدّ لَوْ أَنِّي فُقِدَت أَوَّل فَاقِد وَأَيْضًا أَوَدّ الْوُدّ إِنِّي فَاقِدَةٌ"[1].

اختار التوحيدي هذا النص في كتابه الصداقة والصديق؛ ليقدم لنا صورةً جديدةً من تمثله لهذه الأبيات لامتداح أصدقائه الذين كانوا معه برحلة حياته، إلا أن الملاحظ على هذا النص هو حضور أدوات الاستفهام التي وردت في قوله(**أ عاذلتي كم من أخ**)، فاستعمال الاستفهام بـ(**الهمزة**) ثم (**كم**) الاستفهامية أراد منها الشاعر تقديم رسالة واعية إلى المجتمع من خلال معنى الإخوة الحقيقية على الرغم من أنَّها لم تكن أخوة في (**الدم**) بل هي بالترابط والأواصر المجتمعية، حتى أن التوحيدي يجده ملاذاً ومكاناً يأمنه ويوده ويفتقده حين يذهب، وعليه فالتوحيدي هنا اختار هذا البيت؛ كونه حمل في طياته بياناً واضحاً لحقيقة العلاقات التي كان يرسم لها التوحيدي في ذهنه ويريد أن يصل اليها، وكذلك نلحظ في هذا النص استعمال الشاعر لمفردات فيها صوت (**الهاء**) كررها لأكثر من ست مرات، وهذا التكرار غايته جذب نظر المتلقي عن طريق الإيقاع إلى الحدث الذي يود إيصاله، أي إن هذا الصوت يقدم همساً فيه دلالة أراد الشاعر إظهارها.

وقد يكون التوحيدي في هذا الاختيار نقل تجربةً اجتماعيةً خاصة به وكان رافضاً لبعض المظاهر الاجتماعية التي كانت حاضرة في تلك المرحلة ورفضها من خلال بثه لهذه التجربة الاجتماعية [2].

---

(١) الصداقة والصديق: ٣٥١.

(٢) ينظر: الشعر الاجتماعي في الأندلس: ٨٦.

خلاصة القول أنَّ غرض المديح هو من الأغراض التي لم ترد في اختيارات أبي حيان التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق على نطاق وافر، وقد يكون هذا ناتج عن قلة التجارب التي تدخل ضمن هذا الغرض؛ أو بسبب شخصيته التي تنقلت بين السخرية والاعتزالية، وهذا الاضطراب قد يولد سوءاً في بعض الاختيارات والعلاقات داخل المجتمع.

أما غرض الرثاء فقد حضر في المدونة الجاهلية لما له من خصائص فنية مثل صدق العاطفة وصعوبة الموقف، وورد على أقسام مثل الندب ويقصد به بكاء النفس والأهل والأقارب، وجاء النوع الثاني التأبين أي الخوض بخصال الميت، والنوع الأخير العزاء ويراد به الذي يُعد مرتبة عليا تحتاج التأمل ولاسيما في مسألة الحياة والموت[١].

أما الرثاء في صدر الإسلام فاختص بشهداء الإسلام من القادة والمقاتلين بألفاظ تخص هذه الحقبة[٢]، وقام الرثاء في العصر الأموي على الفئوية والقبلية ولكل جهة من هذه الجهات ترثي قتلاها مثل قيس الرقيات(٨٥هـ)، والطرماح(١٢٥هـ)، والكميت(١٢٦هـ)، فالرثاء سياسي يتناول رجالات الدولة، ورثاء الأهل والأقارب والأصدقاء[٣]، وجاء العصر العباسي الذي مثَّل عصر الحاضرة وتقارب الثقافات، ورفاهية العيش حتى أن الرثاء تجاوز الخليفة والقائد والوزراء والولاة ليصل إلى الجواري

---

(١) ينظر: اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول: ١٤-١٨، الرثاء في الشعر الجاهلي والإسلامي: ١٤٥-١٤٨.

(٢) ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي والإسلامي: ١٤٨- ١٤٩.

(٣) ينظر: اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول: ٣٦-٤٠.

والمدن[١]، والرثاء الذي كان في كتاب الصداقة والصديق رثاء الأشخاص كما في قول ذو الشامة[٢]. {**الوافر**}

ذَكَرتُ أخي أخا الخَيرِ رَضِي اللهُ عَنهُ الذي لَمْ يبقْ لِي خَلَفَا

"ولا أَرْجُوه إلَّا اللهُ مِنْه الدَّهْر مؤتنقا

أَخَا مَا كَانَ لِي كَأَخ وَبِي بُرْء وَبِي لُطْفًا

وَبِي بُرْء وَبِي لُطْفًا وَسَدّ مَسَدّ مِن سَلَفًا

وَحَقّ لِعَيْنٍ مِنْ أَمْسَى بِمَا أَمْسَيْت مُعْتَرِفًا

مِن الإيحاش والإيجاس وَالْإِفْزَاد أَن يُكْفَأ"[٣].

وأفاد أبو حيان التوحيدي من قول الشاعر؛ لأنه نقل تجربةَ تلمسها التوحيدي في مجتمعه، بشكل أفاض بها الشاعر، إذ إنَّ التوحيدي وجد في هذا النص بياناً وبوحاً تاماً لما في صدره من أسرار ناتجة عن حاجته إلى رفيق كما رفيق **(الشاعر أبو شامة)**، وكذلك قدَّم التوحيدي في توظيفه لهذا النص معنى الأخوة، إذ استعمل مفردات بيَّنت حاله من بينها**(أخ الخير، وسد مسدي سلفا)**، فالتوحيدي من خلال هذا التوظيف أراد نقل تجربة الوفاء والتفرد لهذا الصاحب الذي هو بمثابة الأخ ويزيد على هذه الرتبة لمواقفه النبيلة وعطائه الفياض، وهذا ما نستشعره عن طريق تكراره لفظ **(الأخ)** ومشتقاتها بأربع مواضع في النص، وهنا جاء التكرار للتأكيد على هذه التجربة ومحاولته إفادة المجتمع من هذه التجربة بوصفها ظاهرةً إنسانيةً خلاقة، وانتج التكرار تكثيفاً دلالياً تميزت من خلاله القيم الأخلاقية

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٦-٦١.

(٢) محمد بن عمر بن الوليد ابو قطيفة وامه ابنة أسماء بن خارجة وكان صاحب قرآن ، وولاه مسلم بن عبد الملك على مدينة الكوفة وحينها اتهمه أهل الكوفة بالزندقة. ينظر: أنساب الأشراف: ١٧٢.

(٣) الصداقة والصديق،: ١٧٢.

والمساعي الإنسانية في تصحيح مسار فئة صادفت التوحيدي من خلال مسيرته الحياتية، وهذا التكرار يسمى تكرار التعديد عند الرازي[١]، فضلاً عن ذلك إن هذا الاختيار الذي وظفه التوحيدي قد يكون انطلاقة من واقع المجتمع الذي ينتمي له ما في من متغيرات الواقع عادت على نفسيته انعكاسات وانفعالات أدت إلى اختيار هذا النص بوصفه نصا عبَّر عن تجربة التوحيدي عن أحد رفقائه، ونلحظ في هذا النص انطلاقة من بؤرة اجتماعية مثلت لنا صورة أدبية من خلاله معتمدة على قوة السبك وعمق التناسق وترابط الأفكار وتطورها من خلال الأدب، وهنا نلحظ أنَّ اللغة صارت نظاماً اجتماعياً كما يذهب إليه رينيه ويليك[٢].

وخلاصة القول إنَّ أبا حيان التوحيدي استعمل هذا النص الشعري في كتابه الصداقة والصديق؛ ليقدم لنا رسالة اجتماعية بصبغة إنسانية؛ بغية إرساء صفات نبيلة على العلاقات التي تقوم بين الأصدقاء حتى بعد فقدهم ورحيلهم.

ثانيا: غرض الفخر: يمثل غرض الفخر أحد الأغراض الشعرية التي سجلت حضورها الواسع في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحالي، ولقد تنوع الفخر في الشعر العربي على وفق البيئات الشعرية التي كان الشاعر ينتمي إليها، فالفخر في الشعر العربي الجاهلي من ناحية الحروب والغزوات يختلف عن الفخر في العصر الإسلامي الذي إنماز بالفخر بالقادة والرسول الأعظم**(صل الله عليه وآله وسلم)** وغيره من الشخصيات التي نالت حضورها في تلك المرحلة حتى إذا ما جئنا إلى العصر العباسي نجد أن الفخر وصل إلى مضامين جديدة لم نجد لها حضوراً في العصر الجاهلي، كما غد ذلك في كتاب الصداقة والصديق، إذ

---

(١) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ١١٣.

(٢) ينظر: التحليل الاجتماعي للأدب: ٩٤.

سجل حضوراً وافراً ومائزا على غيره من الأغراض الشعرية وهذا ما سنتلمسه في الكتاب ومنه ما قاله الشاعر أبو عروبة المدني[1] من{**الكامل**}:

"إني وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّي غَائِبًا لمقاذف مِنْ دُونِهِ وَوَرَائِه

وَأَعَدَّه نَصْرِي وَإِنْ كَانَ أُمَرَاء مترجرجا فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

وَمَتَى أَجِدْهُ فِي الشَّدَائِد مرملا أَلْق الَّذِي فِي مزودي بوعائه

وَإِذَا تَتَبَّعْت الجلائف مَالِه خُلِطَت صحيحتنا إِلَى جربائه

وَإِذَا أَتَى مِنْ وَجْهِهِ بطريفة لَمْ أَطَّلِعْ مِمَّا وَرَاءَ خِبَائِه

وَإِذَا اِكْتَسَى لَوْنًا جَمِيلًا لَمْ أَقُلْ يَا لَيْتَ أَنَّ عَلِيَّ حَسَنٌ رِدَائِه

وَإِذَا غَدًا يَوْمًا لِيَرْكَب مُرَكَّبًا صَعْبًا قَعَدَتْ لَهُ عَلَى سيسائه

وَإِذَا استراش وَفْرَتِه وَحَمِدْته وَإِذَا تَصَعْلَك كُنْت مِنْ قرنائه "[2].

ذهب الشاعر في هذا النص ليبين سمة من السمات الإنسانية التي إنماز بها ابن عمه وهي صفات تلتصق به وغير مكتسبة بحقه، إذ إنَّ الشاعر في هذا النص يسعى لبيان حقيقة هذه العلاقة التي جمعته بابن عمه من خلال رابطة دم وهو وساعي إلى كل خير وصلاح في حياته، ولقد استعمل الشاعر بعض المفردات دلت على استمرار هذه الصفات عند ابن عمه، أي أن صفاته حقيقية وغير مكتسبة ومنها أداة الشرط (**إذا**)، التي كررها الشاعر خمس مرات، وهذا التكرار غايته استمالة القلوب لهذه الحالة

---

(١) تعددت الأسماء التي كتبت هذه القصيدة فمنهم من قال إنه أبو عروبة المدني وقالوا ابن عروبة المدني وقالوا الهذيل ابن مشجعة البولاني، وكذلك قالوا العجير السلولي وقالوا عمرو ابن النبيت الطائي، وقالوا سماك بن خالد الطائي، وهنا نلحظ أننا أمام قصيدة واحدة لشعراء متعددين. ينظر: المصنفات: ٩٠.

(٢) الصداقة والصديق: ٢٠٥.

لكي تكون مثالاً يحتذى به عند الآخرين، والشاعر هنا يضرب مثلاً بواجبات القرابة وصلة الرحم وصفة الأخاء، وذكر الشاعر ابن عمه مرة معاتباً ومرة غائباً وفي الروايتين نجد الشاعر يقدم لنا إنموذجا إنسانياً.

أفاد أبو حيان التوحيدي من هذا النص في توظيفه؛ ليوجه من خلاله رسالة مشوبة بالقيم الإنسانية الخالصة للآخر الذي يمثل جهة أو طرفاً يروم إيصال رسالته إليه أو قد تكون رسالةً جليةً لأحد رفقاء التوحيدي الذين مثلوا الصداقة الحقيقية(١).

وكذلك قال الشاعر علي بن ثابت(٢) من{**الوافر**}

"إذا أَدَّيْت حَقًّا لَمْ أطأطئ بِرَأْسِي عِنْد لقيان الصِّدِّيق

وَلَيْسَ عَلَى مُؤَدِّي الْحَقّ لُؤْمٌ وَمَا هُوَ للملامة بالحقيق

وَإِن ضُيِّعَت حَقًّا حَدَّت عَنْه كأَنِّي قَدْ زَنَيْت عَلَى الطَّرِيقِ "(٣).

أفاد أبو حيان التوحيدي من قول علي بن ثابت؛ ليقدم عن طريقه رسالةً حول تأدية الحق الذي يمثل صورةً من صور الوفاء كأنَّه قال أنا **(لم أطأطئ رأسي)**؛ لأني أوفيت الحقوق وهذا المعنى الذي وظفه الشاعر؛ ليكون تجربةً اجتماعيةً يفيد منه من رافقه ومن بعده من الأجيال التي تقرأ هذا الكتاب، إذ إنَّ الباعث الاجتماعي يمثل صورةً من صور الأدب في تلك المرحلة وانطلاقة رئيسة له، وهذا النص وغيره من النصوص هو رسالة إنسانية وتجربة اجتماعية قيمة ذات أبعاد تسعى إلى توطيد علاقات خالية

---

(١) ينظر: المصنفات: ٩٢.

(٢) علي بن ثابت: هو أحد الشعراء الذي عاش في الحقبة العباسية وكان صديقا لأبي العتاهية، وحدثت بينهم مجاوبات كثيرة من الزهد والحكمة وقد توفى علي بن ثابت قبل أبي العتاهية. ينظر: الأغاني: ٣٥٩/١.

(٣) الصداقة والصديق: ١٢٦.

من المشوبات على الأصعدة جميعها، ولا يمكن عدها محاولةً لتكون منطلقات لما وراء المعنى لذم أحد الأصدقاء أو الأقرباء له بل على العكس كان التوحيدي في كتاباته يبتعد عن الإساءة للآخرين ولم يجردهم من فضائلهم حتى أن في كتابه **(مثالب الوزيرين)** لم يبخس حق الصاحب ابن عباد وابن العميد؛ وذلك عن طريق ذكر ما ذكره عنهم في آخر الكتاب من قيم حقيقية على الرغم ممَّا قدمه عنهما، وهذا يعني إنَّ التوحيدي أراد من خلال هذا النص أن يكون مثله كمثل المصلح الاجتماعي[١]، وهذا الوعي الإنساني الذي يحمله أبو حيان التوحيدي كان ناتجاً عن عامل القراءة والتثقف والإطلاع الثقافي على كثير من الحضارات سواء كانت اليونانية أو الفارسية إضافةً إلى العربية فقد شكلت هذه الروافد رؤى عند التوحيدي مكنته من الوصول إلى هذه المرحلة من الرق الإنساني والعطاء المعرفي.

وكذلك يقول الشاعر المتلمس[٢]{**الطويل**}

"ولو غَيْر أَخْوَالِي أَرَادُوا نقيصتي جُعِلَت لَهُم فَوْق العرانين ميسما

وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلُ قَاطِعُ كَفِّه بِكَفّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أجذما

يَدَاه أَصَابَتْ هَذِهِ حَتْف هَذِه فَلَمْ تَجِدْ الْأُخْرَى عَلَيْهَا مُقَدَّمًا

فَلَمَّا اسْتَقَاد الْكَفِّ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِدْ لَه دَرَكا فِي أَنَّ تَبَيَّنًا فأحجما

فَأَطْرَق إِطْرَاق الشُّجَاع وَلَوْ يَرَى مَسَاغًا لنأبيه الشُّجَاع لصمما "[٣].

نقل أبو حيان التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق قول المتلمس ليكون مرآة لوفائه وإخلاصه مع الأقارب وكأنَّه أراد ان يقوي ويرصن صلات

---

(١) ينظر: الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي: ٤٦.

(٢) هو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد ابن ذوقن الضبعي. ينظر: نسب معد واليمن الكبير: ٢٤.

(٣)الصداقة والصديق: ٢٠٧-٢٠٨.

الرحم بينهم كونها من الصفات التي دعا لها الإله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم(**صلى الله عليه وآله وسلم**)، فضلاً عن ذلك أن قول المتلمس هذا جاء على أخواله؛ كونه نشأ في بني يشكر وهم قبيلة أمه حتى كاد أن ينسب لهم، وهذا النص هو بيان واضح لمديات ارتباطه بأخواله[١]، وبهذا المعنى استعمل أبو حيان التوحيدي دوال متنوعة بغية تقديم تميز دلالي جاء عن طريق الألفاظ ومديات حضور معانيها في ذهن المتلقي[٢]، فكان هذا التوظيف موفقاً في إيراد المعنى الذي أراده الكاتب، ويطلعنا سعيد بن حميد[٣]، بأبياته التي يفخر بصفاته التي يمارسها مع من يود، على الرغم ممَّا فيهم من صفات، وقال من{الطويل}

"جعلت لِأَهْل الْوُدُّ إِلَّا أريبهم ... بِغَدْر ، وَإِن مَالُوا إِلَى جَانِبِ الْغَدْر

وَإِن أَجْزِي الْوُدّ الْجَمِيل بِمِثْلِه ... وَأَقْبَل عُذْرًا جَاءَ مِنْ جِهَةِ الْعُذْر

واحملهم مِنِّي عَلَى حُكْمِ مُنْصِفٌ ... تَعْلَم حَزْم الرَّأْيِ مِنْ عَقَّبَ الدَّهْر

وَإِن يَدَعَنِي وَصَل أَجِبْه مُلَبِّيًا ... وَإِن يَدَعَنِي هَجَر أَجِب دَاعِي الْهَجْر "[٤].

استعمل الشاعر ألفاظا تشير إلى عمق الوعي لديه إذ جمع بين ألفاظ الود والغدر والهجر والدهر والجمال داخل نص محكم، فجودة السبك وعمق الوعي ودقة الانسجام أدت إلى ان يكون المعنى الذي صدره الشاعر يتوافق والرؤى الفكرية لأبي حيان التوحيدي، إذ إن التوحيدي أفاد من هذا النص ليرسل من خلاله رسالة مفادها ان الوفاء والتساهل هي منطلقات مهمة

---

(١) ينظر: فصل المقال في شرح كتاب الامثال: ١٤٩.

(٢) ينظر: اللغة والبلاغة في فكر أبي حيان التوحيدي مقاربة منهجية: ٥٠.

(٣) سعيد بن حميد بن سعيد بن حميد ابن بحر يكنى ابا عثمان من اولاد الدهاقين واصله من النهروان الأوسط وكان يقول عن نفسه انه مولى بني اسامه ابن لؤي من أهل بغداد بها ولد ونشأ ثم كان يتنقل في السكن بينه وبين سر من رأى سامراء حاليا. ينظر: الأغاني: ٣٣/٥.

(٤)الصداقة والصديق: ١٢٢.

لديمومة الحياة وتخطي بعض الإشكالات بين أبناء الجلدة الواحدة فلفظ الود تكرر مرتين وأراد منه أن يبين أن الود يرتبط بالمثل الحسنى بخلاف الغدر الذي وظفه الشاعر بطريقة بينت محاسنه من خلال أن الغادرين وإن غدروا فهو لا يغدر فهذه الصفات الاجتماعية ذات الطابع الاجتماعي أراد بها التوحيدي ترصين المعاني بقصدية عالية فالشاعر في هذا النص باشر المعنى بقصدية مباشرة أفاد منها التوحيدي كرسالة إلى مجتمعه وما بعده.

وما يؤكد ما تقدم هو إنَّ هذا الكتاب رسالة وحديث عن الصداقة والصديق وما يصل بها من خلاف ووثاق وهجر وصلة وعتاب ورضا وغيره من هذه المضامين(١).

وخلاصة القول أن اختيارات أبي حيان التوحيدي كانت قائمة على وفق أسس اجتماعية مهدت لحضورها في الأدب من خلال محاولات تقديم رسائل إلى المجتمع بصيغة أدبية، أي أنَّ تحويل اللغة المحكية إلى لغة أدبية إمتاعية؛ بغية جذب الجمهور أو المجتمع إليها للإفادة منها؛ وبهذا سعى التوحيدي لتقديم رؤى اجتماعية بطريقة أدبية وهذه الرؤى الاجتماعية هي رسائل عامة تقدم خدمة عن طريق بث التجارب النافعة إلى المجتمع.

ثالثا: غرض الهجاء: اصطلح الناس منذ القدم على أنَّ الهجاء طريقة أو أسلوب أو فن الشتم والسب، وبهذا يكون بخلاف المديح(٢)، ولقد رفض بعض القراء هذا اللون من الشعر، حتى أنهم حاولوا حصره بالدراسات الأكاديمية، إلا أن حضوره في الأدب العربي كان حضوراً وافراً وقد شهد ارتفاعاً بحضوره في العصر الأموي الذي إنماز بهذا الغرض، وتقارب مع الآخر وكان نتاج هذا الهجاء والبيئة الأموية وهو فن النقائض، وقد لعبت البيئة دورها في زيادة هذا الفن وتنوع بين الهجاء القبلي والهجاء الشخصي

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي: ٢٢١.

(٢) الهجاء والهجاءون في الجاهلية: ١.

إلا أنه شعر له جمالياته الفنية وحضوره الأدبي[١]، ومن هنا سنتلمس حضوره في كتاب الصداقة والصديق ومنه قول الشاعر جحظة[٢] من**{مجزوء الكامل}**:

"لله أَنْتَ عَلَى جفائك مَاذَا أُؤَمّلُ مِنْ وفائك

فَكَّرْت فِيم هَجَرَتْنِي فَوَجَدْت ذَاك لِسُوء رَأْيِك

فَرَأَيْت أَنْ أَسْعَى إِلَيْك ِإن أُبَادِر فِي لِقَائِك

كَمَا أجدد مَا تَغَيَّرَ لِي وَأَخْلِق مِن إخائك "[٣].

وإنَّ المتتبع لهذا النص يلحظ أن الشاعر وظف ألفاظاً بيَّنت حقيقة ألمه ويتضح ذلك من مفرداته التي وظفها مثل**(جفائك، وهجرتني)**، وهذه المفردات وغيرها استدعت ذاكرة التوحيدي لتوظيف هذا الشعر في كتاب الصداقة والصديق؛ ليكون بوحا تاما عن خلجاته، وقد يلحظ على هذا البيت حضوراً للعتب بقدر ما هنالك هجاء إلا أنَّ قوله **(ماذا أؤمل من وفائك)** بينت حقيقة هذا الهجاء فأنه يهجو شخصاً لم يكن أميناً على هذا الوفاء على الرغم من كل ملامح السعي التي قدمها إليه.

وإنَّ وعي التوحيدي دعاه لتحقيق معادلاً موضوعياً بين هذا النص والواقع الذي أفاد منه وهو البيئة، أي أن التوحيدي وظف هذا النص لما له من أثر في المجتمع؛ كونه هو حصاد تجارب أثرَّت في نفس الشاعر ونقلها إلى عالمه الأدبي، فضلاً عن ذلك لقد استدعت طبيعة الحدث استعمال الشاعر لصوت الكاف الذي تكرر داخل النص لأكثر من ست مرات وهو

---

(١)شعر الهجاء: قبول أم رفض: ١٣٦-١٣٨.

(٢) جحظة: هو أبو الحسن جحظة البرمكي المغني شاعر مليح الشعر وله بعض الروايات ولد في بغداد عام(٢٢٤هـ) وتوفى سنة (٣٤٤هـ). ينظر: الأنساب: ٣٥٤/٥.

(٣) الصداقة والصديق: ٢٧٥.

صوت قوي استعمله الشاعر ليبين انفعالاته بسبب قلة الوفاء وشحت المروءة.

وسعى أبو حيان التوحيدي من خلال رسالته الشعرية في كتابه الصداقة والصديق إلى خلق أجواء وفضاءات رحبة واسعة الانتماء الاجتماعي القائم على رابطة المواطنة التي تدفع الفرد إلى الانتماء والتواصل والمحبة بعيداً عن الرأس مالية والإقطاعية(١)، فضلاً عن ذلك أن التوحيدي يجد" الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا أنت إلا أنه غيرك بالشخص"(٢)، ولذا عزَّ عليه الأصدقاء.

ونرى شاعراً آخراً يتناول ظواهر اجتماعية مبثوثة في المجتمع عانى منها الناس، إذ يقول {**البسيط**}

"ما بَال قَوْمٌ صَدِيقًا ثُمَّ لَيْسَ لَهُمْ عَهْد وَلَيْسَ لَهُمْ دِينٌ إذَا ائْتُمِنُوا

أَنْ يَسْمَعُوا رِيبَةٌ طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

صُم إذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْت بِه وَإِنْ ذَكَرْتُ بِسُوء عِنْدَهُم أَذُنُوا

وَإِن بطنت أُرَجِّي وُدَّهُم ظَهَرُوا وَإِنْ ظَهَرَتْ لِلْقَيْء فِيهِم بطنوا

فَطانَة فطنوها لَو تَكُونُ لَهُمْ مُرُوءَة أَو تُقًى لِلَّهِ مَا فطنوا

وَقَدْ عَلِمْت عَلَى أَنِّي أعايشهم لَا تَبْرَحْ الدَّهْر فِيمَا بَيْنَنَا أَحِنّ

كُلّ يداجي عَلَى الْبَغْضَاء صَاحِبِه وَلَن أعالنهم إلَّا كَمَا علنوا

شَبَّه الْعَصَافِير أَحْلَامًا وَمَقْدِرَة لَو يوزنون بزف الرِّيش مأوزنوا

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنًا عَن عَدُوّهِم لبئست الخلتان: الْجَهْل وَالْجُبْن

---

(١) ينظر: قراءة سيسيو سياسية دلالية في رسالة السقيفة لأبي حيان التوحيدي: ٢٧١.

(٢)الهوامل والشوامل: ١-٢.

كغارز رَأْسِهِ لَمْ يدنه أَحَدٌ بَيْن الْقَرِينَيْن حَتَّى لزه الْقَرْن "[1].

وإنَّ توظيف النص في كتاب الصداقة والصديق هو رصد ظاهره خارجة عن الوعي الإنساني القويم والأخلاق الإسلامية التي كان التوحيدي جزء من المنظومة الاعتزالية فيها، فظاهرة العداوة والشماتة تجسدت في هذا النص تجسيداً مباشراً؛ وذلك بلحاظ ألفاظ النص(**ليس لهم عهد وليس لهم دين، صم إذا سمعوا خيرا**) وغيره من الألفاظ وجميعها تدل على بشاعة هذه الفئة المذمومة، وعليه سعى أبو حيان التوحيدي لاختيار هذا النص؛ ليقدم من خلاله رسالة اجتماعية رافضة لهذه التطلعات والأفكار عند البعض وقد أخذ الهجاء في هذا النص طابعاً جماعياً؛ كون الظاهرة عامة ولا تمثل موقفاً حدث مع التوحيدي.

وإنَّ هذه الرخص لهذه الظواهر هو من المُسلم الحقيقي الذي يدفعه إيمانه ومواقفه الروحية الرحبة إلى التطلع إلى عالم أكثر سمواً وعطاءً ممَّا هو عليه، فان إيمانه هذا سرعان ما يعود إلى روافده الفكرية التي شرب منها ومن بينها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والسنة المطهرة، والتوحيدي في اختياره هذا تحدث عن المنافقين، وأفاد من صورة فنية محملة بملامح الألم المشوب بالسخرية، وهذا يدل على حركات انفعالية داخل الذات[2]، فضلاً عن ذلك سجل هذا الموقف ضمن المواقف الأخلاقية وارتبط بالمجتمع فهو يوضح السلوك المرذول ويصف فيه الصديق بمثالبه السيئة التي صارت جزءاً من فساد المنظومة الأخلاقية العامة التي تؤثر على الواقع الاجتماعي[3].

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٢٠-٢٢١.

(٢) ينظر: نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي: ٥٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٦١.

ونقد ظاهرة النفاق وهي إحدى الظواهر السيئة التي عانى منها المجتمع، ويتضح ذلك قول الشاعر دعبل الخزاعي(٢٤٦هـ) الذي وظفه وهو **{الوافر}**

"عدو رَاحَ فِي ثَوْبِ الصِّدِّيق شَرِيكٌ فِي الصَّبُوح وَفِي الْغَبُوق

لَهُ وَجْهَانِ: ظَاهِرُه ابْنُ عَمّ وَبَاطِنُه ابْن زَانِيَة عَتِيق

يَسُرُّك ظَاهِرًا ويسوء سِرًّا كَذَاك تَكُون أَبْنَاء الطَّرِيق"[١].

وعند قراءة النص ومن الوهلة الأولى يتضح لك أنَّ الشاعر عاش تجربةً مريرةً من خلال بعض الأصدقاء الذين لم يكونوا إلا صورة باهتة للإخوة والمحبة، والبحث في سبب اختيار التوحيدي لهذا النص هو عمق التجربة التي قدمها، إذ إن الهجاء القاذع الموجود فيه ولاسيما توظيف لفظ **(ابن زانية)** ما هو إلا إشارة واضحة إلى سعي التوحيدي إلى بث صورة إلى المجتمع كيف يكون الصديق وفياً أو **(ابن زانية)**، ولجوء التوحيدي لهذا الوصف؛ لأن العرب تقذع وتنفر من الأشخاص الذين اتهمت أمهاتهم بالزنا.

وكان قول الشاعر متماشياً مع ذات التوحيدي، إذ إنَّه بث من خلاله هذه الأبيات رفضه لهذه المضامين التي تجسدت في هذا النص، ومنها عدم الوفاء؛ كونها من الصفات التي تحدث" اهتزاز قيم الإسلام وعدم رسوخها في نفوس بعض العرب"[٢]، فضلاً عن ذلك حاول التوحيدي كسر الرتابة الموجودة في العصر العباسي ومنها، إذ إنَّ المجتمع العباسي هو مجتمع تسود فيه الطبقية والصراع بين الفئات المختلفة والتمييز الغالب على المغلوب في أكثر الأحيان حتى سياسة الرفض الموجودة في العادات والتقاليد في الثقافات الأخرى التي هي تكون أقل إفراداً بين الحاضرين في

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ١٧٣.

(٢) فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي: ٤٢.

المناطق العربية وعلى سبيل المثال كان المجتمع في بداية العصر العباسي يصنع الخلاف كما الخلاف بين العرب والفرس[١].

ونجد أبا الأسود الدؤلي(٦٩هـ) يخير الصديق ثم يهجره حينما نجد أنَّ لا فائدة منه؛ وذلك في قوله:**{المتقارب}**

"أريت أُمَرَاء كُنْت لَمْ إبِلِه أَتَانِي فَقَالَ: اتَّخَذَنِي خَلِيلا

فخاللته ثُمّ صافيته فَلَم أَسْتَفِد مِنْ لَدُنْهُ فَتِيلا

فَأَلْفَيْته غَيْر مُسْتَعْتَب وَلَا ذَاكِرَ اللَّهِ إلَّا قَلِيلًا

السِّتّ حَقِيقًا بتوديعه وَأَتْبَعَ ذَلِكَ هَجْرًا جَمِيلًا "[٢].

ويقدم الشاعر هذا النص بصورة درامية، إذ يروي كيفية نشوء العلاقة بينه وبين صديقه الذي جاء مسترسلاً له طالباً رفقته بعلاقة طيبة صافية إلا أنَّه بعد حين لم يكن صديقاً حقيقياً وتدوم هذه العلاقة حتى أن الشاعر سعى لهجر هذا الصديق هجراً جميلاً، وهنا نلحظ تضمين أبي الأسود الدؤلي لقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾[٣]، فضلاً عن ذلك يوضح النص رؤية الشاعر بصداقة خائبة لم يجنِ منها سوى خيبة الأمل، وتتضح هذه الرؤية عن طريق توظيفه لعدد من المفردات من بينها **(فلم أستفد من لدنه فتيلا، فألفيته غير مستعتب)**.

وإنَّ النص في مجمله يعبر عن تجربة فاشلة مرَّ بها الشاعر قد تؤثر سلبا عليه من خلال ما تصنعه وغيرها من التجارب من ضياع المجتمع وانفكاكه وفقدان للسيطرة على هذه المنغصات الحياتية، فضلاً عن

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩-٥٠.

(٢) الصداقة والصديق: ٢٨٤.

(٣) المزمل: ١٠.

ذلك "أن الأخلاق في قسم كبير منها تكون وليدة أحوال البيئة التي توجد فيها"[١]، ونلمح صورة الصديق المنافق في قول سويد الصامت**{الطويل}**

"ألا رَبِّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى مَقَالَتِه بِالْغَيْب سَاءَك مَا يَفْرِي

مَقَالَتِه كَالشَّهْد مَا كَانَ شَاهِدًا وبالغيب صَاب مُسْتَفِيضٌ مِنْ الثَّغْرِ

يَسُرُّك بَادِيَة وَتَحْت أديمه نمية غِشٌّ تلوها دُبُر الظُّهْر

تُحَدِّثُنِي الْعَيْنَان مَا الْقَلْب كَأَتَمّ وَلَا جُنّ بالبغضاء وَالنَّظَر الشَّزْر

فَرِشْنِي بِخَيْر طَالَمَا قَدْ أَرَدْته فَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي"[٢].

وقدم الشاعر في هذا النص نوعاً من أنواع الأصدقاء الذين يحملون وجهين فمقامهم أمام الصديق شيء وفي غيابه شيء آخر وهذه الرسالة الاجتماعية الواردة في هذا النص استدعاها التوحيدي في كتابه؛ ليقدم من خلالها رؤية عن حقيقة بعض الأصدقاء وتتضح هذه الرؤية في ألفاظ استعملها الشاعر**(مقالته بالغيب سار كما يثري، وبالغيب صاب مستفيض من الثغر، نمية غش تلوها دبر الظهر)** وغيرها من الألفاظ، ويمضي التوحيدي بكتابه الصداقة والصديق وهو يقدم لنا رسائل ناتجة عن ظواهر اجتماعية رفضها انتمائه الديني ووعيه الثقافي، ممَّا حاول أن ينقل تجربةً للآخر حول هذه المستجدات التي طالت المجتمع العباسي، وقد يكون هذا التوظيف المستمر لقضايا مجتمعية في كتابة الصداقة والصديق كون" التوحيدي يتفلسف على طريقة المعتزلة ميلا إلى الجدل والأبحاث العقلية"[٣].

والخلاصة أن غرض الهجاء عند التوحيدي جاء ليتمم باقي الأغراض الشعرية التي تناولناها في هذا المبحث؛ كونه يقدم رؤى اجتماعية

---

(١) تصوير المجتمع العباسي في كتاب الإمتاع والمؤانسة: ١٥٥.

(٢)الصداقة والصديق: ٩٧-٩٨.

(٣)أبو حيان التوحيدي: ٢٥.

خالصة مرتبطة بالأدب تنتج لنا تصحيحات تصب في استقامة مجرى المجتمع العربي الإسلامي في تلك الحقبة التي عرفت بكثير من الاختلافات؛ نتيجة تداخل بعض الأمم والثقافات مع بعضها.

رابعا: غرض الحكمة: يعد غرض الحكمة من الأغراض التي حضرت في الأدب العربي وكان حضورها تدريجياً، إذ إنَّ في العصر الجاهلي لم يكن كما في العصر الإسلامي، وكذلك في العصر العباسي فمديات التطور الذهني والوعي للفرد كان له الدور الرئيس في إنتاج هذا النوع من الشعر حتى أن هذا الغرض اقترن بمجموعة أسماء من الشعراء كانوا هم العامل المؤثر في ظهوره إلى الساحة الأدبية آنذاك مثل أبي تمام(٢٣١هـ)، والمتنبي(٣٥٤هـ).

ولقد وُظف غرض الحكمة في كتاب الصداقة والصديق للتوحيدي خدمة لمضمون الكتاب، أي أنَّ الأبيات الحكمة جاءت في الصداقة والصديق، كما في قول عبيد الله بن الرقيات**{مجزوء الكامل}**

"لا يُعْجِبَنَّك صَاحِب حَتَّى تَبَيَّنَ مَا طِبَاعَه
مَاذَا يَضَنّ بِهِ عَلَيْك وَمَا يَجُودُ بِهِ اتِّسَاعِه
أَوْ مَا الَّذِي يَقْوَى عَلَيْهِ وَمَا يَضِيق بِه ذِرَاعِه
وَإِذَا الزَّمَان رَمَى صِفَاتِك بِالْحَوَادِث مَا دفاعه
فَهُنَاك تَعْرِفْ مَا ارْتِفَاع هَوَى أَخِيك وَمَا اتضاعه "[1].

أورد التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق هذا القول الشعري؛ ليبين به حكمة عن طريق التعامل بين الأصدقاء وكيفية إتقان معادلة التعامل بينهما بغية إرساء مضامين أخلاقية في هذا التعامل أي أن التوحيدي حينما

(١)الصداقة والصديق: ١٤٧-١٤٨.

اختار هذا النص أراد منه تقديم نصح وإرشاد وتوجيه وتنبيه للأصدقاء بكيفية التعامل وكيفية أحداث التشابه بين الطرفين، إذ حاول عدم إصدار الحكم على صاحبه إلا بعد الوقوف على طبائعه، فضلاً عن ذلك لا بدَّ على الصديق كشف ما يجود به صديقه عليه وما يبخل به عليه، وما الذي يستطيع ان يقدمه بساعده له وما الذي يستطيع أن يجود به إليه وهنا تعمد التوحيدي في اختيار هذا البيت الذي ملؤه الحكمة، حتى أن التوحيدي قدم طريقةً لاختيار الصديق وتحديد صفات الصداقة الحقيقية بعد الوقوف على الطبائع والجود والبخل والمساعدة وغيره من الصفات خاصة ما نتلمسه في بعض المفردات مثل **(طبائعه، ويضن، ويجود، ويضيق، ويقوى)**.

إنَّ التوظيف الذي قدمه التوحيدي جاء نتيجة لارتباطه بالفكر اليوناني الذي عرف بواقعه الفلسفي أكثر من غيره، وهذه ليست غريبة عن التوحيدي؛ لأن ياقوت الحموي وصفه بانه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة وهذا ما تحقق بالتنوع الفكري وعمق الوعي وقمة الإبداع وهو يقوم باختيار نصوصه في هذا الكتاب(١).

ولقد ورد في صدد الحكمة موضوع الإرشاد والتواضع وقال فيه الشاعر من**{البسيط}**

"ما ودني أَحَدٍ إِلَّا بُذِلَتْ لَهُ صَفْو الْمَوَدَّة مِنِّي آخر الْأَبَد

وَلَا قلاني ، وَإِنْ كُنْت الْمُحِبّ لَه إِلَّا دَعَوْتَ لَهُ الرّحْمَنُ بِالرُّشْد

وَلَا ائْتُمِنَت عَلَى سِرّ فبحت بِه وَلَا مَدَدْت إِلَى غَيْرِ الْجَمِيلِ يَدَي

وَلَا أَقُولُ نَعَمْ يَوْمًا فَأَتْبِعْهَا مَنْعًا وَلَو ذَهَبَت بالمال وَالْوَلَد

---

(١) ينظر: نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي : ٣٧.

وَلَا أَخْوَن خَلِيلِي فِي حَلِيلَتَه حَتَّى أَغِيب فِي الْأَكْفَان وَاللَّحْد"[1].

استعمل الشاعر في هذا النص ألفاظاً أكدت سعيه في سبيل إرساء رؤى أخلاقية مؤطرة بإطار اجتماعي تقدم له الكثير من الايجابيات في المجتمع قد يكون خلى بعض الشيء منها ومن بينها سعي الشاعر إلى إرساء روح مثالية ونفس معطاء وذلك عن طريق توظيفه عدد من الألفاظ ومنها **(بذلت، وصف المودة، المحبة له، دعوت له الرحمن)**، وغيره من الألفاظ التي بينت سعي الشاعر من أجل هذه الرؤية، فضلاً عن ذلك أن استدعاء هذا النص في كتاب الصداقة والصديق يؤكد حرص التوحيدي على إرساء هذه المثل العليا في مجتمعه، وقد يكون السبب هو روحه المرتبطة بالثقافة الدينية القرآنية والنبوية وغيره.

وإن ما يقدمه أبو حيان التوحيدي في كتابة الصداقة والصديق هو محاولة جادة لإيضاح واضاءة جانباً مظلماً في حياة مجتمعة وما أُثير في عصره من موضوعات حاول تصحيح بعضها على وفق رؤاه من بينها محاولته لتحقيق تصحيح اجتماعي؛ نتيجة بعض المضامين الدخيلة على مجتمعة[2]، وكذلك نلحظ أن التوحيدي في اختياره لهذا النص" لم يستطع ان يخرج عن اطاره الحضاري أو أن يتنكر لضروريات الحياة الطبيعية أو يتحرر تماماً من كل السار اجتماعي"[3].

ولربما كان اختيار دعبل الخزاعي**(٢٤٦هـ)**، لبعض سير العلاقة بين الأصدقاء هو باب من أبواب الحكمة التي تصلح لإقامة هكذا علاقات فهو يقول**{الرمل}**

"فإذا جَالَسْته صدَّرته وَتَنَحّيْت لَهُ فِي الحاشيةْ

وَإِذَا سايرته قَدَّمْته وَتَأَخَّرَت مَع المستأنيةْ

---

(١)الصداقة والصديق: ١٠٨-١٠٩.

(٢) ينظر: الفكر الجمالي عند التوحيدي: ٩٧.

(٣) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء: ٧.

وَإِذَا ياسرته صَادَفْتَه سَلَس الْخَلْق سليم الناحيةْ

وَإِذَا عاشرته أَلْفِيَّتِه شرس الرَّأْي أُبَيًّا داهيةْ

فَاحْمَدْ اللَّهَ عَلَى صُحْبَتِهِ وَأَسْأَل الرَّحْمَن مِنْهُ العافيةْ "[1].

قدم الشاعر في هذا النص رؤى تحمل في طياتها الوعي والحكمة رؤى ذات أفق متسع من حيث تقديم الصديق في محافل الجلوس والمسايرة والرأي وغيره وهذا إن دل فإنه يدل على التواضع الذي يمثل صورةً من صور الحكمة التي سعى لها أبو حيان التوحيدي في تصدير ثقافته من خلال هذا النص في كتابه الصداقة والصديق، ومن ذلك استعمال الشاعر لمفردات(**جالسته، صدرته، تنحيت، قدمته، عاشرته**) وغيره من الألفاظ كانت طريقاً للوقوف على حكمة الشاعر وتلمسها في كتاب الصداقة والصديق بوصفها رسالةً اجتماعية أراد منها التوحيدي إحياء المضامين التي جسدت جزءاً من الرؤى الثقافية والدينية، فضلاً عن ذلك إن سلاسة الموسيقى والقصدية المباشرة مكنت المتلقي من الوقوف على مضامين النص بسهولة من غير بذل أي جهد ذهني، وهذا قد يكون سبباً من الأسباب التي أدت إلى اختيار هذا النص؛ كون الكتاب يروم تقديم رسائل ونصح وإرشاد وتوجيه اجتماعي بطرق أدبية.

إنَّ أبا حيان التوحيدي وعلى الرغم من شعوره في الغبن تارةٍ وضيق العيش تارة أخرى إلا أنه كان يأمل بجانب اجتماعي واعي ورؤى منسجمة تأخذ بالمجتمع إلى رفعة الفكر والمعرفة وهذا الشيء مرتبط بتفكيره؛ كونه أفاد من الفلسفة اليونانية والثقافة العربية الإسلامية، وبناء اختياره من هذا النسيج[2].

---

(١) الصداقة و الصديق: ١٩٢.

٢) ينظر: الصداقة والصديق في تراث أبي حيان التوحيدي: ٢٧٩.

خلاصة القول إلى أن الحكمة عند التوحيدي أخذت في رؤاها الإرشاد والتواضع والأبعاد الاجتماعية وحتى وصف الصداقة بهدف حكيم وسامي، ومن هنا جاءت مضامين الحكمة متنوعة لكن هدفها وأحد وهو إرساء المضامين الاجتماعية التي تقدم إنموذجاً واضحاً عن المجتمع العربي المعطاء ذي الأفق الواسع.

خامساً: الشكوى والعتب والاعتذار: تمثل الشكوى ظاهرة سجلت حضورا لافتاً في الأدب العباسي إلا أن حضورها في الآداب السابقة لم يكن كما هو في هذا العصر، ولقد كان لهذا التوجه شعراء عرفوا كأبي العلاء المعري(**٤٤٩هـ**)، فضلاً عن العتاب الذي مثَّل إيقونةً حاضرةً في محافل الأدب العربي بعصوره كافه، وتنوع بين الأصدقاء والخلان، وكذلك الاعتذار الذي شهد له الأدب العربي مؤلفات خاصة به كما في الاعتذارات عند النابغة الذبياني(٦٠٤م)، ومن هنا سنخوض تجربة تلمس هذه الأغراض الثلاثة عند أبي حيان التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق وهي كما يلي:

- **الشكوى**: على الرغم من تعدد أغراض الشكوى إلا أنها جاءت عند أبي حيان التوحيدي شكوى من الإخوان والأصدقاء تماشياً مع الهدف الذي ألَّف منه كتابه من ذلك ما قاله ابن السكيت(**٢٤٤هـ**)**{البسيط}**

"إني لأصبر مِنْ عَوْدٍ بِه جَلَب عند الْمُلِمَّات إلَّا عند هِجْرَان

إذَا رَأَيْت ازوراراً مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ضَاقَتْ عَلَيَّ برحب الْأَرْض أوطاني

وَمَا صُدُود ذَوَات الدَّلّ أرمضني لَكِنَّمَا الْهَجْر عِنْدِي هَجَر إخْوَانِي

فَإِنْ صَدَقْت بِوَجْهِي كَي أُجَازِيه فَالْعَيْن غضبى وَقَلْبِي غَيْر غَضْبَان"(١).

(١)الصداقة والصديق: ١٧٥.

النص محمل بصدق العاطفة ورقة الألفاظ وعذوبة المعاني ليشكو في ضوئه ألم فراق الإخوان وهجرهم الذين باعدتهم مشكلات الحياة، حتى أن الشاعر ينتظر لقياهم وإن كانت عينه غاضبة متألمة لما فعلوه معه، إلا أن قلبه مشتاق وخالٍ من الغضب، والشاعر في هذا النص يبوح بوحا تاما وإفراغا لخلجات صدره؛ ليكون هذا البوح دافعا عند التوحيدي في ضوء توظيف النص، بأن يكون نصاً حقيقياً معبراً عن تجربة فاعلة في تصحيح الخلافات التي تهدم العلاقات الإنسانية والروابط الأسرية، وترصن ما تقدم في ضوء سبك عالٍ منتجاً قصدية توفر للمتلقي رؤى مباشرة وواضحة لا تحتاج إلى كد ذهني للوقوف عليها وتلمس معانيها.

إن إمكانية التوحيدي في تقديم نصوصه بشكل عام واختياراته الشعرية في كتابة الصداقة والصديق تؤكد فكرة اهتمامه باللغة كون" اللغة هي الإفهام وهذا أمر يصرح به التوحيدي نفسه وينقله عن غيره من معاصريه"(١).

خلاصة القول إن اختياره لغرض الشكوى كان لإثارة مسألة العلاقات الإخوانية المبنية على أسس صحيحة، إذ لا بدَّ أن لا تهدم عن طريق أية مشكلة من المشكلات الاجتماعية؛ لأن التوحيدي حاول عن طريق هذا النص الأدبي تحقيق إصلاح اجتماعي وتصحيح لمسار.

- **العتب**: ارتبطت الشكوى من الخلان مع العتب عليهم وهذا ما أورده التوحيدي في كتابه للصلة الوثيقة بينهما من ذلك ما قاله سعيد بن حميد **{الوافر}**

"إذا كَثُرَت ذُنُوبٍ مِنْ خَلِيلٌ فقفه بَيْن وَصَل وَاجْتِنَاب

وَانْظُرْه فلأيام حُكْم بِذَلِكَ كُلُّ مَاضِي الْعَزْم أَب

(١) اللغة والعجز عن التعبير في أدب أبي حيان التوحيدي: ٥٧.

وَعَاتَبَه فَكَم أَبْدَى عَتَّاب جَلِيَّةٌ مُشْكِلٌ بَعْد ارْتِيَاب

ورج النَّفْعِ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِذَا أخفقت مِنْ نَفْعِ الْعِتَاب

وَرَاجِعْه بِعَفْوِك حِين يُثْنِي عَنَانًا لِلرُّجُوع أَو الْإِيَاب

فَإِنَّ الْعَفْوَ عَنْ ذِي الْحَزْم أَوْلَى إِذَا قَدَرَتْ يَدَاك عَلَى الْعِتَاب

فَإِنَّك وَاجِدٌ لِلْحَيّ ذَنْبًا وَتَعْدَم ذَنْبَ مَنْ تَحْتِ التُّرَابِ "[1].

إنَّ النص الذي أورده الشاعر قدَّم صورةً وافيةً عن العتاب الذي يمثل أعلى مراتب الرقي الإنساني، إذ نجد الشاعر يبدأ نصه ببيان ذنوب صاحبه حتى أنه يطلب عدم التسرع في إتخاذ القرار لتقض هذه العلاقة وسعى لأنْ يبدي العتاب ولكنْ من دون الإكثار منه حتى أنه وصف من يعفو بذي الحزم والعفو منه شيء محمود إلا أن ما يشوب النص أنه أراد في ختامه أن يبين من عوتب هو شخص توفاه الله، وهنا أحدث الشاعر مفارقة لكسر التوقع أي أنَّ المتلقي يجد من هو معاتباً حياً إلا أنَّ عند إكماله النص يجده من المتوفين، وفي النص حرارة وشوق ولوعة مما يجري على الشاعر فهو يبقى محتاراً بين الوصل والفراق.

إنَّ ما يقدمه التوحيدي من اختيار هذا النص هو دعوة مباشرة وصريحة للارتقاء بالفكر والوعي الإنساني وعدم إهمال الفضائل السابقة للأصدقاء والتروي والعقل والتخلي عن الاستكبار[2].

خلاصة القول إنَّ العتب في كتاب الصداقة والصديق مثل رؤية اجتماعية عن طريق محاولته تقريب المسافات وترك الجفاء.

---

(١)الصداقة والصديق: ١٢٢.

(٢) ينظر: فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي: ٩٠.

- **الاعتـــذار**: ولـم يكـن الاعتـذار بعيـداً عـن الشـكوى والعتـب فهـم يصـبون فـي إنـاء وأحـد، ولـذا جعـل التوحيـدي الصـلة بيـنهم قويـة ومـن الاعتـذار ما قاله الحسن بن وهب**{السريع}**

"ما أَحْسَن الْعَفْوَ مِنْ الْقَادِرِ لاسيما عَنْ غَيْرِ ذِي نَاصِر

إنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبَ لِي فما لَهُ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرٌ

أَعُوذ بالود الَّذِي بَيْنَنَا أَنْ يُفْسِدَ الْأَوَّل بـالآخر"(١).

إن سـعي أبـي حيـان التوحيـدي إلـى اختيـار نصـوص تمثـل قـيم اجتماعيـة وإنسـانية عاليـة الـوعي وعميقـة الفكـر، تؤكـد مـديات انخـراط الثقافـات العربيـة والإسـلامية واليونانيـة فـي ذهـن التوحيـدي؛ لتولـد وعيـاً ونموذجـاً خاصـاً للتفكيـر، وهـذا مـا نتلمسـه فـي اختياراتـه للأبيـات فـي هـذا الغـرض، فضـلاً عـن ذلـك وظـف اسم الفاعل فـي قولـه**(القـادر، وناصـر، وغـافر)**؛ ليمنـح الـنص دلالـة الاسـتمرار لتكـون مثـالاً ومعنـاً واضـحاً عـن السـعي مـن قبلـه لاسـتمرار هـذا النهج والخصال.

ممَّـا تقـدم يتبـين لنـا أنَّ الأغـراض الشـعرية التـي وظفهـا أبـو حيـان التوحيـدي فـي كتابـه كانـت رسـالةً اجتماعيـة خالصـة بطريقـة أدبيـة كـان هـدفها جـذب نظـر المتلقـي –المجتمـع– إلـى هـذا الـوعي والثقافـة التـي تأخـذ بمشـكلات مجتمعـة إلـى التصـحيح والصـواب، فضـلاً عـن ذلـك أن سلاسـة النصـوص وتنـاغم موسـيقاها مـع المتلقـي جعلتـه قريبـاً مـن فهمهـا ممـا ينعكس علـى تلمس القصـدية المباشـرة فـي هـذه النصـوص، وقـد يكـون السـبب مـن ذلـك هـو تقريـب الرسـالة التـي أراد إيصـالها أبـو حيـان التوحيـدي إلـى المجتمـع، وعليـه يكـون التوحيـدي قـد تفـرد بمـنهج توعـوي بطريقـة أدبيـة أصـلح كثيـر مـن الـرؤى

---

(١) الصداقة والصديق: ٣٥٢.

المجتمعية وهذا بخلاف ما تذكرة بعض المصادر من توجهات أبي حيان التوحيدي كترك العيش وترك المجتمع والتخلي عنه وغيره.

المبحث الثاني

اللغة الشعرية

مدخل:

تمثل اللغة البديل المقنن لتجربة الشاعر الشخصية أو ما أحاطه بها، وتفترض هذه العملية – اللغوية– وجود عمليتين متقابلتين أحداهما **(الترميز)** وهو ما يسير من الأشياء إلى الكلمات والثانية هي فك **(الرموز)** ويسير من الكلمات إلى الأشياء، وهي محاولة للكشف عمَّا وراء هذه الكلمات، وفصل المحتوى عن العبارة الخاصةِ به، فاللغة ما هي إلا وعاء للفكر، أي هي وسيلة الفكري وغايته[١]، وما يجاور الشعر واللغة هي **(الوظيفة الشعرية)** التي ظهرت عن طريق **(رومان جاكوبسون)** الذي انطلق من الفكر اللساني محاولاً تطبيقه على دراسة الأسلوب ويعرف حالياً بـ**(الأسلوبية)**، أي تميز الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب[٢]، فالعنصر الجمالي هو ما يحقق القيمة العالية للشعر عن طريق اللغة؛ وبهذا يكون التميز بين اللغة الشعرية واللغة المعيارية وهي طبيعة التوظيف الشعري داخل هذه اللغة وما يحتويه من قيم أدبية وفنية، ورسائل إنسانية تتجاوز من خلالها المعيارية الثابتة للغة بقواعدها وأنظمتها الصارمة[٣]، وما تقدم نتلمس منه فرق بين استعمال الفرد للغة في ظروفها العامة المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد، وبين استعمال الشاعر أو الناثر للغة، فحين يجد المتكلم نفسه في الظروف التي تجتمع عليه جميع أعضاء المجتمع يوجد معيار يمكن لكل أمر أن يقيس عليه تعبيراته الفردية، أما بالنسبة للشاعر

---

(١) ينظر: بنية اللغة الشعرية: ٣٤-٣٥.

(٢) ينظر: الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية: ٣٠.

(٣) ينظر: لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية: ١٦.

فالأمر مختلف، إذ إنَّه يستعمل اللغة استعمالاً اختيارياً، أي تجاوز الشاعر اللغة العادية(**المحكية**) إلى اللغة الأدبية التي تحاكي الواقع من خلال موضوعاتها[١]، فضلاً عن ذلك تكون اللغة الشعرية قائمة على مزيتين أساسيتين "أولهما الخصائص الفنية. وثانيهما الخصائص التركيبية"[٢]، وهذا يعني أن للشعر لغة خاصة تتصل بأساليب العربية وأبنيتها، فالشاعر هو صانع بلغته يجري فيها كما بدا له، ويجدها الأفضل والأجمل والأصوب والأحسن[٣]، على وفق ما تقدم ينقسم هذا المبحث على قسمين رئيسيين وهما على النحو الآتي.

أولاً: المستوى اللغوي: تمثل اللغة وسيلة من وسائل الفهم والتبادل الفكري والعاطفي والمادي بين أفراد المجتمع، وتشكل إلى حد كبير كياناً حياً خاصاً، إذ تمثل موضوعةً مشحونةً بالقيم المعنوية المستمدة من أصولها باستعمالها التقليدي وبالارتباطات العاطفية والحسية، ونتيجة لهذه الملابسات جميعها اختلفت الوسائل الفنية الأخرى؛ كونها سريعة الاندثار، إذ هي كما يقول (**إليوت**) تفلت وتضمحل وتموت وتفقد الدقة، أي لا تستطيع أن تثبت في مكانها بل تستطيع أن تثبت على الاطلاق، والشعر هو النبع الأساس لصيانة اللغة وتجديدها والحفاظ على مضامينها[٤].

فالشاعر يرصد الأحداث التي تتوافق وما يصدره من رؤى عن طريق شعره؛ ليقوم من خلال اللغة بالتحكم" بالمادة اللغوية المتواترة في بيئته

---

(١) ينظر: لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية: ٣٧٢ –٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٢.

(٣) ينظر: في لغة الشعر: ٧، ٢٨.

(٤) ينظر: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: ٨٣–٨٤.

بعصره فيزيد فيها، ويغذيها وتصدر عنه وكأنَّها شيء جيد"[١]، ولتلمس هذه الأفكار سنوضحها على النحو الآتي:

- **اللغة المبسطة:** يستعمل في بعض الأحيان الشاعر ألفاظاً منتقاةً واضحةً يتم الكشف من خلالها عن حقيقة عاطفته، وكذلك طريقة البوح الذي يقدمه للمتلقي بأنَّه بوحاً تاماً، أي لا يحمل النص تعقيداً أو غموضاً أو توشحه بالتقنيات، وعن طريق هذا الأداء تحولت الواقعة أو الحادثة من" القيمة الانفعالية إلى قيمة تعبيرية بسيطة لا يغلغلها غموضاً فلا لفظ موروث يندر استعماله يتوقف عنده ولا مجاز مموه ينفر المتخيلة فيستفزها لتدبر"[٢]، وبهذا يكون الشاعر أداةً لتحويل انفعالات الحدث الواقعي إلى نص أدبي ذي القيمة التعبيرية؛ ليحقق لذة نفسية عند الشاعر، إلا أنَّه يجعل النص مكشوفاً لدى المتلقي.

واشتمل كتاب الصداقة والصديق على هذا النوع من اللغة، إذ قال الشاعر **{البسيط}**:

"أنتم سُرُوري وأنَتمْ مُشتَكى حَزَني وَأنتُم في سَوادِ الليلِ سُمَّاري
أنتُم وإنْ بَعُدت عنَّا مَنازِلَكُم نوازلٌ بَين أسْرارِي وَتِذكَارِي
فإن تكلمتُ لم أَلْفِظْ بغيركُمُ وإن سكتُّ فأنتم عَقْدُ إضماري
الله جارُكُم ممَّا أحاذرُه فِيكم وحُبي لكم مِنْ هَجْرَكم جَاري"[٣].

انطلق الشاعر بتصدير ما في صدره من خلجات إلى المتلقي، إذ يسعى من خلال هذا النص إلى إفراغ ما بجعبته من ألم نتيجة الحنين؛ ولهذا نلحظ في النص مضامين من الشكوى نتيجة البُعد، كرر الشاعر الضمير **(أنتم)** لأربع مرات، وهذا التكرار غرضه استمالة القلب؛ لأن الشاعر هنا

---

(١) مقدمة في النقد الأدبي: ٣٣.
(٢) رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية للشعر الوجداني الحديث في العراق: ٣٠٠.
(٣) الصداقة والصديق: ٣٨.

يقدم كل ما في مخيلته إلى الآخر الذي يحتاجه ويريد وصاله عن طريق هذه الشكوى، حتى أن الشاعر جعلهم الفرحة والحزن والليل والذكرى، وكل ما يخصه أي أنَّه كان جزءاً من منظومة الآخر، وبهذا الشاعر يتألم بسبب البُعد الذي ألمَّ بالآخر، وكذلك في النص تجربة أخذت بأبي حيان التوحيدي لاختيار هذا النص الذي مثله في حادثة شخصية أو موقف مرَّ عليه.

فسهولة اللغة التي لجأ لها الشاعر؛ بغية جعل اللغة أداةً للتخاطب مع الآخر وإقناعه بما يجوب عقله من أفكار ومشاعر تحاول إعادة السبيل إلى ماضيه، فضلاً على ذلك هدف الشاعر إلى تأكيد ذاته عن طريق هذا البوح التام؛ ليكون مطافاً نهائياً له مع الآخر؛ ليبين في ضوء هذه اللغة القيمة الحقيقية للآخر ومديات حضوره في ذهن الشاعر(١)، فضلاً عن ذلك أنَّ البنية اللغوية التي جاءت في هذا النص هي بنية تحمل في طياتها الرؤية الأدبية من ناحية الموسيقى والتنظيم النسقي للنص، ولكن جاءت بلغة سلسة سهلة، يمكن تلمسها من دون وجود أبعاد تعقيدية في لغة النص التي هي المنظومة الأولى التي نألف الشعر عن طريقها(٢).

وكذلك مما جاء في كتابه الصداقة والصديق هو قول الشاعر مروان الظفيري**{الطويل}**:

"تَرَكتُ لكَ القُصوى لِتَدرُك فَضْلَها وَقُلتُ تَرى بَيْنِي وَبَيَن أخِـــي فَرقُ

وَلَمْ يكُ بي عَنْها نَكُول ولإنَّما تَوَانَيت عَنْ حَقِي فَتَمَ لَـــــكَ الحَقُ

وَلا بُدَّ لِي مِن أن أكُونَ مُصَلياً إذا كُنْت أهْوَى أنْ يَكُونَ لَكَ السبقُ"(٣).

---

(١) ينظر: سايكلوجية الطفل: ٣٣.

(٢) ينظر: علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق: ٣٠.

(٣) الصداقة والصديق: ٤٠.

إنَّ المتتبع للنص يلحظ أنَّه خال من أي تعقيد في المعنى أو تزويق في اللفظ، أي أنَّ المتلقي لا يعاني من أجل الوقوف على تفصيلات الصغيرة والكبيرة داخله، أي أنَّ الشاعر استعمل هذا الأسلوب؛ بغية إيصال رسالة مباشرة ذات دلالة واضحة للمتلقي من دون الإيحاء إليه، وهذا يدخل ضمن القصدية المباشرة التي أراد منها التوحيدي أن يقدم رسالةً وافيةً عن التضحية.

وعلى الرغم من أنَّ التوحيدي عُرِف بنزعته الأدبية التي انمازت بملامح فاقت به على أقرانه في إظهار المقدرة اللغوية واستعمال الألوان البديعية، ممَّا جعله يتفرد بنصوصه وأسلوبه الذي عرف بتميزه عن غيره، إلا أنَّه اختار نصاً سهلاً في كتابه؛ بغية تقديم رسالة إلى المتلقي ذات قيمة اجتماعية تهدف إلى زرع مضامين إنسانية مثل التضحية والإيثار[١].

فمعيار اختيار النص اعتمد على سهولة الأسلوب، إذ "لا يفي بمتطلبات العمق الفكري والعنف الدرامي... فقط كانت الألفاظ في عصرهم مشحونة مركزة في تكثيفها للمعنى العاطفي والفكري"[٢].

خلاصة القول إلى أنَّ اللغة المبسطة التي وظفها أبو حيان التوحيدي من خلال النصوص التي اختارها في كتابه الصداقة والصديق كانت لغاية أراد في ضوئها تقديم مفاهيم إنسانية ذات رسالة اجتماعية، ولقد تخلى البعض عنها ولاسيما التضحية التي صارت ضئيلة في مجتمعه، على وفق هذا النص أفاد التوحيدي لتقديم رسالةً لمجتمعه عن طريق إحياء هذا الباعث الإنساني بسبب رصده مظاهر دخيلة على هذا المجتمع، وما يؤكد بساطة سهولة النصوص التي وظفها التوحيدي في كتابه هي خلوها من التعقيد اللفظي والتداخل في المعنى، فضلاً عن ابتعاده في هذا الاختيار عن

---

(١) ينظر: التفكير السيميائي في اللغة والادب دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي: ١١٣.
(٢) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: ٨٥.

المحسنات البديعية التي اثقلت عدداً من النصوص في مجال فهم معناها على الرغم من أن عصره إنماز بالازدهار والتقدم إلا أنَّه أراد إعمام هذه الفكرة على عامة طبقات المجتمع وعلى وفق معطيات النصوص سأبين أحد أبرز المضامين اللغوية وهو اسم الفاعل.

- **اسم الفاعل:** ينتمي موضوع اسم الفاعل إلى المشتقات في العربية ويمثل اسم الفاعل الأوزان الأكثر شيوعاً في لغتنا، إذ شكلت حضوراً واسعاً في النصوص الأدبية على وجه العموم؛ وعليه توافد هذا الموضوع في نصوص الشعرية التي استعملها التوحيدي في كتابه الذي نحن بصدده، ولقد ورد في عدد النصوص وشكَّل ظاهرةً، وقد تكون لهذه الظاهرة أسباباً ودلالات قد نتلمسها من خلال متابعه النصوص، ومن بين هذا النصوص التي وردت هو قول الشاعر معن بن زائدة[1]، (١٥١هـ)**{الطويل}:**

"إذا نَوَبة نَابَت صَدِيقُك فَاغْتَنِم مَرمَتَها فَالدَهرُ بِالنَاسِ قَلْبُ

وَبَادِرَ بِمعْرُوفِ إذا كُنْتَ قَادِراً وَحَاذِر وَإلا مِنْ غَنَى عَنْكَ يَعْقِبُ

فأحْسَنَ ثَوْبُيكَ الذِي هُو لابِسُ وأفرَه مُهرِيكَ الذِي هُو يَركَبُ"[2].

ورد اسم الفاعل في النص مرتين في قوله **(قادر، وحاذر)**، والملاحظ على هذا التوظيف لهتين المفردتين قصد منها دلالة الاستمرار في القصد المباشر للنص وهو العبرة، ومنحى هذا النص منحىً اجتماعي، إذ أفاد التوحيدي منه؛ لتقديم صورةً باعثها بناء الإنسان القائم على إتخاذ الواقع تجربة له، فطبيعة الزمن والحياة غير ثابتة ومتغيرة، فدلالة اسم الفاعل الواردة داخل النص هي ما منحته طابع الاستمرار والديمومية في حياه الفرد،

---

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر بن شريك بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل مرة بن همام الشيباني المطري. الأنساب: ٥/ ٣٢٦.

(٢) الصداقة والصديق: ٩٣.

وعليه أخذ الحيطة والحذر منها، وكذلك نلحظ توظيفاً للفعل المضارع في النص الذي يؤكد حضور اسم الفاعل من ناحية الدلالة، فكلاهما يدلان على الاستمرارية والحال والاستقبال، وهذا يرصن النص ويسبك دلالته، وإبراز الكثافة اللغوية داخله، فحضور اسم الفاعل يكسب النص دلالات إضافية تؤكد الفكرة التي أدت بالتوحيدي لاختيار هذا النص، لما فيه من رسالة إنسانية جسدت صورة من الصور المجتمع، أو قد يكون اسم الفاعل اضافةً داخل نص تعطي النص نوعاً من المبالغة، وتكسبه دلالات إضافية تضاف إلى الدلالات الأولى[١].

وكذلك ما جاء في قول الشاعر محمد العتبي[٢](٢٦٠هـ)**{البسيط}**

"وَصَاحِبٍ لي أبنيهِ ويهدمني لا يستوي هادمٌ يوماً وبناء
إذا رآني فعَبد خافَ مَعتَبَةً وإن نَأَيتُ فَثَمَّ الغِمرُ والداءُ"[٣].

ورد اسم فاعل في النص مرتين في قوله **(صاحب، وهادم)**، وقد جاء الشاعر بلفظة **(صاحب)** بوصفها كلمةً أعمق دلالة من الصديق، إذ ذهب صاحب العين في أنَّ" الصاحب يكون في حال نعتاً، ولكنه جرى مجرى الأسماء كقولك صاحب مال أي ذو مال، وصاحب زيد أي أخو زيد"[٤].

والملاحظ على دلالات لفظة **(صاحب)** التي أوردها صاحب العين أنّها تأتي مرة بدلالة على الأخ، وكذلك تدل على الحفظ وغيره من الدلالتين السابقتين، يؤكد أن لفظ **(صاحب)** يأتي لمن انماز بمزايا تجعله متفرداً عن غيره من الرفقاء، وكذلك قوله **(هادم)** التي أخذت معنىً ضداً من لفظ البناء، وهنا توجد مضامين الفرق بين جهتين

---

(١) ينظر: الخصائص: ٣/٤٦.

(٢) محمد العتبي المالكي القرطبي محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي الأندلسي القرطبي الفقيه المالكي صاحب المسايل العتبية، توفى في عشر الستين بعد الماتين. ينظر: الوافي بالوفيات: ١/١٦٥.

(٣)الصداقة والصديق: ٥٩.

(٤) العين: ١/ ١٩٤.

أو فئتين أو شخصين منهم من يهدم، ومنهم من يبني، فضلاً عن ذلك رافق الفعل المضارع الذي يمنح النص دلالة الاستمرار إضافة إلى دلالة اسم الفاعل الذي يأخذ طابع الديمومة.

إنَّ ما يؤكد الوعي اللغوي عند التوحيدي هو اختياره لنصوص شعرية جاورت بين اسم الفاعل والأفعال، فمجاورة الأفعال لاسم الفاعل يمنح النص دلالة أقوى ومعاناً إضافيةً تضاف إلى دلالات ومعاني اسم الفاعل الأولى، ممَّا يؤكد دلالة اسم الفاعل داخل النص، وبهذا يكون إضافة الفعل المضارع مع اسم الفاعل داخل النص؛ ليؤكد حقيقة التجربة الإنسانية التي جاء التوحيدي لاختيار نص من خلالها وتوظيفها في كتابه[1]، إنَّما يقدمه التوحيدي في اختياراته لنصوصه الشعرية يؤكد عمق ثقافته اللغوية وقيمته الشعرية التي جمعت بين اللغة المعيارية واللغة الأدبية التي تحقق نفعاً للمتلقي، فجمع اللغة الشعرية تحت دلالة جزء من مفرداتها التي تشكل قيمةً ثقافيةً للكتاب، وعليه تتضح أهمية هذا الكتاب في ضوء مختارات التوحيدي التي اعتمد على ثقافته التي اتسمت بالعمق والوعي، أي أنَّ توظيف اللغة الشعرية شكَّلت رؤيةً اجتماعيةً للمتلقي، يبيَّن فيها رسالة هادفة بغية إظهار مضامين إنسانية اجتماعية تساعده في انتشال واقعه، ممَّا اكتسبه من صفات مكتسبة ناتجة عن تداخل الثقافات وهي قد تكون دخيلة على المجتمع العربي آنذاك.

خلاصة القول إنَّ اسم الفاعل حقق حضوراً في الكتاب نتيجة لطبيعة الاستعمال لهذا الوزن الذي شاع حضوره في الساحة الأدبية، إلا أنَّ اختيارات التوحيدي مثلت وعياً لغوياً وقيمةً إنتاجية للمعنى عن طريق المزج بين اسم الفاعل والأفعال التي تنوعت بين الماضوية والمستقبلية؛ لتعطي دلالات أقوى وإضافية داخل النص.

---

(١) ينظر: الدلالة الزمنية في الجملة العربية: ٦٣.

- **الاســـتفهام:** فالاســتفهام هــو طلــب العلــم بشــيء غيــر معلــوم بوســاطة أدوات تُقســم علــى قســمين منهــا حــروف (هــل و الهمــزة)، ومنهــا أســماء، والاســتفهام قــد يخــرج لأغــراض مجازيــة، وهــي أغــراض مجازيــة، نتلمســها عــن طريــق ســياق الكــلام، ومضــامين مــن القــرائن التــي تكــون فــي سياق الخطاب[١]، ولقد ورد الاستفهام في قول الشاعر **{الوافر}**

"أ تَعجَبُ إنَّ جَفاكَ أخ لِغيرِك عَنكَ مُنْتقِلُ

فَلا تَعجَبَ لِجَفوتهِ ثُقِلت فَمُلكَ الرجلُ"[٢].

إنَّ اســتعمال التوحيــدي لهــذا الــنص بــيَّن تجربــة تميــل إلــى بعــدها الشخصــي أكثــر مــا تكــون تجربــة عامــة مــرت علــى الشــاعر، إذ إنَّ التوحيــدي اختــار نصــاً يحمــل فــي طياتــه الاســتفهام فــي ضــوء حرفــه **(الهمــزة)** حتــى أنَّــه وجد فــي نفســه ثقــلاً وملــلاً حتــى تركــه وانتقل إلــى غيــره، فــي الــنص وجــع عميــق اجتــاح خلجــات التوحيــدي ممَّــا أدى إلــى اختيــاره هــذا الــنص؛ ليكــون بوحــاً تامــاً وقصــديةً مباشــرةً إلــى ذلــك الصــديق الــذي تخلــى عنــه وانتقــل إلــى غيــره إلا أنَّ الــنص لــم يحمــل لفظــة صــديق، بــل حمــل لفظــاً عميقــاً وهــو لفــظ **(أخ)**؛ ليبــين فيــه شــدة وجعــه؛ نتيجــة هــذه الحادثــة ومــا يؤكــد هــذا الوجــع هــو تكــراره للفــظ؛ ليمــنح الــنص دلالــة التعجــب مــرتين بغيــة إثــارة التأكيــد علــى صــعوبة هــذا الحــدث الــذي مــرَّ عليــه للمتلقــي، ولقــد نقــل التوحيــدي فــي هــذا الــنص معاناتــه التــي جســدها قــول الشــاعر، فالجفــاء الــذي رافــق الــنص مــرتين شــكَّل هاجســاً فــي ذهــن التوحيــدي، ومواكــب لــه ممــا أحــدث فــي نفســه وجعــاً أدى ليصــدره مثــل تجربــة اجتماعية تلوح في أفق غيره في قادم الأيام.

---

(١) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ٤٢٣/١.

(٢) الصداقة والصديق: ١٦٣.

فالتوحيدي بهذا التوظيف قدَّم رسالةً نوعيةً بصدق عاطفة، وارتباط شديد بالحدث كاسراً أفق التوقع عن طريق تجاوزه الأنا الموجودة في كل منا ترتبط بالإنسان كحقيقته وحلمه[١]، وبهذا أعطى الاستفهام عمقاً إقناعياً نتلمسه في انفعال التوحيدي، ومديات تأثيره على المتلقي؛ بغية تقديم هذه الرسالة الاجتماعية، ممَّا حقق عمقاً في اللغة الشعرية لما حققته من تأثير[٢].

- **التضاد:** لا يخرج مفهوم التضاد عن" ضد الشيء: خلافه وقد ضاده وهما متضادان، ويقال ضادني فلان إذا خالفك فأردت طولاً وأراد قصراً، وأردت ظلمة وأراد نوراً فهو ضدك وضد يدك، والتضاد أن يجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل"[٣]، وأخذ التضاد يظهر وتحديداً حينما قسَّم سيبويه (**١٨٠ هـ**) المعاني قائلاً" أعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى وأحد وهو كلام نفيس جليل ولاسيما إذا اعتبرنا معنى كلمة لفظين حركتين وهو ما ينصرف إليه أحد وجوه تأويل هذه العبارة وهو الأحسن عندي"[٤]، ولقد وردت التضاد في كتاب الصداقة والصديق في قول الشاعر ابن الحشرج[٥](٩٠هـ)**{الوافر}**:

"فَلا وَأَبِيكَ لا أعْطِي صَدِيقِي مُكاشَرَتِي وَأَمْنَعهُ تَلادِي"[٦].

---

(١) ينظر: الآخر في القرآن: ٣٨.

(٢) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ٧٦- ٧٨.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٦٧.

(٤) الكتاب: ٦٩/١.

(٥) ابن الحشرج بفتح المهملة وسكون المعجمة آخره جيم الطائي أبو طريف بفتح المهملة وآخره فاء صحابي شهير وكان ممن ثبت على الإسلام في الردة وحضر فتوح العراق وحروب علي ومات سنة ثمان وستين وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل مائة وثمانين. ينظر: تهذيب الأسماء واللغات: ٤٥٠/١.

(٦)الصداقة والصديق: ٤٣.

ورد التضاد في النص في قوله **(أعطي، وامنعه)** وغرس الشاعر في هذا النص تضاداً؛ بغية أحداث تناغماً بين مفردات النص عن طريق علاقة **(لفظية)** تربط الكلمات وتنتج لنا دلالة لنص متكامل[١]، وكذلك يرى **(فان دايك)** بأن التضاد هو خاصية نطقية للخطاب عماده التأويل يخلق لنا تماسك داخل النص[٢].

ومن التضاد ما قاله المأمون**(٢١٨هـ)**{**الرجز**}:

"إنَّ أخَا الهَيْجاء مَنْ يَسْعى مَعَك وَمَن يَضُر نَفْسَه لِيَنْفَعَك
وَمَنْ إذا صَرَفَ زَمَان صَدْعَك بَدَدَ شَمْلَ نَفسِه ليَجْمَعَكَ"[٣].

بدأ الشاعر النص بأداة التأكيد **(إنَّ)** وأراد من خياله بيان صدق ما قيل داخل هذا النص، وأكد هذا باستعماله لمفردات مثل**(يضر، ينفعك، بدد، يجمعك)**، وهذا التضاد الموجود في الألفاظ سابقة الذكر، أدى لخلق تأكيداً للمعنى الذي أسس الشاعر، أي أن التضاد جاء؛ ليكون أداةً تنبيهيةً وتأكيداً على حدث أنتج لنا هذا النص، واستعمله التوحيد؛ ليقدم من خلاله رؤى قد تكون بتجربة محيطة به؛ بغية إرسال رسالةً اجتماعيةً إلى المتلقي، فبروز بنية التضاد داخل النص تحقق مراد الشاعر، وامتاعاً للمتلقي؛ كونه وجد نصاً متماسكاً لغوياً دال بلاغياً على هذه الحادثة؛ كون التضاد هو من المؤسسات التماسك المعجمي داخل النص الأدبي، ويعد هذا التضاد تفكيرا وتنبيهاً للمتلقي، إذ إنَّ" المقابلة الضدية التي تحدث مقابل نفسية تدفع المتلقي إلى تقبل هذه الهزة المباغتة التي تحدثها الأشياء المتضادة في تفكيره وفي محصلته اللغوية"[٤].

---

(١) ينظر: الأسلوب والأسلوبة: ٢٣٧.
(٢) ينظر: النص والسياق: ١٧٧.
(٣) الصداقة والصديق: ٥٠.
(٤) صورة الآخر في الخطاب القرآني: ١٩٦.

نلحظ أنَّ التضاد الوارد في النص حقق تناغماً نفسياً بين المتلقي والمبدع، أي أن اختيارات التوحيدي لهذه النصوص المتضادة جاءت؛ بغية جذب انتباه المتلقي؛ لتحقيق غايته الاجتماعية وهي الرسالة الإنسانية.

خلاصة القول إنَّ النصوص الشعرية التي اختارها التوحيدي اتسمت بالعمق اللغوي والدقة في المعنى والجودة في التعبير، والوضوح في الفهم، وهذا ما وجدته في النصوص، ويعود السبب في ذلك إلى الهدف الذي أسس التوحيدي كتابه عليه وهو تقديم رسالة إنسانية اجتماعية، تزيد الوعي وتنمي الأواصر، وتقي من الأراذل.

ثانياً: المستوى الجمالي: تختلف فكرة الجمال ومفاهيمه على مختلف العصور والأمكنة فتأسس فكرة الجمال على أنَّها وجه نظر في ملامحها الأولى، وتختلف طبيعة الأشياء بين الناس وفهمهم ورؤيتهم إليها ولا سيما فكرة الجمال والقبح وغيرها من المفاهيم المطلقة[١]، فتلمس المستوى الجمالي ومؤثراته عن طريق الإدراك الحسي في الأشياء، إذ يحتاج إلى رؤية عاطفية، فضلاً عن الإرادة والطموح، وهذه القيم الجمالية تؤسس رؤية خاصة للعمل الفني الأدبي الذي ينماز بطبيعة لغته الخاصة، فهي تجربةٌ عامرةٌ بالقيم والرسائل الأدبية الإنسانية التي عرف حضورها في الشعر العربي منذ الوهلة الأولى وآليات البطولة عند الشاعر عنترة بن شداد(٦٠٨م) والتضحية عند الخنساء(٢٤هـ)، وهي تجارب تنم عن وقائع تاريخية نقلت إلى جوانب جمالية أسست لمبادئ أفاد منها الفرد بعد حين[٢]، " فالجمالي نتاج لعلاقة الإنسان بما حوله من الظواهر الطبيعية كانت أم اجتماعية والجمال كما ورد في تعريفات له مفهوم يشمل جوانب وعناصر وخصائص علاقات وسمات موجودة في الظواهر والموضوعات الطبيعية

---

(١) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنه: ٣٤.

(٢) ينظر: التجربة الجمالية في الفكر العربي: ٤٢-٤٥.

والاجتماعية"[١]، وكذلك يمثل العنصر الجمالي الجانب الرئيس في تشكيل التجربة الأدبية، ولا يمكن عدَّه عنصراً دخيلاً إنَّما هو تطوير يلحق السمات المائزة داخل هذا النص وذاك، ولقد ولدت بعض المضامين الجمالية في كتاب الصداقة والصديق عن طريق اختيارات التوحيدي لنصوص تضمنت ما يأتي.

- **الاغتراب:** شكل الاغتراب قضيةً تناولها الفلاسفة والمفكرون بالتحليل والبحث، ولاسيما بعد نشوء المجتمع الصناعي وقيام الحربين الكونيتين وما رافقها من مشكلات تخص المجتمع، إذ كانت ملامح هذه اللفظة الأولى متناثرة من دون قصد واضح، إلا انَّ بعد تداولها صارت مسألةً تشغل الفكر الغربي فيما يخص تحديد أسبابه ومظاهره، وأول من تطرق إلى هذه اللفظ هو الفرنسي **(جان جاك روسو)** واستعملها في كتابه **(العقد الاجتماعي)**، وتحديداً في الفصل الرابع من الكتاب، إذ قال" إنَّ الاغتراب معناه التسليم أو البيع فالإنسان الذي يجعل من نفسه عبداً لآخر إنسان لا يسلم نفسه إنَّما هو بالأحرى يبيعه نفسه من أجل بقائه على الأقل"[٢].

وجاء الاغتراب عند هيجل ليدخل دائرة الاستعمال المنهجي المقصود والمفصل؛ وبهذا انتقل الاغتراب من مجرد إشكال يعانيه الإنسان في العصور الأزمة والقلق إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يطلق عن قصد مقصود، وشغل الاغتراب أفق تفكير علماء الإسلام واهتمامهم حتى أنهم قسموه على اغتراب الأوطان واغتراب الحال واغتراب الهمة ولاسيما عند المتصوفة ومنهم الخطابي(٣٨٨ هـ) في كتابه **(العزبة)**، وبهذا يكون

---

(١)الوعي جمالي في السرد القصصي: ١٥.

(٢) الاغتراب في الشعر العربي المعاصر: ٢٥.

الاغتراب" حالة إنسانية نفسية اجتماعية للسيطرة على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقع الاجتماعي"[١].

وعرَّفه الدكتور محمد راضي جعفر بأنَّه " مجموعة تجارب مشبعة بالمرارة والألم من أبرزها تجارب الحب والثورة والحنين إلى الماضي والمرض والوبيل"[٢]، ولقد ورد الاغتراب في كتاب الصداقة والصديق، إذ قال الشاعر أبو اسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي(**٣١٣هـ**) في إخوان الزمان لنفسه**{الطويل}**:

"أيَا رَبُ كُل النَاسِ أبْناء عَلة ... أمَا تُعْثَر الدُنيا ـــلنا بصِدِيقِ
وَجْوهُ بِها مِنْ مُضمرٍ الغِل شَاهَد ... ذَوات أديِـم فِي النِفاقِ صَفِيقِ
إذا اعْتَرضُوا دُون اللقاءِ فإنَّهم ... قَذىَ لِـعِيُون أو شَجَى لِحَلوقِ
وَإن أظهروا بَرَد الوِدادِ وَظِله ... أسروا مِنْ الشَحْناء حُر حَرِيقِ
ألا لَيْتَنِي حَيْث انْتَوت أفْراخُ القَطَا ... بأقْصَى مَحَل فِيْ الفَلاةِ سَحِيقِ
أخُو وَحَدة قَدْ آنَسْتَنِي كأنَّني ... بِـها نَازلُ فَيْ مَعْشَري وَفَرِيقي
فَذَلِكَ خَيْر لِلفَتَى مِنْ ثَوائِه ... بِـمَسْبَعةٍ مِنْ صَاحِبٍ وَرَفِيقِ"[٣].

يمثل هذا النوع من الاغتراب **(الاغتراب الاجتماعي)**، وتلمس هذا المضمون في جملة المفردات وردت في هذا النص وهي **(الغل، والأديم، والصفيق)** ومثلت هذه الألفاظ دلالات الحقد وضغينة والوقاحة وهي ملامح تشير إلى مديات ألم هذا الشاعر وحسرته على عدم إيجاد رفيق يجود بين هذه الأوجاع، ولقد استعمل التوحيدي هذا النص؛ بغية إرسال رسالة قصديتها مباشرة إلى المتلقي، بأن اختيار الصديق هو الأساس في تجربة الصداقة التي لا تحتاج إلى صديق به خصال من غير ممّا ذكر، وكذلك

---

(١) الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع هجري دراسة اجتماعية نفسية: ٢٤.
(٢) الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحله الرواد: ٦.
(٣) الصداقة والصديق: ٣٧.

الـنص مشـحون بصـدق العاطفـة وعمـق التجربـة وشـده الألـم، إذ رافـق الشـاعر وهو يصور لنا تجربة الاجتماعية بأوجاعها النفسية ومؤثراتها الاجتماعية.

فالشـاعر فـي الـنص نقـل مـرارة وجعـه إلـى المتلقـي؛ ليشـكل ملامـح تلـك الحادثـة فـ" العمـل الشـعري مجـرد انعكـاس نفسـي، فضـلاً عـن ذلـك لـيس مجـرد واقعـي اجتمـاعي، انـه قبـل كـل شـيء مركـب ابـداعي يصـدر مـن مركـب إنساني"[١]

إنَّ الملاحـظ علـى هـذا الـنص هـو شـدة الاضـطراب وشـحة الاسـتقرار صـعوبة تلقـي الحـدث علـى الشـاعر، إذ إنَّ هـذا الـنص مثَّـل انكسـاراً للـذات[٢]. وفـي ضـوء هـذا المعنـى نـتلمس أنَّ نظـام اللاشـعور عنـد الشـاعر هـو الـذي أدى إلى بوحه بوحاً تاماً بوجعه الذي جعله متشظياً محتاراً متناثرا[٣].

ونلمح الاغتراب في قول الشاعر أبي زبيد الطائي[٤](٦٢هـ)**{الوافر}**

"وَكُنتُ إِذا الصَديقُ أَرادَ غَيظي عَلى حَنَقٍ وَأَشرَقَني بِريقي

غَفَرتُ ذُنوبَهُ وَصَفَحتُ عَنهُ مَخافَةَ أَن أَكونَ بِلا صَديقِ"[٥].

إنَّ الشـاعر فـي هـذا الـنص يعـيش حالـةً مـن الاضـطراب وعـدم الاسـتقرار؛ كونـه إذا فقـد الصـديق عـاش خائفـاً كاظمـاً لألمـه، وهنـا نلحـظ اختيـار التوحيـدي لهـذا الـنص جـاء ليؤكـد وحدتـه وعـدم وجـود مـن يرافقـه، إذ

---

(١) كلام البدايات : ٢٨.

(٢) ينظر: في الشعر العربي المعاصر: ٧٨.

(٣) ينظر: كلام البدايات: ١٠٢.

(٤) أبو زبيد الطائي كان نصرانياً وهو أحد المعمَّرين يقال إنه عاش مئة وخمسين سنة وأدرك الإسلام ولم يسلم واستعمله عمر بن الخطاب على صدقه قومه، ولم يستعمل عمر نصرانياً غيره، وبقي إلى أيام معاوية ورثى علي بن أبي طالب عليه السلام وكان ينادم الوليد بن عقبة بن أبي معيط بالكوفة، فلمّا خرج الوليد عنها وشهد عليه بشرب الخمر. ينظر: الوافي بالوفيات: ٩٨/٤.

(٥) الصداقة والصديق: ٣١١.

تخلى عن صديقه الذي أخطأ في حقه فغفر له ذنوبه، وهذا ليس بإطار المحبة والسماحة، بل بإطار الخوف من الوحدة فـ(**فقد عمود الأخاء**) والتوحيدي في كتاباته واختياراته يميل إلى الدقة في صناعة الكتابة، أي اعتماده على الدربة، وعنده الكتابة مثل النجار والحداد، وهذا يعني أنَّ التوحيدي اختار هذا النص عن تجربة واقعة أو لحدث مر عليه؛ ليكون هذا النص تجسيداً لتلك المعاناة[١]، وهنا نلحظ أنَّ التوحيدي قام باختيار هذا النص ليشير إلى انفصال وتنافر بينه وبين بيئته التي يقطنها[٢].

خلاصة القول إنَّ الاغتراب الذي تلمسته في النصوص كانت مخاض تجربة مرت على التوحيدي، ولهذا استوقفته هذه النصوص، وحققت غايته الاجتماعية والنفسية، وما رافقه من مرارات الواقع وصعوباته، وهذا يؤكد حقيقة التوحيدي وطبيعته النفسية، وحدة مزاجه.

ثانياً: الموتيف: يمثل الموتيف مفهوماً من المفاهيم الرئيسة في المأثور الشعبي، ويشكَّل سلوكاً قد يكون لفظياً أو حركياً اجتماعياً أو تفاعلياً وحتى عقلياً وعاطفياً ومادياً وهو يمثل ظاهرة للوجود الإنساني، إذ إنَّه محكوم بعوامل اجتماعية وثقافية ونفسية تحدد شكله وبناؤه ومكوناته ومعناه ووظيفته ومده حضوره[٣]، ولقد انسحب مصطلح الموتيف إلى الأدب الشعبي بعدما كان حاضراً في الفن المعماري والتصويري، وحتى الموسيقى واطلق عليه بروب في البداية (**الوظيفة**)[٤].

---

(١) ينظر: الأدبية عند أبي حيان التوحيدي : ١٧٤.

(٢) ينظر: الاغتراب: ١١٢.

(٣) ينظر: الموتيف والطراز: مفاهيم اساسية لتحديد المأثور الشعبي الشفهي ودراسته: ٧.

(٤) ينظر: الموتيف بين الأدب الشعبي والأدب الفردي: ٣٥.

انتقل مصطلح الموتيف إلى العمل الأدبي؛ ليكون الشيء المكرر داخل النص وأثره في دلالة، وما يحققه من حضور في نفس المتلقي، فالموتيف يشكل ملمحاً من الملامح التي ارتبطت بالشعراء الذين عانوا بعض التجارب[١].

ولقد وردت مضامين هذا المصطلح في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي في قول الشاعر **{الطويل}**:

وَاِجعَل صَديقَكَ مَن إِذا آخيتَهُ حَفِظَ الإِخاءَ وَكانَ دونَكَ يَضرِبُ

وَاِطلُبهُمُ طَلَبَ المَريضِ شِفاءَهُ وَدَعِ الكَذوبَ فَلَيسَ مِمَّن يُصحَبُ

يُعطيكَ ما فَوقَ المُنى بِلِسانِهِ وَيَروغُ مِنكَ كَما يَروغُ الثَّعلَبُ

وَاِحذَر ذَوي المَلَقِ اللِئامِ فَإِنَّهُم في النائِباتِ عَلَيكَ مِمَّن يَخطُبُ

وَلَقَد نَصَحتُكَ إِن قَبِلتَ نَصيحَتي وَالنُصحُ أَرخَصُ ما يُباعُ وَيوهَبُ"[٢].

نتلمس الموتيف في ضوء تكرار حرف **(الكاف)** داخل النص، إذ ورد في قوله **(صديقك، ودونك، ويعطيك، وعنك، وعليك، ونصحتك)**، ويفرز هذا الصوت قوة وتنبيهاً وشدة بوصفه صوتاً من الأصوات الشديدة والانفجارية[٣]، وفي ضوء هذا الاستعمال اختار أبو حيان التوحيدي هذا النص؛ ليحقق من خلاله رسالةً اجتماعيةً لها أثرها النفسي فيه والمتلقي، إذ طلب التوحيدي بحفظ الأخاء في كل موقف وفي كل حال وتجنب الملق وغيره.

---

(١) ينظر: الموتيف ودلالته في شعر الشاعر العراقي عدنان الصائغ (موتيف النافذة نموذجا): ٢٨٧.

(٢) الصداقة والصديق: ٩٤.

(٣) ينظر: علم الأصوات اللغوية: ٤٧.

وتأكيد ما تقدم في ضوء اختيار التوحيدي لهذا النص هو اختياره لقافية **(الباء)** وهي من الأصوات التي تمثل القوة والشدة والانفجارية، أي أنَّ التوحيدي اختار نصاً فيه صوتين انفجاريين؛ بغية تنبيه المتلقي حول هذا النص وفائدته بوصفه تجربةً اجتماعيةً تقدم منفعةً للفرد الآن وبعد حين.

إنَّ اختيار هذا النص من قبل التوحيدي جاء لإرساء أفكاره ومتبنياته؛ ليقدمها إلى المتلقي وهو نوع من الاعتداد بالنفس محاولةَ نقل هذه التجربة للآخرين؛ بغية الإفادة منها، فهو يسعى إلى تحويل النص إلى نصٍ ذي مقبولية جماعية، وهي تحويل المتلقي إلى قائل عن طريق نقل المتلقي لهذا النص وتداوله بين الجماعة، فهو يزرع بذور ثقافية توحيدية لدى المتلقي وهذا التفكير يمثل "مؤسسةً ذات آليات لاختزال معرفة وصيانتها وتامين انتقالها... من حيث آليات بنا تواصلية لها قوانينها الذاتية ولها مراسمها العرفية "[1]، وهنا تتأكد أن الصداقة أذهب في مسالك العقلي وادخل في باب المروءة وأبعد من نوازع الشهوة[2].

وكذلك ما جاء في قول الشاعر العباس بن الأحنف(١٩٣هـ)**{الطويل}**

"فَأُقسِمُ ما تَركي عِتابَكِ عَن قِلىً وَلَكِن لِعِلمي أَنَّهُ غَيرُ نافِعِ

وَأَنّي إِذا لَم أَلزَمِ الصَبرَ طائِعاً فَلابُدَّ مِنهُ مُكرَهاً غَيرَ طائِعِ

إِذا أَنتِ لَم يَعطِفكِ إِلّا شَفاعَةٌ فَلا خَيرَ في وُدٍّ يَكونُ بِشافِعِ"[3].

إنَّ الملاحظ على النص وجود نسيج لغوي يمنح النص عتاباً، وقد يمنح الموتيف هذا العتاب استمرارية عن طريق توظيف **(اسم الفاعل)** في قوله **(نافع ،وطائعا، وطائع، وشافع)**، ولقد اغدق اسم الفاعل على النص دلالة

---

(١) التوحيدي وسؤال اللغة: ٣٢.

(٢) ينظر: في الصداقة والصديق: ٢٩١.

(٣)الصداقة والصديق: ١٦٤.

فيها معنى الحدوث والاستمرارية، وهذا النمط من البنية التركيبية يقدم دلالةً واضحةً عن طريق تكثيف اللغة؛ لبيان أهمية الحدث ومدى أثره في نفس الكاتب؛ ولهذا اختار التوحيدي هذا النص؛ ليظهر من خلاله تجربة اجتماعية يشوبها صدق الموقف ودقه الحدث.

اختار التوحيدي نصاً انماز بمعانيه الصافية والفاظه النقية، ممَّا يمنح المتلقي رؤيةً واضحةً عمَّا يجوب في ذهن التوحيدي حول هذه التجربة[1]، التي يقدم من خلاله ألماً لاحقه؛ كونه لم يحقق مكانة يرتجيها مع صديق ما، والتكريم الذي يليق به حتى فأنَّ بعض هذه المختارات نلحظ ضيقاً وياساً من الحياة.

إنَّ التوحيدي في اختياراته لهذه النصوص أنه لم يسعَ إلى الصداقة التي نادى بها أرسطو وهي ان الصديق هو انت، بل أنَّه كان أقل طموحاً وهذا يعود إلى طبيعة شخصيته وعلاقاته آنذاك، لكنه قصد قصدية مباشرة في تقديم هذا النوع من النصوص كرسالة هدف منها إلى إحياء مندثر العلاقات الإنسانية **(الصداقة)**، فضلاً عن رسائل اجتماعية للمتلقي.

خلاصة القول إلى أنَّ اللغة الشعرية في كتاب الصداقة والصديق لم تشكل معجماً شعرياً واحداً؛ وذلك لتعدد الشعراء في اختيارات التوحيدي، وهذا يعني أنَّ النصوص الشعري لم تتصف بنمط خاص ولم يتوافر على مظهر لغوي أو جمالي واحد بارز الظهور، إلا أنَّ طبيعة الكتاب وتجربة التوحيدي جعلته يختار نصوصاً أخذت بنا لتلمس مضامين جمالية سبكت النص وجعلت قصده مباشراً.

---

(١) ينظر: الركائز الفكرية في نظرة أبي حيان التوحيدي إلى المجتمع: ٢٥.

المبحث الثالث

الصورة الشعرية

مدخل:

إنَّ الحديث على الصورة الشعرية هو حديث تداولته أقلام النقاد والباحثين، فالصورة تمثل البُعد العاطفي من خلال النص الشعري، إذ تسعى لغرس قيمةٍ أدبية داخل النص، وهي لم تكن وليدة هذه اللحظة بل "حين تحدث القدماء عن التصاوير والرسوم والنقوش والألوان ولم يغبْ عن تصورهم سيطرة الجانب الحسي على غيره من الجوانب"(١).

ولقد عُرِّفت الصورة بتعريفات كثيرة ويعد تعريف سسيردي لويس من اكثر التعريفات وضوحاً، إذ قال"رسم قوامه الكلمات المشحونة بالأحاسيس والعاطفة"(٢).

فالصورة تمثل معاينةً لأحداث تُحيط بالمبدع؛ لأنها تنقل عن تجربة حقيقية كل هذه التدفقات من المشاعر والعاطفة إلا أنَّها قد تختزل هذه الأحداث وتنتقي منها ما يتوفق وطبيعة الحدث المراد توظيفه داخل النص(٣)، وتُبنى هذه الصورة من الخيال الفني، إذ إنَّه" يكسر الحاجز الذي يبدو عصياً بين العقل والمادة؛ فيجعل الخارجي داخلياً والداخلي خارجياً ويجعل من الطبيعة فكراً، ويحيل الفكرة إلى الطبيعة وهذا موطن السر في الفنون"(٤).

وعلى وفق ما تقدم ساتحدث عن مضامين ستكون جزءاً من بنية الصورة الشعرية وهي على النحو الآتي

---

(١) الصورة الشعرية والرمز اللوني: ١٤.

(٢) الصورة الشعرية: ٢٣.

(٣) ينظر: الصورة: ٣٣٥.

(٤) الصورة الادبية: ٢٧.

أولاً: التشبيه:

يمثل التشبيه أحد الأركان الرئيسة في بناء الصورة الشعرية مع المكونات الأخرى، ولقد زخرت الحقول الأدبية بهذا الفن البلاغي؛ لما له من أثرٍ في إنتاج النص بحلته الأدبية وقبل الخوض فيه لا بدَّ من التوقف على بعض ملامحه الأولى وهي على وفق ما يأتي:

التشبيه في اللغة: عرَّفه ابن منظور قائلاً: "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمع أَشْباهٌ. وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: ماثله. وفي المثل: مَنْ أَشْبَه أَباه فما ظَلَم.وأَشْبَه الرجلُ أُمَّه: وذلك إذا عجز وضَعُفَ... وأَشْبَهْتُ فلاناً وشابَهْتُه واشْتَبَه عَلَيَّ وتَشابَه الشيئانِ واشْتَبَها: أَشْبَهَ كلُّ وأحد صاحِبَه. وفي التنزيل: مُشْتَبِهاً وغَيْرَ مُتَشابه. وشَبَّهه إياه وشَبَّهَه به مثله. والمُشْتَبِهاتُ من الأُمور: المُشْكِلاتُ. والمُتَشابِهاتُ: المُتَماثِلاتُ. وتَشَبَّهَ فلان بكذا والتَّشْبِيهُ: التمثيل، وفي حديث حذيفة: وذَكَر فتنةً فقال تُشَبَّهُ مُقْبِلَةً وتُبَيِّنُ مُدْبِرَةً؛ قال شمر: معناه أَن الفتنة إذا أقبلت شَبَّهَتْ على القوم وأَرَتْهُمْ أَنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويَرْكَبُوا منها ما لا يحل، فإذا أَدبرت وانقضت بانَ أَمرُها، فعَلِمَ مَنْ دخل فيها أَنه كان على الخطأ. والشُّبْهةُ: الالتباسُ. وأُمورٌ مُشْتَبِهةٌ ومُشَبِّهَةٌ... وشَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأَمْرَ حتى اشْتَبه بغيره"[1]، ذُكِر التشبيه بمعنى التمثيل، إذ قيل شبهت الشيء بشيءٍ أي مثلته به، وهذا يعني المشابهة هي أساس التشبيه.

التشبيه في الاصطلاح: عرَّف العلماء التشبيه بمختلف التعريفات ومنهم المبرد (٢٨٦هـ) الذي عرَّفه قائلاً" تشبيه حداً في الأشياء تشابه من وجهه وتباينه من وجهه وإنَّما ينظر إلى التشبيه من حيث وقوعه"[2]، وتناوله الرماني(٣٨٤هـ) بقوله هو "العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر، في

---

(١) لسان العرب: ٣/٥٠٣-٥٠٤.

(٢) الكامل في اللغة والأدب: ٢/٧٦٦.

حس أو عقل"[١]، وعرَّفه ابن رشيق القيرواني (٤٥٦ هـ) بأنه" صفة الشيء بما يقاربه وشاكله من جهة واحده أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ألا ترى أن قولهم "خذ كالورد إنَّما أرادوا حمرة الأوراد وطراوتها لا ما سوى ذلك من سفرت وسطه وخضرتا "[٢]، وعرَّفه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بأنَّه "تثبت لهذا معنى من معانٍ ذاك أو حكماً من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد والحجة حكم النور "[٣]، فضلاً عن السكاكي(٦٢٦هـ) الذي عرفه قائلاً هو" وصف الشيء بمشاركته المشبه به في الامر "[٤]، ولم يغفل عنه المعاصرون بقولهم"طبقات مرتبطة بمستوى المتفنن والمتلقي، ومرتبطة بقدرات التواصل على طبقات المعنى في الكشف والوضوح عن مكنون المُخبأ، والتشبيه لون من ألوان التعبير الإنساني"[٥]، وكان لفن التشبيه "روعة وجمال، وموقع حسنٌ في البلاغة: وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعة ووضوحاً ويكسبُها جمالاً وفضلاً، ويكسوها شرفا ونُبلا، فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو، ممتدُ الحواشي مُتَشعب الأطراف مُتوعر المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى غزير الجدَوى"[٦]. وأفاد التوحيدي من النصوص التي مارس فيها الشعراء التشبيه ومنها قالها الشاعر**{الرجز}**:

"ثَلَاثةُ أصْفِيتَهمْ إخَائي كأنَّهمْ كَوَاكب الجَوزَاء

---

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٨٠.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وأدبه: ٢٥٦/١.

(٣) أسرار البلاغة: ٦٨.

(٤) مفتاح العلوم: ٢٥٨.

(٥) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ٩٥.

(٦) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٢١٩.

عَطَارِدِيُون يَرُوْن رَأيي كأنَّما أهواؤهم أهوائي"[١].

ورد التشبيه في هذا النص مرتين، فكان الأول في قوله **(كأنَّهم كواكب الجوزاء)** وجاء الآخر في قوله**(كأنَّما أهواؤهم أهوائي)** وتشبيه في المرتين هو **(تشبيه مرسل)**، إذ ذكر فيه أداة التشبيه وكانت أداة التشبيه الأولى**(كأنَّه)** وكذلك الآخر، وقصد الشاعر من هذا التشبيه الإيضاح والتقريب؛ كونه" المجال والرحب لانسياب الصورة واستحداثها في الشكل بل هو الكاشف عن حقيقة الصورة الأدبية ولعله من أهم مقومات الشكل الشعري"[٢]، وكذلك حقق التشبيه نسقاً يخلق توازناً بين الصفات المتضادة أو المتعارضة داخل النص، والتشبيه هنا يفعل عملية الترابط بين الكاتب والمتلقي عن طريق التأثير فيه[٣]، ولقد قصد التوحيدي من اختياره لهذا النص هو بيان لقيمة الصديق، وما تحققه صداقته من تأثير في نفسه، حتى جعلهم بمثابة برج الجوزاء الذي يسطع في الليل، ويتوهج ضياءه، وكذلك يقول الشاعر**{المنسرح}**:

"وَلَا تَصِل حَبْلَ غَادرٍ ملقٍ فالغَدرُ مِنْ شَر شِيمَة الرَجُلِ

لَا خيرَ فيْ غَادِرٍ مَوَدتهُ كالصابِ، وَالقولَ عنهُ كالعَسلِ"[٤].

وظف الشاعر في هذا النص التشبيه مرتين في قوله **(كالصاب)**، وقوله **(كالعسل)** ولقد وظف الشاعر هذين التشبيهين؛ ليقدم منهما صورةً تقريبيةً عن الصديق الغادر بصديقه، وكيفية التوخي منه، واستعمل في التشبيه الأداة الأشهر والأكثر وضوحاً في ذهن المتلقي، أي بغية تقريب هذا

---

(١) الصداقة والصديق: ١٠٥.

(٢)الصورة الأدبية في الشعر الأموي: ٤٤.

(٣) ينظر: علم أساليب البيان: ٩٩.

(٤)الصداقة والصديق: ١٦٣.

الحدث له وجعل مودة الغادر هي كـ(**الصاب**) والصاب قد يدل على السهم، فضلاً عن قوله الذي كان كـ(**العسل**) وقد اختار التوحيدي هذا النص؛ ليقدم فيه رسالةً توعويةً ذات نسق اجتماعي إلى المتلقي للحذر لمن يلبسون الوجه المحبة، وهم يضمرون الغدر والحقد فهم لا يمكن عدهم ضمن الأصدقاء.

فالحدث الذي مرَّ على الشاعر كان مبصراً به سامعاً له إلا أنَّ تحولات الخطاب للمسار المعرفي عند الشاعر جعل إدراكه للحادثة يتشكل فهمياً لمعونة الخيال؛ ليقدم لنا هذه الصورة التي قربت الحادثة إلى ذهن المتلقي بواسطة التشبيه[١].

إنَّ المتتبع لهذا النص يلحظ أنَّه انعكاس لتجربة واقعية وانفعالات نفسية شكلت هذه الصورة الفنية، فضلاً عن ذلك نتلمس أنَّ الصورة الشعرية" تتعامل مع الواقع المحسوس بأبعاده ومع الجوانب التجريدية الفكرية ومع أعماق الإحساس النفسي الداخلي"[٢]، فضلاً عن ذلك الانعكاس النفسي على الشاعر قدَّم قيمةً جماليةً غايته ذكر أوصاف الصديق الغادر الذي ألَّم به بهذا الموقف وخوفاً عن الآخرين أن يحصلوا على نفس هذه التجربة المؤلمة أي أنَّ الشاعر من خلال تجربته يحاول تقديم نسقاً إقناعياً للمتلقي؛ بغية عدم تكرار هذه التجربة[٣]، وكذلك ما جاء في قول الشاعر إبراهيم بن المهدي(**٢٤٤هـ**)**{البسيط}**

"مَن نَمَّ في الناس لم تُؤمَنْ عقاربُهُ على الصديق ولم تُؤمَنْ أفاعيهِ

كالسَّيلِ بالليلِ لا يدري به أحد مِن أين جاء ولا مِن أين يأتيهِ"[٤].

---

(١) ينظر: الصورة وحدوده التأويل وحدود الترجمة: ٥٣.

(٢) جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي: ٢٧.

(٣) ينظر: بلاغة الاقناع دراسة نظرية وتطبيقية: ١١٧.

(٤) الصداقة والصديق: ١٩٢.

قدَّم الشاعر تنبيهاً من النمَّام، فهو غير مأمون لصاحبه؛ كونه في جعبته العقارب والأفاعي حتى أنَّه يأتي مثل السيل لا يدري به أحداً، فقد وظَّف الشاعر التشبيه في قوله **(كالسيل)** بوساطة أداة التشبيه الأشهر عند العرب**(الكاف)**؛ ليقدم من خلال هذا التشبيه صورةً شعريةً أراد منها التكثيف الصوري عن طريق اللغة؛ بغية إشعار المتلقي بخطورة النمام، فجعله كـ**(السيل)** والسيل هو الماء الذي يكون جارفاً، وسعى من خلاله لبيان شدة ما يخلفه النمام من أثر مثل أثر السيل في الليل، والتشبيه في هذا النص هو **(تشبيه مجمل)**.

والتشبيه هنا قصد منه حدث النمام عن طريق عقد المماثلة، ولم يقصد به عقد المماثلة التامة بين الطرفين[١]، أي أنَّ التشبيه صار" أداةً من أدوات أداء المعنى بتمثله له في صورة محسوسة وملموسة "[٢]، وكذلك يقول الشاعر الحلاج(**٣٠٩هـ**)**{الرمل}**:

"روحُهُ روحي وَروحي روحُهُ إن يَشَأ شِئتُ وَإن شِئتُ يَشا"[٣].

مثَّل هذا النص رسالةً واعية ذات قيم اجتماعية عالية بين الأصدقاء حتى أنه وظف لفظ **(روحه روحي)** أي **(كروحي)**، وعلى الرغم من أنَّ حقيقة النص الصوفي معروفة وهي مناجاة الله سبحانه وتعالى، إلا أنَّ الشاعر اجتزأ النص؛ بغية بث تجربة من تجارب الصداقة المثالية؛ لما في النص من ألفاظ سهلة وموسيقى عالية تجعل الفكرة أكثر قبولاً لدى المتلقي.

إنَّ طبيعة الأصوات الواردة في النص حملت في طياتها التكرار الذي منح المتلقي صورةً ذات قصدية مباشرة تقرب له حقيقة هذا تشبيه وما

---

(١)الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية بلاغية: ١٨٦.

(٢) ينظر: نظرية التلقي في تراثنا النقدي والبلاغي: ٢٠٠.

(٣) شرح ديوان الحلاج: ١٥٢.

انتجه داخل النص من "الخصب والامتلاء والعمق إلى جانب الإصالة والإبداع حيث تمثل الصورة وتؤدي دورها"[١].

خلاصة القول أنَّ التشبيه الذي وظفه التوحيدي مثل رؤيته الشخصية من حيث اختيار النصوص، إذ إنَّه سعى لنقل انفعالاته النفسية ومؤثرات المجتمع عليه وإيصالها إلى المتلقي بوصفها رسالةً تامةً مستعيناً بالصورة الشعرية وقيمها الفنية؛ لتكوين صورة واضحة وزاخرة بالإيجاز والتقريب، فضلاً عن تهذيب الأفكار وتنميتها داخل ذهن المتلقي.

ثانياً الاستعارة:

إنَّ الاستعارة من الفنون البلاغية العربية الأصيلة التي شكلت حضورها في النص الأدبي على وجه العموم، وكذلك أنَّ غاية توظيف الاستعارة داخل النص الشعري يمنحه جمالاً فنياً وتقريباً للمضامين الشاعر وانفعالاته النفسية وعلى وفق ما تقدم سنبين الاستعارة في كتاب الصداقة والصديق ولكن لا بدَّ أن نؤثث لها بمفهومها اللغوي والاصطلاحي وهي على النحو الآتي:

الاستعارة في اللغة: فهي من" العارِيّة والعارةُ ما تداولُوه بينهم، وقد أَعارَه الشيءَ وأعاره منه وعاورَه إِيَّاه والمُعاورة، والتَّعاور شبه المُدَاولة، والتّداول وتَعَوّرَ واسْتَعار طلب العارِيّة واسْتَعارَه الشيءَ واسْتَعارَه منه: طلب منه أَن يُعِيرَه إِيّاه"[٢]، أي بمعنى طلب العارية أي استعاره الشيء واستعاره منه وهذا يعني أنَّه طلب منه أن يعيره شيئا.

---

(١) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: ١٤٣.

(٢) لسان العرب: ٦١٨/٤.

الاستعارة في الاصطلاح: إنَّ أول من عرَّف الاستعارة هو أبو عمرو الجاحظ، إذ قال الاستعارة هي" تسميه الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[١]، وكذلك عرفها ابن قتيبة(**٢٧٦هـ**)، إذ قال "إنَّ العرب تستعير الكلمة فنضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها سبب من الآخر أو مجاورا أو مشاكل فيقولون للنبات نوء؛ لأنه لا يكون من النوء عندهم"[٢]، وعرَّفها ثعلب (**٢٩١هـ**) إلى أنها " يستعار لشيء اسم غيره أو غير معناه "[٣]، وجاء أبو هلال العسكري(**٣٩٥هـ**) وقال في الاستعارة أنَّها "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غير غرض"[٤]، فضلاً عن عبد القاهر الجرجاني الذي عرَّف الاستعارة قائلاً" والتشبيه هو الأصل في الاستعارة وهي شبيه بالفرع له أو صورة مقتضية من الصورة"[٥]، قد وردت الاستعارة في كتاب الصداقة والصديق ومنها قول الشاعر سعيد بن حميد**{الطويل}**

"لقد ساءني أنْ ليس لي عنك مَذْهَبُ ولا لك في حسن الصنيعة مَرْغَبُ

أفكر في ود تقادم بيننا وفي دونه قُرْبَى لمن يتقرَبُ

وأنت سقيمُ الودَ رَثّ حِبالُه وخيرٌ من الودَ السقيمِ التجنبُ

تُسِيئ وتَأبَى أنْ تعقَب بَعْدَهُ بحسُنْي، وتَلقاني كأني مُذْنِبُ

وأَحْذَرُ إن جازيت بالسوء والقلى مقالةَ أقوام ودهُمُ عنك أنْجَبُ

أساء اختياراً أو عَرَتْه مَلاَلَةٌ فعاد يُسيء الظنَ أو يتعتَبُ

---

(١) البيان والتبيين: ١٥٣/١.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٨٤.

(٣) قواعد الشعر: ٤٨.

(٤) كتاب الصناعتين: ١٧٨.

(٥) أسرار البلاغة: ٢٢.

فخِبْتُ من الود الذي كان بيننا كما خاب رَاجي البرق والبَرْقُ خُلَبُ"[١].

وردت الاستعارة في قوله(**سقيمُ الودَ**) وهي استعارة تصريحية، إذ ذُكر لفظ المشبه به وهو (**سقيمُ الودَ**)، وترك لفظ المشبه، وهنا الاستعارة(**تصريحية**)، ولقد استعمل التوحيدي هذا النص؛ ليقدم في ضوئه صورة إبداعية يوضح عن طريقها حقيقة الصديق الذي يقتل الود، وأكد هذا التوظيف بقوله(**رَثّ حِبالُه**)؛ ليؤكد عدم صفاء هذا الصديق، فالحبال الرثة هي بداية القطيعة، وانجز هذا التصوير بتكرار لصوت (**القاف**)، الذي يخلق توازناً صوتياً داخل النص، فضلاً عن تكرار لفظ(**السقيم**) مرتين ليؤكد ضعف هذا الود بين الصديقين.

يهدف التوحيدي إلى نقل تجربته التي انتجت أحداثاً فيها" تغيير في الموقف العاطفيّ أو الفكريّ للمتلقي"[٢]، ممَّا يسعى لتقديم رسائل ذات طابع اجتماعي.

إنَّ البُعد الاستعاري أثَّر في بناء فاعلية الصورة ومدى تأثيرها في النص؛ بهدف إزالة الغموض وتقريب التجربة[٣]، فضلاً عن ذلك إنَّ الاستعارة تركز على عاطفة المتلقي ممَّا يمنحه رؤية موجزة عن الحدث من خلال التصوير[٤].

وكذلك يقول الشاعر **{الوافر}**

"بلغت من السنين مدى طويلاً ولم تعرف عدوك من صديقك

---

(١) الصداقة والصديق: ١٠٣-١٠٤.

(٢) اللغة والخطاب: ١٣٣.

(٣) ينظر: الحجاج في شعر النقائض(دراسة تداوليَّة): ١٣٢-١٣٤.

(٤) الخيال في الشعر العربي: ١٨.

فسرت على الغرور ولست تري شراب أم سراب في طريقك"[١].

وردت الاستعارة في قوله **(فسرت على الغرور)**، وكانت الاستعارة **(تصريحية)**؛ لأنَّ الشاعر ذكر لفظ المشبه به، ولم يذكر المشبه، وكتب الشاعر تجربته، وأفاد منها التوحيدي؛ ليحقق قصدية مباشرة عن هذه التجربة التي ألَّم بها، نتيجة عدم تمييز الصديق بين الأصدقاء الحقيقيين.

إنَّ "حقل الأفكار والتصورات و... بؤرة التفاعل ونجاح التأويل هو الكفيل بتشييد البُعد الاستعاري وتماسك لحمة ومعناه ومبتغى مؤداه"[٢]، وبهذا تكون استعارة الغرور سبيل استعمله الشاعر لتبيان شدة الحدث الذي ترجمه عن طريق اللغة.

إنَّ استعمال الشاعر للثنائية الضدية داخل النص في قوله**(عدوك، وصديقك)**، وللجناس في قوله **(سراب، وشراب)**؛ بغية تأكيد سير هذا الصديق على طريق **(الغرور)**، وهو الرسالة التي أراد تقديمها التوحيدي في هذا النص.

إنَّ الاستعارة تهدف للكشف عن المعنى الباطني أو معنى المعنى، وبهذا تكون تختلف إمكانية الشعراء في تصوير الأحداث؛ وهي التي تؤكد قدرة الشاعر وتمكنه من التصوير[٣]. وكذلك يقول الشاعر **{الوافر}**

"تنَازَعنا الوِدادَ وَكنتُ أجْري إذا بَلَغَ المَدى جَري السَبُوقِ

فَحازَ السَبقُ إسْحاق بنَ سَعد وَخَلفَنِي بقَارعةِ الطَّرِيقِ"[٤].

---

١) الصداقة والصديق: ٣٠٠.

(٢) في اللغة والتأويل: ١٨٦.

(٣) ينظر: قراءة في النقد القديم: ٢١٤.

(٤) الصداقة والصديق: ٣١٥.

وردت الاستعارة في قوله **(تنازعنا الوداد)**، وهي استعارة**(تصريحية)**؛ لذكر المشبه به**(الوداد)**، وترك ذكر **(المشبه)**، فـ"الاستعارة على لطفها وغرابتها إنَّما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ونجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها"[١]، فضلاً عن ذلك أنَّ حققه الشاعر في خلق صورة استعارية تجعل نظر المتلقي حاضراً بين المتكلم والمخاطب ومقام الكلام داخل النص، وهذا ما يكشف عن قدرة الشاعر وسعة مخيلته الشعرية[٢].

استعمل الشاعر لفظ **(السبوق)** الذي يطلق على الطير السريع، وكذلك يطلق على نوع من الخيل؛ بغية بيان الفارق بينه وبين **(بن إسحاق)**؛ كون **(السبوق)** على زنة فعول وهي صيغة مبالغة. ويذهب "شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني يذهب إلى أنَّ الاستعارة لا تكون إلا في السياقات التي يتحقق من خلالها المبالغة في التشبيه"[٣].

وكذلك يقول الشاعر **{السريع}**

"دَعْنِي مِنَ الْمَرْءِ وَأَعْرَاقِهِ ... وَمَالِهِ الْجَمّ وَأَوْرَاقِهِ

فَمَا الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى غَيْرُ مَنْ ... يَسْتَعْبِدُ النَّاسَ بِأَخْلاَقِهِ

أَخُوكَ مَنْ إِنْ خِفْتَ مِنْ حَادِثٍ ... حَلَلْتَ مِنْهُ بَيْنَ آمَاقِهِ

لَيْسَ بِغَدَّارٍ وَلاَ خَائِنٍ ... وَلاَ كَذُوبِ الْوَعْدِ مَذَّاقِهِ

وَلاَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْ وُدِّهِ ... وَالْفِعْلُ لاَ يَأْتِي بِمِصْدَاقِهِ

طَوْعُكَ مَا دَامَتْ لَهُ سُوقَةٌ ... حَتَّى إذا ارْتَابَ بِأَسْوَاقِهِ

---

(١) دلائل الاعجاز: ١٣١.

(٢) ينظر: الاستعارات والشعر العربي الحديث: ١٤٩.

(٣) بحث في نوع الاستعارة البلاغي: ٣٤٧.

وَأَبْصَرَ الشَّرَّ بَدَا مُقْبِلاً شَمَّرَ لِلْمَكْرُوهِ عَنْ سَاقِهِ

يَذُمُّ عِنْدَ النَّاسِ إِخْوَانَهُ وَيَمْدَحُ الـــــذَّمَّ بِإِشْفَاقِهِ

يا لَيْتَهُ أَعْفَاكَ مِنْ لَسْعَةٍ وَمِـــــنْ أَيَادِيهِ وَأَرْفَاقِهِ

لاَ خَيْرُهُ قَامَ بِهِ شَرُّهُ وَلاَ أَفَاعِـــــيهِ بِدِرْيَاقِهِ"[1].

وردت الاستعارة في قوله **(وَأَبْصَرَ الشَّرَّ بَدَا مُقْبِلا)** وهي استعارة **(تصريحية)**، إذ ذكر لفظ المشبه به، وأهمل المشبه.

في النص وعي كبير من قبل الشاعر وهو ما أفاد منه التوحيدي في توجيه رسالته في اختيار الصديق، فالتوحيدي لا يهتم لعرق صديقه ولا ما شابه ذلك بل يحتاج صديق خالٍ من **(الغدر، والخيانة، والكذب)**، وهي صفات حميدة تحقق رُقي اجتماعي وعلاقات متواشجة.

إنَّ التوظيف الاستعاري وما يحقق من أداء داخل النص، بوصفه عاملاً مُثيراً للغة في ضوء التعبير الأدبي، ومنساباً في ثنايا النص، لتكون بوحاً تاماً عن الموقف الذي هو بصدده[2]، وبهذا تكون الاستعارة داخل النص" عملية ضرورية على مستوى التفكير والإبداع"[3].

تجسد دلالة النص رسالةً اجتماعيةً واعية؛ كونها ترفض الصديق السيء، وترحب بالصديق الحسن حتى وإن لم يكن من نفس العرق وغيره، وهنا أفاد التوحيدي في تقديم نصٍ تحقق فيه حقيقة المواطنة.

أما الاستعارة فقد تدفقت في النص لتمنحه لمحة أخلاقية تربوية، وهذا عن طريق إنحراف اللغة وتحولها من التوثيق إلى الإمتاع، وهذا البناء

---

(١) الصداقة والصديق: ١٣٠-١٣١.

(٢) ينظر: الاستعارة في النقد الأدبي الحديث: ١١.

(٣) الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي: ٢٩.

الفني لم يكن مجرد علاقات تواصلية، بل هي فاعلية ذهنية تثير انفعالات نفسية لدى المتلقي[١].

خلاصة القول إنَّ الأداء الاستعاري للنصوص التي أفاد منها التوحيدي، كانت ذات طابعي إنساني اجتماعي هادف لبناء علاقات إنسانية، عن طريق خلق صورة فنية تزيد الإمتاع وتقرب الفكرة للمتلقي.

ثالثاً الكناية:

تمثل الكناية ثالث فنون البيان تحقيقاً للصورة الشعرية، ولهذا عنى به البلاغيون كثيراً، لدورها المهم في تحقيق الرؤية الجمالية داخل النص الأدبي، ممَّا يجعل المتلقي عارف بخبايا النص، وسأوضح ماهية الكناية وعلى النحو الآتي:

الكناية في اللغة: وردت الكناية في معاجم اللغة، ومنها ما ذكره الخليل **(ت:١٧٥هـ)**، إذ قال" كنى فلان عن الكلمة المستفحشة يكني إذا تكلم بغيرها مما يستدل به عليها نحو الجماع والرفث والغائط ونحوه"[٢]، وقال ابن منظور" والكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وكنى عن الأمر بغيره، يكني كناية، يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه، نحو الرفث والغائط وحوهما"[٣].

الكناية في الاصطلاح: تحدث أبو عبيدة**(٢١٠هـ)** عن الكناية في كتابه مجاز القرآن قائلاً:" ومن مجاز ما جاء الكنايات في مواضع الأسماء بدلاً منهن"[٤]، وجاء الجاحظ ليؤكد أنَّ الكناية تحضر حينما يتعذر

---

(١) ينظر: السيميائية والتأويل مقاربة لسيميائية الاستعارة: ٦٧.

(٢) كتاب العين: ٤١١/٥.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ٢٣٣.

(٤) مجاز القرآن: ١٩.

التصريح[١]، ووضع الجرجاني تعريفاً لها بأنها **ما** " يُريد المتكلمُ إثباتَ معنًى من المَعاني، فلا يذكُرُه باللّفظِ الموضوعِ له في اللُّغة، ولكنْ يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ ورِدْفُه في الوجود، فيومئ به إليهِ ،ويجعلهُ دليلاً عليه، مثال ذلك قولُهم :هو طَويلُ النَّجاد، يريدونَ طويلَ القامة وكثيرُ رمادِ القِدْر يَعْنون كثيرَ القِرى"[٢] وعرَّفها السكاكي قائلاً :"هو ترك التصريح بترك الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك"[٣]، أما ابن الأثير **(٦٣٠هـ)** فقد تناول الكناية في أكثر من تعريف ومنها ما قال عنها "أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"[٤]، وعند المعاصرين لم تختلف عن القدماء" فهي ترك التصريح بالشيء إلى مُساويه في اللزوم؛ لينتقل منه إلى الملزوم، وهذا عام في جميع الأعمال المجازية، فإنها متفقة في ترك التصريح بحقائقها الموضوعة من أجلها، واحترز عن الاستعارة بقوله إلى مساويه في اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم، لأن الانتقال في الكناية هو عن لفظ إلى ما يساويه في مقصود دلالته، بخلاف الاستعارة فإن الانتقال فيها ليس إلى المساوي في الدلالة، بل إلى المشارك في بعض المعاني"[٥].

يمكن القول تقارب المفهوم اللغوي والاصطلاحي للكناية، وحتى بمجيء البلاغيين الجدد لم يحدث تغييراً على صعيد المفهوم، سوى أسلوب التعبير، وساتحدث عن الكناية في كتاب الصداقة والصديق وهي على وفق ما يأتي

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: ١/ ٢٦٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ٦٦.

(٣) مفتاح العلوم: ١٦٩-١٧٠.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٥١.

(٥) ينظر: علم البيان دراسة تحليلية لمسائل: ٣٤٣.

- كناية عن موصوف: ومنها قول الشاعر **{الكامل}**

"لمْ يَبقْ فِيْ النَاسِ حُر وَلا صَدِيق يَسْر

وَكُل مِنْ تَرتَضِيهِ عِنْدَ المَذاقةِ مَر"[1].

وردت الكناية في قول الشاعر **(عند المذاقة مر)**، وهي كناية عن اليأس من الناس نتيجة كثرة تجاربه من دون الوقوف على صداقة حقيقية، وهنا أفاد التوحيدي من تجربة الشاعر لينقل عن طريقها رسالة عن الصداقة الحقيقية القائمة على أسس، وعلى الرغم من وضوح المعاني إلا أنَّ مضمون الكناية حقق قصدية مباشرة في ذهن المتلقي وهو هدف التوحيدي حينما اختار النص.

إنَّ طبيعة التجربة وشدة الموقف جعلت من الكناية "مجموع العوامل التي تجعل نصاً ذا ارتباط وثيق بالموقف الإتصالي؛ ولذلك لا يوجد نص من دون ارتباط بالموقف؛ لأن معنى النص واستعماله واستقباله تتحدد كلها من خلال الموقف"[2]، فالموقف هو من جعل التوحيدي يختار النص؛ ليبث تجربةً اجتماعيةً عن طريقه، وتكون الكناية نقطة التواصل الصوري، أي أنَّ الكناية لم تكن بمعزلٍ عن المتلقي الذي يولَّد قبول النص عنده إحياءً للكناية؛ لما حققته من تأثير في مخيلته.

وكذلك قول الشاعر محمد بن خالد العَبْقَسيّ **{الوافر}**

"وكنتُ جليسَ قعقاعِ بن شَوْرٍ[3] **ولا يَشقى بقعقاعٍ جَليسُ**

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) النحو وبناء الشعر في ضوء معايير النصية (شعر الجواهري نموذجاً): ٤٠.

(٣) قَعْقَاع بن شَوْر: هو ممن جرى مَجْرى كعب بن مامة في حسن المُجَاورة فضرب به المثل وكان إذا جاوره رجلُ أو جالسه فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله وأعانه على عدوه وشَفَع له في حاجته وغدا إليه بعد ذلك شاكراً له. مجمع الأمثال: ٢/٢٤١.

ضحوكُ السّنِّ إن نطقوا بخير عند الشّرِّ مِطراقٌ عَبوسُ"[١].

وردت الكناية في النص في قوله**(ضحوكُ السّنِّ)**، وهي كناية كثرة الضحك، وأكد هذا التصوير بلفظ **(ضحوك)** وهي صيغة مبالغة على زنة **(فعول)**، وهي قيمة لغوية عند الشاعر وظفها؛ بغية تكثيف الحدث لفظياً؛ لتكون إسناداً للصورة الشعرية التي بنتها الكناية عن طريق إنزياح اللغة.

تعد الكناية" كتلة لغوية متعددة الأشكال متعددة الغايات لها نظام يجمع الأنساق المتعددة ويوحدها في سياق محدد، فيصبح لها هوية مجردة مفتوحة على احتمال التأويل من تعددية المقروء وتعددية القارئ"[٢]، وبهذا كان الموصوف أكثر أجزاء النص وضوحاً عند المتلقي.

فالصورة الشعرية هي" طاقات إبداعية تصل بين الشاعر والمتلقي بحيث تستطيع التأثير في المتلقي بشكل مباشر يضاف إلى ذلك قابليتها المستمرة لإعادة التشكيل والصياغة"[٣]، فضلاً عن ذلك أنَّ "اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصودة، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ، عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني"[٤]، وبهذا تكون الصورة الشعرية التي بنتها اللغة مع الخيال وغيره مساراً جمالياً يتجاوز المألوف إلى الإبداع.

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٩٩.

(٢) علم التناص والتلاص: ٤٥.

(٣) التناص بين النظرية والتطبيق: ١٠٠.

(٤) مقدمة ابن خلدون: ٣٥٢.

- كناية عن صفة: ومنه قول الشاعر أبو دلامة(١٦١هـ)**{الطويل}**

"إنِ النَّاسُ غَطّوني تَغَطَّيتُ عَنهُم وَإن بَحَثوا عَنّي فَفِيهم مَـبَاحِثُ

وإن حَفَروا بِئرِي حَفَرتُ بِئَارَهُم لِيُعلَمَ يَوماً كَيفَ تِلكَ النَّبَائِثُ"(١).

وردت الكناية في قوله **(وإن حَفَروا بِئرِي حَفَرتُ بِئَارَهُم)** وهي كناية عن المعاملة بالمثل فالشاعر ينقل تجربته التي ربطها بأصدقائه، وقد يكون توجه الشاعر لهذا التعامل؛ بسبب موقف أو غيره.

إنَّ التوحيدي قصد من اختياره النص؛ لما فيه من" الإبداع والتجديد والابتكار. وما نسميه اليوم تقدما، في هذه التخصصات، ليس سوى ما تفيده اللغة بخصوص أشياء لم تقل، لحد الآن، أو تمَّ نسيانها: حدث مضى أو توليف وقائع مجهولة أو تعبير أصيل عن شعور أو انفعال أو توليف تصوري"(٢)

إنَّ فاعلية الكناية في ذهن المتلقي تكون أكثر إلتصاقاً لتناغمها مع العقل؛ لقرب التجربة من جهة، ولانصياعها للغة فهي لا تحتاج كداً ذهنياً لبنائها كما في غيره من أدوات الصورة الشعرية

ممَّا تقدم نلحظ أنَّ النصوص التي اختارها التوحيدي حققت للمتلقي تقريباً وإيجازاً عن تجاربٍ مرَّت بالتوحيدي أو سمع بها عن طريق البنى الصورية من حيث التشبيه والاستعارة والكناية، فثقافة الفرد العربي آنذاك وطبيعة البيئة جعلت التوحيدي يرتكن إلى أدوات الإبداع الأدبي، فنقل الحادثة أو الموقف إلى الشعر يتطلب وعياً لغوياً وخيالاً خلاقاً، فختار التوحيدي التشبيه بأقرب الأدوات وهي**(الكاف، وكأنَّ)**، واختار الاستعارة التصريحية أكثر من غيرها، بوصفها تصرحَ بكل شيء.

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٩٩.

(٢) التخييل والفلسفة والتاريخ: ٣٣.

الفصل الثاني

(الاجناس النثرية المحدثة في كتاب الصداقة والصديق)

المبحث الأول: الخبر

المبحث الثاني: الرسائل

المبحث الثالث: الحكايات والحكم والوصايا

توطئة:

إنَّ التراث النثري يحتاج إلى بحث وتنقيب في الكتب، بوصفه تراثاً غنياً وخصباً برؤاه وما فيه من إبداع، ولهذا يحتاج الباحث إلى تأمل وتَمكُن ليستطيع الوصول إلى مُبتغاه، وحمل كتاب الصداقة والصديق في طياته أجناساً نثريةً تنوعت بين الخبر والرسائل، فضلاً عن الحِكم والحكايات والوصايا، ولقد تلمس التوحيدي فيها أوجاعه التي نقلتها نصوص هذه الأجناس، ومن الجدير بالذكر أنّه كثَّف بالاستشهاد في الخبر والرسائل بقسميها الإخوانية والديوانية، إلا أنه كان أكثر ميلاً للرسائل الإخوانية، إلا أنَّ التوحيدي ترجم هذه النصوص النثرية عن طريق تسريده للتاريخ، فهو ينقل لنا حدثاً تاريخياً حاملاً لقيم أدبية جمالية تفرد للمتلقي باباً للوقف عندها وتلمس أفكارها ورؤيتها.

وأخذ التوحيدي في كتابهِ إبراز شخصيتين وهما **(الذاتية والموضوعية)** والمتجلي أن رسالة الصداقة والصديق تعكس هاتين الشخصيتين، واستشهد بنصوص تنوع قائليها[١].

فالصداقة لا تخرج عن علاقة إنسانية تجمع طرفين اشتركا بصفات عامة وملامح نفسية، وتواشج هذه العلاقة يحقق باعثاً اجتماعياً؛ كونه يجد بالصداقة بوابة كبرى للمحبة والتواد[٢].

وممَّا تقدم ساتحدث عن الأجناس النثرية التي شكلت حضوراً لافتاً في الكتاب وهي على وفق الآتي:

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ١٢-١٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٤-١٥.

المبحث الأول

الخبر

شهدت حقول الدراسات الأدبية في النصف الثاني من القرن العشرين تطوراً ملحوظاً؛ نتيجةً لتطور البحث وطرائقه وموضوعاته وغاياته، ووافق هذا التطور دخول أجناس أدبية جديدة، وصارت تتداخل بعضها البعض؛ لتأخذ حيزاً جديداً غير الحيز الذي كانت عليه؛ ولهذا ظهرت أنواع جديدة من المعارف وانغمرت أخرى، وصار لها حدود ومصطلحات يتكئ الباحث عليها للوقوف على مضامينها وتلمسها[١]، وقبل دراسة الخبر والتفصيل فيه لا بدَّ أن نعرِّف الخبر في اللغة والاصطلاح وعلى وفق مايأتي:

الخبر في اللغة:

بيَّن ابن منظور الخبر قائلاً: " والخبر بالتحريك: وأحد الأخبار والخبر: ما أتاك من نبا عما تستخبر... والجمع إخبار وأخابير جمع الجمع"[٢]، وقيل أن الخبر هو النبأ، واخبره أي نبأه"[٣].

الخبر في الاصطلاح:

هو " شكل أساسي من إشكال السرد العربي القديم وربما أطلق عليه اسم الحديث الذي ارتبط معناه بما روي عن الرسول **(صلى الله عليه واله وسلم)** من أقوال ويشترك الخبر مع الحديث النبوي في قيام كل منهما على **(سند ومتن)** غير وظيفة السند في الحديث النبوي هي تحقيق الحديث أي برهنته على أنه حقيقة قد صدرت عن الرسول**(صلى الله عليه واله وسلم)** فعلاً، أما الخبر الأدبي فيكون الإسناد فيه وسيلة المشاكلة، إي إيهام المتلقي

---

(١) ينظر: الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية : ٢٣-٣٥.

(٢) لسان العرب : ١٠/٤.

(٣) ينظر: القاموس المحيط: ٣٨٢/١.

بين الخبر الممكن للوقوع إن كان مداره على الأحداث وممكن القول إن كان مداره على الأحداث"[١]، وقيل إن الخبر الأدبي" نوع من أنواع السرد الأصلية إلى جانب الحكاية والقصة والسيرة، وهو وحده سردية بسيطة مستقلة بذاتها يتقدم الحدث فيها على الشخصية، ويكون أقل تمركزاً في الزمن والفضاء ويخرج بأساليب موجزة، والملاحظ أن الخبر الأدبي يقوم على البنيات السردية الأساسية الواجب توفرها على خطاب سردي أصلي كان أو فرعي"[٢]، فضلاً عمَّا عُرف بأنه" أصغر وحدة حكائية والحكاية تراكم مجموعة من القصص ويتم التمييز بين الخبر والحكاية من جهة والقصة والسيرة من جهة أخرى على أساس تركيز الأولين على الأحداث وتركيز الآخرين على الشخصيات"[٣]، وعلى الرغم من أن**(لفظ الخبر)** ولفظ **(التاريخ)** كان قبل الإسلام متوازيان أو مترادفان ألا أن التطور الحاصل أخذ بالخبر؛ لأنه يتجاوز النقل الواقعي للأحداث بصورة مباشرة، كما في أحداث الخبرية التاريخية، ومن هنا سعى الدكتور شكري محمد عياد إلى تلمس الخبر والوقوف على حدوده ومفاصله وضوابطه حتى قال الخبر" استقل عن التاريخ واكتسب قيمةً أدبيةً خالصة عندما عرفت الحضارة العربية طبقة متوسطة من التجار والكُتاب وأصحاب الحرف واهتمت بالسمات الفردية للبشر"[٤]، وينقل الدكتور رائد حامد في حديثه عن التاريخ والخبر قائلاً" إنَّ كان بينهما تعالق كونهما يستثمران الماضي مادة لاستمرارهما إلا أن الأخبار قد أخذت تدب فيها عرى الاستقلال بعد إن حدث تطور في بنيته الداخلية؛ ليكون بداية تكوين**(الخبر السردي)** الشكل البدائي للسرد الحديث وهو تغيير أدى إلى تحول في نوع العلاقة فبعد أن كان التاريخ جنساً والخبر نوعاً منه

---

(١) معجم السرديات: ١٧٠.

(٢) الحجاج في الخبر الأدبي الأندلسي حجاجيه التخييل وتخييل الحجاج : ١٧.

(٣) الخبر والحكاية التشكيل الدلالي في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان: ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) فن الخبر في تراثنا القصصي: ١٤.

أخذ منه داخل رحم الخبر التاريخي نوع أخر من نسخ الخبرية بين أن يغايره في الخصائص **(خبر الأدبي)** وهذا الجنين أخذ في الابتعاد عن التاريخ لينتمي إلى حقل أخر غير التاريخ الا وهو الأدب"[١].

إنَّ خطاب الخبر بسمته الرئيسة يتمثل بأسلوب تمثيلي وهذه الطريقة تجعل الراوي ذا حرية أكبر في تدخل تحت ستار الحياد، وحينما كان الراوي يعمل على التخفي فإن الخطاب السردي في الإخبار يتسم عادةً بالاقتصادي والاقتصار على ما هو نافع وضروري لإيقاع التأثير في القارئ والمتلقي[٢]، وهذا التأثير في المتلقي لم يكن حديثَ العهدِ فقد كان الخبر هو الشكل الرئيس والأساس من إشكال القَص عند العرب، فقد دخل مختلف دروب التأليف وأظهرت فيه إرهاصات جناسية على نحو ما تجلى في أيام العرب وفي قصص العشاق وحين احتل الخبر من الإبداع الأدبي العربي في القرن الرابع للهجرة محلاً رفيعاً خرج من أحنائه جنس قائم بذاته وهو المقامة التي حافظت على بنية الخبر؛ لكنها عملت على ترسيخ ثوابت فيه جديدة على مستوى الشكل والمضمون، ممَّا بوئها لاحتلال موقع مهم داخل منظومة السرد العربي قروناً متطاولةً[٣]، والخبر هو من فنون القول التي ذاع صيتها في الساحة العربية القديمة والحديثة، وشكلت حضوراً بارزاً في الأدب العربي القديم فلا تخلو واقعةٌ أو موقف من وجود خبرٍ ينقل ما جرى من أحداث[٤]، وبهذا يكون الخبر هو إنموذج للخطابات التي تجمع بين الوظيفة السردية التخيلية والوظيفة الحجاجية الإقناعية[٥]، ومن هنا كان الخبر جنساً أدبياً

---

(١) بنيه السرد في كتب إخبار النساء والجواري للقرن العاشر الهجري: ٩.

(٢) ينظر: معجم السرديات: ١٧١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٧١ – ١٧٣.

(٤) ينظر: الخبر في الأدب العربي: ٣٣٥.

(٥) ينظر: بلاغة الخبر تقاطع التخيلي وتداولي في أخبار الإمتاع والمؤانسة: ١٨١.

سردياً حكائياً له موقعه ضمن منظومة الخطاب التراثي، فضلاً عن الخبر الذي تجاوز وضعيته السابقة بأن يكون بنية سردية بسيطة.

إن أسلوب الخبر هو العنصر الذي ينماز بالتنوع كما يصفه سعيد جبار، وهذا التنوع مرهون في الوقت ذاته بعوامل موضوعية وذاتية، فالذاتية ترتبط بالكاتب وما تعرض له من مؤثرات ميزت رؤيته ومنهجه في الحياة و أسلوبه في الكتابة، إما الموضوعية فتتمثل فيما تعرفه الأساليب من تغيرات وتحولاته نتيجة التحولات الاجتماعية والتاريخية والثقافية فكل عصر يتطلب أسلوبه الخاص للتواصل مع عدد اكبر من جمهوري الكتاب والقراء[١]، وللوقوف على الخبر في كتاب الصداقة والصديق سأقسمه على النحو الآتي:

أولاً: الخبر التاريخي: ويمكن حده بأنه " الخبر الذي تناول أحداث الماضيين وأفعالهم وأحوالهم وآثره على أوضاعهم وحياتهم وما يتناقل الرواة ويتحدث به اللاحقون عن السابقين أو من شاهد الخبر وما سمعوه"[٢]، وعلى وفق هذا المفهوم يكون الخبر التاريخي عبارة عن معلومة تاريخية تجسد واقعةً معينةً، وفيها يتداخل السرد مع الواقع التاريخي ويبدأ دور الأديب بنقله إلى خطاب موجه ذي قيمة أدبية من خلال إدخال العناصر الفنية داخل العمل السردي، وهنا يدخل الخبر التاريخي بوظيفة يصح أن نطلق عليها الوظيفة التوثيقية وهي تختلف عن الوظيفة الأدبية من حيث الطرح، فالخبر التاريخي هو يوثق لحدث تاريخي مرَّ عليه وتكون الوظيفة الأدبية فيه هو تحقيق المتعة أو التشويق للمتلقي، ويكون هذا عن طريق أسلوب ناقل الخبر، ومن خلاله يتم الوقوف على وعي الكاتب وإبداعه وهنا تحقق الذاكرة دوراً مهماً في نقله بوصفها المركزَ الذي نستدعي منه الخبر الذي حصل

---

(١) ينظر: الخبر في السرد العربي الثوابت والمتغيرات : ٢٨٥.

(٢) السرد العربي القديم الأنواع الوظائف والبنيات: ٥٢.

قبل زمن الحكي[1]، وهذا النوع السردي تكون فيه الذاكرة حاضرة لاستدعاء الأحداث الماضية وتوظيفها توظيفاً إمتاعياً؛ لينتج لنا نصاً أدبياً، فالذاكرة هي الطريق المعبد لاستدعاء الأحداث التي مرت على ذاكرة الأديب الذي ينقل الخبر؛ كون" حقائق السرد ليست حقائق التاريخ فالمؤرخ قد يحذف أو يعدل أو يتراجع عن حكم ما إذا تبين له أنَّ هناك وثائق أو شهادات جديدة تثبت عكس ما سبقت دونه أمام العوالم التي يبينها السرد فلا أحد يستطيع التنكر لها أو التشكيك فيها؛ لأنها تُوجد الزمن الواقعي خارج منطقته وقوانينه"[2]، وعلى هذا النحو حضر الخبر التاريخي في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ومنه يقول "وحكى العلماء أن رجلاً كتب على باب داره: جزى الله من لم نعرفه ولم يعرفنا خيراً فإننا ما أتينا في نكبتنا هذه إلا من المعارف، وقد قال الآخر:**{الوافر}**

"كَفَاني اللهُ شَرك يا ابن عَمي فأما الخَير مِنْك فَقد كفَاني

نَظَرتُ فلمْ أجدْ أشْفى لغَيْظِي مَنْ أنـيْ لا أرَاكَ وَلا تَرانِي

ولقد قلت لابن أبي كانون: لم لا تخالط أصحاب ابن الرازي فأنشد:

إنَّ السلامةَ مَن سَلمى وَجَارتِها أنْ لا تَمُر بِوادِيها على حالِ "[3].

وثَّق أبو حيان التوحيدي هذه الفكرة؛ بغية بث تجربة مرَّت عليه من خلال هذا الخبر التاريخي وبين هذا الخبر شده الوجع الذي أصاب صاحب الحادثة لما جرى عليه من الأقارب والأصدقاء، وهذا ما دفع أبو حيان التوحيدي إلى توظيفه في كتابه الصداقة والصديق؛ ليكون متمماً لتجاربه السابقة، ولقد أفرز هذا الخبر قيمةً إبلاغيةً غايتها التنبيه والتذكير من جانب

---

(١) ينظر: الذاكرة والنسيان: ٣٨- ٤٠.

(٢) السرد الروائي وتجربة المعنى: ٢١٨.

(٣) الصداقة والصديق: ٥٥-٥٦.

إلا أنه قد يتنافى وطبيعة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفكر أهل البيت(**عليهم السلام**) في مد صلة الرحم وعدم قطعها وحمل الشخص على سبعين محمل.

إنَّ طبيعة الحدث التاريخي كان دليلاً على وجود وقائع جرت على وفق هذا النوع السردي، وهو جزء من أحداث قد تكون جرت في سياقات شعبية وحقق التاريخ في ضمنها وعياً وصلنا عن طريق منجز أبي حيان التوحيدي يكون رسالةً معبرةً عن تجربةٍ حقيقيةٍ وكانت أدلة على أزمنة تشكلها[١]، وبهذا قدّم التوحيدي خبراً تاريخياً بملامح فنية وأدبية حملت في طياتها قوة اللفظ وعمق المعنى المؤثر في المتلقي، ويتأكد لنا الأمر في ما طرحه الدكتور شكري محمد عياد بأنَّ الخبر على الرغم من تاريخيته إلا أنَّه اكتسب قيمةً أدبيةً جعلته تتحقق فيه مضامين إمتاعية[٢]، وكذلك ينقل لنا التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق خبراً تاريخاً، إذ قال "**أخبرني المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا المبرد، حدثنا أبو عمر قال الأصمعي: دخلت على الخليل وهو جالس على حصير صغير فقال: تعال واجلس، فقلت: أضيق عليك، فقال: مه فإن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين، وإن شبرا في شبر يسع متحابين!. قال بعض السلف: ضربة الناصح خير لك من تحية الشانئ، ولا فضل للمرائي(بالود) على مظهر الشنآن**[٣].

وظف التوحيدي خبراً تاريخياً يتناقله ثلة من سدنة العربية ألا وهم المبرد، والصولي(**٣٣٦هـ**)، والمرزباني(**٣٨٤هـ**) وأوجز القول في هذا الخبر إلى نتيجة مفادها أن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين على العكس من شبرٍ يسع متحابين، وهو توظيف قد تكون الصراعات الداخلية بين الأسر

---

(١) ينظر: موسوعة السرد العربي: ١٧٣.

(٢) ينظر: فن الخبر في تراثنا القصصي: ١٤.

(٣) الصداقة والصديق: ١٠٤-١٠٥.

والأصدقاء سبباً في توظيفه وغايته أن المتباغضين لا يتفقان حتى وأن أتيحت لهم فرص الدنيا وما فيها للتقارب بخلاف المتحابين وهو توجيه اجتماعي ذو قيمة إنسانية تسعى إلى تنبيه المتباغضين وتشد على يد المتحابين، فالوعي التاريخي الذي بثه هذا الخبر جاء بنسيج منتظم يحقق الإمتاع عن طريق الأسلوب الذي جاء به الخبر وما حققه من تناغم ثقافي مع الأحداث التي واكبت تلك المرحلة، فضلاً عن ذلك فهو طريق أفاد منه التوحيدي بتقريب وجهات نظره ورسائله في هذا الكتاب إلى المتلقي[١]، إذ حقق الخبر التاريخي وظيفةً توثيقيةً وإبلاغية، وغاية التوثيقية إيصال الخبر إلينا والإبلاغية ما حملته من قيمة تعريفية بالحدث والشخصيات، وتؤكد في توثيقها للواقع[٢]، وأيضاً ورد خبر تاريخي مفاده أنه" **أخبرنا أبو السائب القاضي عتبة بن عبد الله، حدثنا الحسن بن عروة، حدثنا محمد بن عبد الله القرشي، حدثنا محمد بن عبد الله الأشكري عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنهما قال: أوصاني أبي قال: يابني لا تصحب فاسقاً فإنه بائعك بأكلة فما دونها، قلت: وما هو دونها ؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا تصحب بخيلاً فإنه يقطع بك في مالك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب كذاباً فإنه بمنزلة السراب يُقرب منك البعيد، ويُبعد منك القريب، ولا تَصْحَب أحمق فإنه يُريد أن ينفعك فيضرك، ولا تصحب قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب الله: في سورة البقرة، وسورة الرعد، وسورة الذين كفروا**"[٣].

حقق الخبر التاريخي الذي أورده التوحيدي خمسة مضامين نُقلت عن الإمام محمد الباقر عن أبيه الإمام علي بن الحسين **(عليهما السلام)**

---

(١) ينظر: المتخيل والمرجع سيروة الخطابات: ٢٣٤ -٢٣٥.

(٢) ينظر: السرد العربي مفاهيم وتجليات: ١٥٦.

(٣) الصداقة والصديق: ٢٥٥

في عدم مصاحبه خمس ذكرهم وبيَّن في هذا الخبر رسالة اجتماعية هادفة ذات طابع تسوده الديمومة لما لهذه الطبقات التي رفضت صحبتها من استمرارية على طول الزمان، وهنا نلحظ أن الخبر شكَّل قيمةً معرفيةً وأخرى إبلاغية للمتلقي، فضلاً عن ذلك جاءت مضامين هذا النص لتوثق خبر تاريخي نقل عن إمام معصوم وبهذا يكون الخبر قد انجز"مهمته في إضاءة الواقعة ومتابعة مختلف تفاصيلها وما يتعلق منها"[١]، وكذلك الخبر في سياقه التخاطبي غرس توجيهاً اجتماعياً بنمط حجاجي مفاده إقناع المتلقي بسوء صحبة هذه الشخصيات، وهنا نلحظ هيمنة لقصدية مباشرة في اختيار التوحيدي لهذا الخبر الذي وجد بشخصياته تعبر عن تجربته، وتحقق رؤية إقناعية للمتلقي[٢].

خلاصة القول أن الخبر التاريخي الذي ورد في كتاب الصداقة والصديق على الرغم من طابعه التوثيقي إلا أنه حقق لنا رسائل اجتماعية أفاد منها التوحيدي في ثنايا كتابه؛ ليعبر بها عن تجربته، فضلاً عن الوضوح الذي ساد الإخبار، وقد يكون لهذا الوضوح غاية عند التوحيدي وهي إيصال تجربته إلى المتلقي.

ثانياً: في الخبر الأدبي: أسلفت بيان مفهومه في بداية المبحث، إلا أنَّ هذا الخبر حقق أمثلة في كتاب الصداقة والصديق وظفها التوحيدي للإفادة منها بنقل تجربته ولقد ورد الخبر الأدبي في قوله:"**أخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي، حدثنا هبة الله بن إبراهيم بن المهدي قال: كتب أبي إلى بعض من عتب إليه في شيء: لو عرفت الحسن لتجنبت القبيح، ولو استحليت الحلم لاستمررت الخرق، وأنا وأنت كما قال زهير:{الطويل}**

---

(١) النثر وأساليب بناء الخبر في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي: ٩١.

(٢) ينظر: الحجاج في الخبر الأدب الأندلسي حجاجية تخيل وتخيل الحجاج: ٢٩.

وذي خطل بالقول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله

عبأت له حلمي وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

إنَّ من إحسان الله إلينا، وإساءتك إلى نفسك أنا أمسكنا عما تعلم، وقلت ما لا تعلم، وتركت الممكن، وتناولت المعجز، فالحمد لله الذي أوضح غدرك، وأبان أمرك، وقبح عند الناس ذكرك"[١].

إنَّ الخبر الذي أورده المرزباني فيه تجنب واستحلاء وكذلك لفظ العتب الوارد في الخبر يؤكد صفه الصداقة؛ كون العتب صفة من صفات المحبة وقد وظف قيمةً بلاغيةً جماليةً حقق فيها تقريباً المعنى المراد إيصاله في قوله **(لو عرفت الحسن لتجنب القبيح)**، وعليه بث التوحيدي تجربةً اجتماعيةً من خلال هذا الخبر الأدبي بصورة يستحسنها العربي؛ كونه ابن اللغة الأصيلة، فضلاً عن ذلك أورد بيت لزهير بن أبي سلمى**(٦٠٩م)** ووضح فيه قيمته وسموه ورفعته عمَّا عمله الآخر به وفي هذا الخبر وضح مثالب الآخر؛ ليقدم فيها التوحيدي قصديةً مباشرةً هدفها إيلام الأشخاص الذين أساءوا له ولرفقته وكان حينها وفياً مخلصاً.

قدَّم لنا التوحيدي في هذا الخبر صورةً مشرقةً زاهية محفوفةً بالإجلال لذاته بمقابله تصوير الآخر بصوره منفردة تجسد فيها أدنى فئات الناس، وهنا يضع كفتين للتمييز بينه وبين الخر[٢].

أخذ الخبر يتقدم بصورة تدريجية، إذ تجسد فيها إمكانية التوحيدي في بثه لخبره وقيمته وإمكانياته العالية، وسعى التوحيدي لجعل القارئ في بداية الخبر يعتقد شيئاً ما ثم وضعه في شيء آخر وهذا التصوير هو كسر

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ٢٥٤.

(٢) ينظر: الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية: ٦٨.

لأفق توقع المتلقي، وبيان لقدرة التوحيدي اللغوية التي تحقق في سرده للخبر، إذ جعل التركيز في بؤرة الخبر عن الحديث القولي لا الفعلي.

ورد الخبر في كتاب الصداقة والصديق، إذ يقول التوحيدي "**وأخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أبو العيناء قال :رأيت علي بن عبيدة يعاتب رجلاً ثم قال في كلامه: العجب أني أعاتبك وأنت من أهل القطيعة**"(١).

قدَّم التوحيدي في ضوء توظيفه لهذا الخبر رسالة اجتماعية مفادها أن العتاب يكون لمن يستحقه، فهو هنا يضع تنبيهاً عن عدم معاتبة أهل القطيعة أبداً، ونقل هذا الخبر بصورة جمالية نتلمس فيها عمق المعنى وسهولة الأسلوب وهذا ما نجده دائما عند التوحيدي ولاسيما حينما يحاول إيصال رسالة موجزة لفئة معينة وهي في أصلها رسالة اجتماعية في تجربة مريرة مرت به، وهذا ما يتأكد كون التوحيدي هو" من الأدباء الذين صدروا عن قدم راسخة في العلوم باختلاف أنواعها وتمكن والماماً كبيرين بأدبيات التأليف وتحصيل شامل ومعرفة واسعة ممتدة الأطراف فيه على مجالات متنوعة "(٢)، فضلاً عمَّا ذكر ياقوت الحموي (**٦٢٦هـ**)، إذ قال" كان متفنن في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة... له ذكاء وفطنة وفصاحة... كثير تحصيل العلوم في كل فن حفظه واسع الدراية والرواية "(٣)، وهذا الطرح عن أبي حيان التوحيدي نتلمسه في هذا الخبر، إذ إنه أوجز القول وقدم لنا صورة موجزة ذات قصدية مباشرة أراد منها العجب من معاتبة أهل القطيعة.

---

(١) الصداقة والصديق: ١٥٤.

(٢) صورة المتكلم في نثر أبي حيان التوحيدي دراسة في التشكيلات والوظائف: ١٢٢.

(٣) معجم الأدباء: ١٩٢٤/٥.

وكذلك نقل التوحيدي" **أخبرنا الطبراني، قال: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: قال بعض الملاح: إن الناس قد مسخوا خنازير، فإذا وجدت كلباً فتمسك به**"[١].

إنَّ ما قدمه التوحيدي في هذا النص يجسده" قمة البؤس الأدبي أو ما سماه هوان غو يتيسلو البؤس الأكبر"[٢]، وهذا الخبر الذي أفاد منه التوحيدي قد يكون ناتج عن التحولات التي طرأت على المجتمع على الأصعدة التاريخية والحضارية والاجتماعية جميعها وغيرها، إذ كان لها أثر بالغ في تغيير كثير من المبادئ والمفاهيم التي كان لها حضور في العصور السابقة في العصر الذي تحدث عنه التوحيدي؛ كونه كان يقدم اتعاضات نتيجة هذه التغييرات التي طرأت على الساحة وهو مناخ لم يعتاده التوحيدي وكان مخالفاً ومتمرداً عليه[٣].

إنَّ خلاصة القول في الخبر الأدبي إنه جاء بأسلوب واضح متسم بقصدية مباشرة، إذ أراد منها التوحيدي إرسال رسالة اجتماعية واضحة تلبي طموحاته بمواجهة من أخذ منه مأخذ وزرع في قلبه نتيجة مواقفهم التي لا تتسم بملامح الصداقة وحقق الخبر قيمةً إبلاغيةً جمالية مباشرة.

ثالثا: الخبر الاجتماعي: لم تدون معجمات النقد الأدبي الحديث والكتب التي تناولت الخبر ولاسيما كتاب الدكتور محمد القاضي تعريفاً أو مفهوما للخبر الاجتماعي ألا أن يمكن القول أنه ذلك الخبر الذي يقدم رسالةً اجتماعيةً وصلت إلينا عن طريق أديب من جذورها التاريخية.

ولقد ورد الخبر الاجتماعي في كتاب الصداقة والصديق كما وظفه التوحيدي، إذ قال "**حدثني أبو حامد العلوي، وكان من الحجاز، سنة**

---

(١) الصداقة والصديق: ٤٩.

(٢) بلاغة الفلسفة مقاربات مفهوميه الإنسان والعالم: ٢٣.

(٣) ينظر: الكلام والخبر مقدمات للسرد العربي: ٩٣.

سبعين وثلاثمائة بمدينة السلام قال :رمى أعرابي من بني هلال عن حيه إلى أطراف الشام فقيل له: من خلفت وراءك؟ قال :خلفت والداً ووالدة، وأختاً، وابن عم، وبنت عم، وعشيقة، وصديقاً، قيل له :فكيف حنينك إليهم؟ قال :أشد حنين، قيل :فصفه لنا؟ قال :أما حنيني إلى والدي فللتعزز به، فإن الوالد عضد وركن يعاذ بهما، ويؤوى إليهما، وأما نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله، وأما شوقي إلى الأخت فللصيانة لها، والتروح إليها، وأما شوقي إلى ابن العم فللمكانفة له والانتصار به، وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم أتمنى أن أشبل عليها بالرقة، أو أصلها ببعض من يكون لها كفؤاً، ويكون لنا إلفاً، وأما صبابتي بالعشيق فذاك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض. وأما الصديق فوجدي به فوق شوقي إلى كل من نعته لك لأني أباثه بما أجل أبي عنه، وأجبأ من أمي فيه، وأطويه عن أختي خجلاً منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفاً من حسد يفقأ ما بيني وبينه، وأكني عن بنت عمي بغيرها لأنها شقيقة ابن العم، ومعها نصف ما معه، وهي من الشجرة التي تلفنا عيصها، وتلتقي علينا أفنانها، ويجمعنا ظلها فأما العشيقة فقصاري معها أن أشوب لها صدقاً بكذب، وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيادة، وتحفة من حديث، وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إلي دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، إذا عززت به ذل لي، وإذا ذللت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عني إلا حافظاً للغيب، ولا يتراءى لي إلا ساتراً للعيب .قيل له :فهل نمى إليك خبره منذ بان عنك أثره؟ قال :نعم، لحقني بعض فتيان الحي أمس فسألته قرابتي وعشيرتي فنعت لي كلاً،

وأطاب أخبارهم، حتى إذا سألته عن الصديق قال :ماله هجيري سواك، إن عبر فباسمك يستقل، وإن تنفس فبذكرك يقطع، وإذا أوى إلى ندوة الحي فبلسانك ينش وجودك يذكر، لا يمر بمعهد لك إلا حياه، ولا بمكان حله معك إلا تبواه، فقلت له :كف قليلاً فقد أججت في صدري ناراً كانت طافئة، وأبديت صبابة كانت خافية، وما أراني منتفعاً بالعيش دون أن أشخص إليه غير مبال بهذه الميرة والغيرة التي خرجت من جراهما.

قال أبو حامد :فضرب والله كبد راحلته إلى حيه، وترك ما كان فيه مستعراً مستقتراً .قلت لأبي حامد :ما أفصح هذا اللفظ، وما أرق هذا الحديث، لكني أنكرت قوله :جواد راكض، قال :أراد ذو ركض، ومثل هذا يندر في كلامهم"[1].

إنَّ الخبر الذي أورده التوحيدي هو بيان واضح لعقد مقارنة بين أطراف الأسرة والصديق، إذ إنه يتحدث عن الوالد والوالدة والأخت وابن العم وحتى العشيقة ثم بيَّن الصديق ولقد أولى الأهل أهميةً واضحةً عن طريق اختياره لصفات تلازمهم **(فالوالد)** لتعزز به، فإنَّ للوالد معزة وركن يستند اليه، والوالدة أهمية في الدعاء وإلى آخره إلا إنه حينما تحدث عن الصديق بدأ يدخل مضماراً آخر في بيانه حتى يقول **(و كل هؤلاء مع شرف موقعهم مني و انتسابهم الي دون الصديق)**، وهنا بدأ التوحيدي ببث صفات يجدها في الصديق وإذا تتبعناها فهي صفات لا يمكن أن تكون إلا بالصديق الصديد الوفي الذي يرعى صاحبه صديقة بغيابه و أمامه حتى إنَّه جعل له صفات كأنَّه العين التي يرى بها والفاء إذا دنى والذل له عز وغيرها من الصفات.

---

(١) الصداقة والصديق: ١٣٩-١٤١.

إنَّ التوحيدي في هذا الخبر قدم رسالةً إبلاغيةً لحقيقة الصفات التي لا بدَّ من توافرها بالصديق؛ ليكون لصديقه صديق حقيقي يستند إليه عند الشدائد، وهذا الخبر قد يكون هو أمنية لم تتحقق عند التوحيدي، فضلاً عن ذلك أن هذا النموذج من الإخبار"لا يلفت انتباه السامع إلى زمن حصوله وإنَّما يحيل على موضوعة عبر نموذج القار في الاستعمال العام والحاضر في كلامهم عند المواقف المتماثلة"[١].

إنَّ التوحيدي يؤسس إلى تقديم مضامين تُبث في ذاكرة الوعي الجمعي؛ ليحقق من خلالها رسالة إلى المجتمع في اختيار الصديق وتوثيق صفاته عند المتلقي، وهنا يمنح الخبر وجوداً حقيقياً للحدث، إذ يمكن للمتلقي الإحساس به والوقوف عنده عن طريق ما يحققه التذكر والتخيل عند قراءة الخبر وهنا يكون تمثل للحدث في حقيقته التاريخية وقيمته الأدبية على الرغم من استغلال كل بنية بخصائصها عن الأخرى"[٢]، والمتتبع لحياة التوحيدي يجد أن هذا الخبر هو بيان للحظة جوهرية مرت عليه دوَّنها بذاكرته واستدعاها عن طريق الذاكرة؛ لتحقق الخبر الذي وجد فيه بياناً لحاله وقد طاوعته لغته على إيصاله إلينا على وجهة فنية حقيقية قائمة[٣]، وكذلك وظف التوحيدي في كتاب الصداقة والصديق خبرا مفاده أن" **أبا عامر النجدي يقول :الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك، ويصدقك أيضاً عنك لتكون على مثله، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة، ولا**

---

(١) المثل والحكاية عند العامة الموضوع والنموذج والوظيفة: ١٤.

(٢) ينظر: الهوية والذاكرة الجمعية اعادة انتاج الادب العربي قبل الاسلام أيام العرب نموذجا: ٦٢.

(٣) ينظر: مواقف الأدب والنقد: ١٦١.

ترحة، إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش، والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش"[١].

وظف التوحيدي هذا النص؛ لأنه قدم لنا صفات للصديق بقيمة جمالية تضادية ناتجة عن وجود ألفاظ مثل **(السراء والضراء، الشدة والرخاء، وفرحه وترحة)**غيرهم، فضلاً عن ذلك "إنَّ هذا التوظيف للقيم الجمالية أدى إلى خلق نصٍ متماسك عن طريق خاصية النطق الذي يتحقق من خلاله الخطاب وعماده التأويل أي الرجوع إلى تأويل الجملة والمفردة المتعلقة بجملة أخرى"[٢]، فاختيار التوحيدي لهذا النص قصد منه تحقيق جذب لنظر المتلقي عن طريق تحقيق التوظيف الجمالي الذي يذكر بصفات الصديق والمنهج الذي لا بدَّ أن يكون عليه؛ ليكون مرجعيةً حقيقية وملاذاً لصداقة عند الضيق.

إنَّ توظيف التضاد داخل النص يخلق تذكيراً وتنبيهاً يكثف الدلالة في تأدية المعنى ممَّا يمنح النص كثافةً فكريةً وذهنيةً عند المتلقي، ممَّا يكون النص واضحاً وخالياً من الغموض[٣].

خلاصة القول إنَّ حقيقة الخبر الاجتماعي في كتاب الصداقة والصديق قدم لنا مواصفات للصديق الذي يروم التوحيدي الحصول عليه، وهذا ما تلمسته حينما تحدث عن الصديق مقابل الأهل؛ وعليه كان الخبر يقدم لنا سمات ووظائف اجتماعية تحقيق أهدافها في نفس المتلقي؛ ليحقق تناغماً بين الأصدقاء عن طريق التعايش والابتعاد عن الصراع القيمي.

رابعاً: الخبر اللغوي: إنَّ سعة الثقافة عند التوحيدي منحته القدرة على التنوع في اختيار الأخبار حتى أنَّه وظف الخبر اللغوي بدقته في سبيل

---

(١) الصداقة والصديق: ١٣٦.

(٢) النص والسياق: ١٧٧.

(٣) ينظر: التضاد في القرآن الكريم: ٢٥-٢٦.

إيصال توجيهاته الاجتماعية، ولقد أفاد من عدد من الألفاظ في هذا الشأن، ويمكن الوقوف على هذا الخبر اللغوي في كتاب الصداقة والصديق ومنه ما نقله التوحيدي" **أخبرنا ابن مقسم النحوي قال: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمر بن شبة، حدثنا الأصمعي، قال: وقف أعرابي يسأل فقال: أخ في تلاد الله وجار في بلاد الله، وطالب خير من فضل الله، فهل من أخ يواسي في ذات الله؟ قال ابن السراج: التلاد: المال الذي لم يكتسب، سمعته من علي بن عيسى عنه**"(١).

وظف التوحيدي هذا الخبر في كتابه ليبين قيمةَ ما قدمه التساؤل الذي طرحة الأعرابي عن الأخ في التلاد والجار والبلاد، وهنا أراد أن يبين رسالة في اختيار الصديق على أن يكون الصديق لصديقه أخاً في مال الله وجاراً في بلاده و طالب خير من فضله، وكذلك الصفات التي قدمها التوحيدي في هذا الخبر هي تتصف بتقارب لفظي مما تمنح النص دلالة صوتية تثير انتباه المتلقي في النص في قوله **(تلاد وبلاد)** هما لفظين متقاربين في النطق مختلفين في المعنى.

إنَّ المُلاحظ على الخبر هو تتابع وتطور لأحداثه ونموها على وفق الحاجة التي أراد بيانها الإعرابي، وقد أفاد من هذا التوظيف تحقيق دلالة صوتية متقاربة تقوم على الترجيع والإرتداد الصوتي داخل النص؛ كونه هو منطقة الرصد والتحول داخل هذه البنية(٢)، تحقق وجود النص في ذهن المتلقي عن طريق الـ" قيم اللفظية الجمالية التي تسجل حضورها في أذهاننا كالأرقام وواسطتها الأذان، وكما تستجيب حواس الإنسان الأخرى لمؤثراتها تستجيب الأذان للصوت الحسن وتنبئ عن قبيح"(٣).

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٥٧.

(٢) ينظر: السجع العربي بين النسقية النوعية والنظرية البلاغية: ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٧.

وخلاصة القول إن الخبر اللغوي سجل وفوداً ضئيلاً إلا أنه حقق تأثيراً عن طريق توظيفه للقيم الصوتية داخل النص، ممَّا حقق تأثيراً في المتلقي على الصعيد النفسي لما تحققه الدلالات الصوتية داخل البنى الأدبية من تأثير.

ونخلص ممَّا تقدم أنَّ الخبر في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي إتخذ أنواعاً متعددةً من الأخبار؛ ليقدم من خلالها ملامح حقيقية للصداقة وكيفية اختيار الصديق، فضلاً عن تحقيق القيمة البلاغية فيها، وكذلك حققت القيمة اللغوية عند التوحيدي حضورها في الأخبار حينما وظف خبراً لغوياً تحقق منه قيمة صوتية أثرت في المتلقي وقدم رسالته من خلاله أيضاً.

المبحث الثاني

الرسائل

إنَّ الحديث عن مفهوم الرسائل الأدبية هو حديث يتطلب تبصراً في النصوص ومعرفة للأحداث التي نقلتها هذه الرسائل بوصفه فناً ظهر في تلك المرحلة، وقد أفاد منه التوحيدي إفادةً وافيةً في كتابه الصداقة والصديق وقبل الحديث عنها لا بدَّ أن نؤسس لها عن طريق الوقوف على مفهومها في اللغة والاصطلاح.

أولاً: الرسالة في اللغة:

و"يراد بها القطيع من كل شيء والجمع إرسال و يقال استرسل الشيء بمعنى سلسة ويقال رسل رسلا ورسالة"[١]، وتدل لفظ الرسالة على التوجيه وذلك في قوله الإبل... قطيع بعد قطيع[٢].

ثانياً: الرسالة في الاصطلاح:

عرَّفها الشريف الجرجاني (٨١٧هـ) قائلاً: "وهي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع وأحد... ويكون فيها الحكم"[٣]، ولقد أخذ ظهور الرسائل بالتطور في هذه الحقبة؛ ليؤكد مدى التمدن والتحضر وكثافة الوعي الذي زخرت به هذه المرحلة، وإزدياد عدد المتعلمين الذي تطلب وجود الرسائل، واستمر نمو هذا الجنس الأدبي؛ ليأخذ مساحةً وافرةَ الحظِ، وأخذت تتنوع في وجودها حتى تم تقسيمها على قسمين مشهورين وهما الرسائل الديوانية والإخوانية، إذ إنَّه لكل منهما مهمة تقوم بها، ولقد تنوعت هذه الرسائل بين المكاتبات مثل التوجيهات والأوامر

---

(١) لسان العرب: ٢٨٢/١١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٢/١١.

(٣) التعريفات: ١١٣.

الإدارية وعهود الأمان وغيرها، فضلاً عن الرسائل التي هي بين الأخوة والأصدقاء[١]، وبهذا كانت الرسائل في النثر الفني القديم لها عده آثار استعملت فيها بوصفها شكلاً فنياً يُسهِم في بناء قصته والتقدم بأحداثها بوصف شخوصها وتحليل مواقفها وفيها أثار أخرى أدرجت في الرسائل تدخل ضمن بنية النص بشكل عام بل هي تثري هذا النص بشكله القصصي؛ ولهذا ليس بغريب أن الرسائل هي جزء من منظومة العمل السردي ولاسيما القصص؛ كونها تجمع بين الأشخاص المتباعدين في المكان والمقام ممَّا يُسهم في توجيه الأفعال والمواقف في النص، وينتج عنه الرسائل التي تحمل أقوال الأشخاص ومواقفهم[٢]، وحضور هذه الرسائل في كتاب الصداقة لأبي حيان التوحيدي يؤكد مدى حضورها الواسع في الساحة آنذاك، إذ إنَّ المتتبع للرسائل في العصر العباسي يجدها وافرة الحظ، وتأثر المجتمع العربي الإسلامي في مراحله المبكرة منذ قيام الدولة العباسية؛ ونتيجة للتداخل بين العرب والأعاجم أسهم بشكل كبير بشيوع هذا الفن الأدبي، إذ نقل التطورات الاجتماعية التي جسدت تلك الحقبة، ورصدت الكثير من الجوانب التي تخص المجتمع وصورت الكثير من مجالس الأحاديث الشعبية والرسمية، فضلاً عن وصفها للمظاهر الخارجية التي تجسدت بأمثلة تكتب داخل هذه الرسائل وهنا كان لا بدَّ للمكاتبات الأدبية أن تتأثر بالمظاهر الاجتماعية ولاسيما التي حضرت في العهد العباسي من حيث التأنق والترف ودخول الغواني والغلمان وتداخل الثقافات الرومية والفارسية وغيرها حتى صارت جزءاً من عمل الدولة ومخاطباتها، وأفاد التوحيدي من هذا الفن الأدبي من حيث تصويره لكثير من الجوانب الحياة الاجتماعية التي يمكن أن نطلق عليها جوانب الشقاء والبؤس والحرمان

---

(١) ينظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ٨٧-٨٩.

(٢) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم مشروع قراءه شعرية: ١٦٦.

والغدر والخيانة أو التقارب وغيره من المضامين[١]، وسأقسم الرسائل هنا على قسمين الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية.

أولاً: الرسائل الديوانية: بدأت الرسائل الرسمية بديوان سمي بديوان الرسائل ثم أخذت الأيام بالتطور حتى أصبح المكان الذي تكتب فيه بديوان الإنشاء[٢] ،ثم تطور عمل هذا الديوان إلى أعمال أخرى مثل المراجعة والختم وغيره، ممَّا منح هذا الديوان كادراً مستقلاً للعمل وصار بجواره مجموعة من الدواوين في الولايات والأقاليم التابعة للدولة العباسية مثل ديوان الجند والخراج...وإلى آخره.

إلا أن الرسائل الديوانية على الرغم من إصدارها من هذا الديوان الرسمي الذي عين موظفوه من قبل الدولة إلا أن هذه الرسالة لا تصدر إلا بعد موافقة الخليفة أو الوزير أو نائبه حتى يتم إرسالها ومخاطبة الآخرين[٣].

واتسعت دائرة الرسائل الديوانية إلى الدول المجاورة وتتضمن تهنئة وطلب العون وعقد المعاهدات والمسائل الرسمية كالإدارية والمالية، فضلاً عن ما يتعلق بالسياسة الخارجية وأمور الدولة وتعددت الرسائل الديوانية من المكتوبة إلى الشفوية، إذ إنَّ هنالك رسائل ترسل ينقلها سفراء الخليفة إلى الدول التي يراد إرسال لها هذه الرسائل[٤].

ولقد عُرِّفت الرسائل الديوانية بتعريفات كثيرة ومنها ما ذكره ابن خلدون (**٨٠٨ هـ**)، إذ قال يراد بها" المخاطبات لمن بعِدَ عن السلطان وتنفيذ

---

(١) ينظر: الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة العراق والمشرق الإسلامي: ٢٨ – ٣٠.

(٢) ينظر: صبع الأعشى في صناعة الانشا : ١٥/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٤/١.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٤٣/٧.

الأوامر فيما حجب عنه "[١]، وعرفت كذلك بأنها كل ما رجع إلى صناعة الكتابة وإلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات والهدن والأمانات والإيمان وفيما معنى ذلك[٢]، ونلحظ أن التعريف الثاني أكثر وضوحاً وتقسيماً للرسائل الديوانية، فضلاً عن ذلك هي طريقة تاريخية وتوثيق لمضامين السياسة الحكومية للدولة التي تتواجد فيها، وعرفت كذلك بأنها "المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي التي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحكم وتنظيم المملكة وضبط الشؤون الإدارية ومراسله الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها جزءاً من النشاط السياسي "[٣]، وكذلك عرفت الرسائل الديوانية بأنها "ما يصدر عن الدواوين أو يراد إليها خاصة بشؤون الدولة وصوالحها تيسير للعمل وتثبيت لنظام العام ويغلب على هذا النوع من الدقة والسهولة في التعبير والتقييد بمصطلحات الحكومية والفنية والمساواة في العبارات والبراءة من التهويل والتخييل"[٤]، ويعد تعريف الدكتور أحمد الشايب هو أكثر التعريفات وضوحاً وتقسيماً لحقيقة هذه الرسائل، إذ إنَّه فضلاً عن وصفها بإدارة شؤون الدولة وتنظيم الأمور العامة إلا أنَّه وصفها بوصفه ناقداً عن طريق قوله أنها تميل إلى الدقة والسهولة في التعبير والتقييد بمصطلحات الحكومية والبراءة من التهويل والتخييل وهذه الملامح الأدبية التي لا توجد في هذه النوع من الرسائل على الأغلب.

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢/ ٦١٨.

(٢) ينظر: صبحي الاعشى: ١/٨٤.

(٣) النثر الأدبي في الأندلس مضامينه وأشكاله في القرن الخامس: ٢٠٨.

(٤) الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: ١١٣.

وتدخل تحت هذا النوع من الرسائل موضوعات تتناقل بين التولية والعزل ورسائل العهود والمواثيق ورسائل المدح والتهاني والتعازي والاستغاثة والشفاعة والاعتذار والعتاب وهذه هي موضوعات الرسائل الديوانية(١).

ولقد وردت الرسائل الديوانية في كتاب الصداقة والصديق ومنها ما وظفه التوحيدي في كتابه "**وحدثنا حمد بن محمد كاتب ركن الدولة قال :دب بيني وبين أبي الفضل يعني ابن العميد بعض المفسدين فكتب إلي:**

بسم الله الرحمن الرحيم

إن تسفيق الكلام بيني وبينك موضوع، لأنك عن ذلك مرفوع، وقد رضيت أن تستأني فيما تسمع، فإذا صح به ذنب عاقبت بقدره، أباد أم أبقى، توسط أم تطرف، ولا أقول إلا ما قال الأول:{الطويل}

أطعت الوشاة الكاشحين ومن يطع مقالة واش يقرع السن من نـــــدم

أتاني عدو كنت أحسب أنه علينا شفيق ناصح كالـــــذي زعم

فلما تباثثنا الحديث وصرحت سرائره عن بعض ما كـــان قد كتم

تبين لي أن المحرش كإذب فعندي لك العتبي على رغم من زعم"(٢).

إنَّ الصفة الوظيفية **(الرسمية)** التي تمتع بها حمد بن محمد كاتب ركن الدولة وبين ابن العميد الذي هو وزير الدولة البويهية تجعل الرسالة من النوع الديواني، إلا أنَّ مضمون الرسالة تمثل علاقة وطيدة أفسدها الوشاة، إذ بيَّنت كتابة حمد بن محمد مدى ألمه على تأثر ابن العميد بقول الوشاة، حتى أنه وظف نصاً شعرياً أشار فيه إلى لفظ **(الكاشح)** في قوله الكاشحين وهو اسم فاعل أي جاء به للتأكيد على قيامهم بالوشاية عن طريق

---

(١) ينظر: الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في العصر بني الاحمر المضمون والأهمية من حيث الشكل: ٥.

(٢) الصداقة والصديق: ٨٩.

(الكاشحين) هو من يضمر العداوة أو الحقد، وما يؤكد مديات ارتباط الصداقة بين الطرفين أن حمد بن محمد يطلب العقوبة من ابن العميد إذا تبَّين أنه قال كلاما عنه بسوء، فهذه الرسالة بينت خديعة ووشاية كبيره بين الصديقين.

إنَّ توظيف هذه الرسالة في كتاب الصداقة والصديق أراد منها التوحيدي تقديم قصديةً مباشرةً مفادها أن الصداقات قد تفسدها المناصب فالحذر الحذر من الوشاة، فضلاً عن ذلك عبَّرت هذه الرسالة عن مظهر اجتماعي ساد في مختلف الحقب الزمانية(١).

يحقق النص ودلالاته عن طريق النسق الاجتماعي الذي تفرضه رسالة حمد بن محمد إلى صديقه ابن العميد، إذ جمع في النص مضمون الصداقة الحقيقية والمودة النابعة من تلك العلاقة، فضلاً عن إفادة التوحيدي من هذا النص ببث صور ذهنية تحقق فائدتها في المجتمع؛ كون هذه التجربة أفاد منها التوحيدي ببث تجربة قد تكون مرت عليه في أحدى المراحل التي دوَّن فيها كتابه الصداقة والصديق(٢)، وكذلك فإن وظيفة الاستعمال اللغوي الإنجازي للحدث الاجتماعي عن طريق القيمة النطقية للألفاظ وما تحققه من وعي معرفي في ذهن المتلقي يخبره بحقيقة هذه التجربة(٣).

حقق التوحيدي نوعاً من الترابط النغمي داخل هذه الرسالة، إذ جمع إجزاء هذه الرسالة عن طريق توظيفه لصوت **(العين)** داخل النص ولاسيما في فواصله مثل كلمة**(موضع ،وموضوع ،ومرفوع، وتسمع)** أي أنَّ قيمة هذا

---

(١) ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ٥٣٧.

(٢) ينظر: المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد الخطاب: ٩٤.

(٣) ينظر: الأسلوب والأسلوبية: ١١٤.

الصوت يتحقق تأثيرها في المتلقي لما يحققه من تكثيف للمعنى في ذهن المتلقي.

وكذلك وردت رسالة أخرى وظفها التوحيدي في كتابه "**كتب المعتصم إلى ابن ظاهر عبد الله: إياك أن ترينـي وجهك، فإني لست آمن نفسي عليك، ولك من قلبي مكان، ما أوثر أن يؤثر فيه ما يحيله عن صورته، ولأن تكون بعيداً وأنا لك، خير من أن تكون قريباً وأنا عليك، ولأن لا تراني وأنا واثق بك، أنفع لك من أن أراك وأنا ظنين فيك، وإذا صدقتك عما حنيت عليه ضلوعي من أمرك، فقد قضيت حقك في كفايتك، واستدمت به صفاء ضميرك، وله قرأت لي ألف كتاب بالورود، فلا تعمل عليه، ولا يرخصن عندك هذا القول فإن تحته وجداً بك، واستنامة إليك، وابتهاجاً بمكانك، وازدياناً بخبرك وعيانك، واكتم هذه الحروف عن كل عين رائية، ولا تدل على شيء منه مصرحاً، ولا معرضاً، والزم فناء عزك، واستنشق نسيم شوقي إليك، وتطعم حلاوة ثقتي بك، وشم بارقة عتب إذا همع نقع، وإذا أمسك أهلك، وإذا در بر، وإذا أقلع أجزع**"[1].

بدء المعتصم رسالته موبخاً ابن طاهر مقدماً الضمير المنفصل **(إياك)** على الجملة الفعلية وهذا يعود لحصر هذا التوجيه لابن الطاهر، ثم أخذ الخطاب نمط آخر بيَّن فيها المعتصم حقيقة المحبة والصداقة التي تربطه بابن الطاهر، وهذا ما نتلمسه في قوله **(ولك من قلبي مكان)** وكذلك قوله **(وأنا واثق بك)** وكذلك قوله **(واستدمت به صفاء ضميرك)**، فضلاً عن غيره من الألفاظ ليختتم حديثه قائلاً**(واستنشق نسيم شوقي إليك)** وكذلك قوله **(وتطعم حلأوة ثقتي بك)**، فضلاً عن قوله **(وشم بارقة عتب إذا همع نقع)**، ومنح هذا الانتقال تحولاً في لغة الخطاب من البطش والقوة إلى المحبة والوئام هو تأكيد على مقدار العلاقة بين المعتصم وابن طاهر عبد

(١) الصداقة والصديق : ١١٨.

الله، ولقد وظف التوحيدي هذه الرسالة؛ ليقدم من خلالها منهجاً تسامحياً إنسانياً اجتماعياً يرفد به تجارب الآخرين أو لتجربة مرَّت عليه شخصياً.

إنَّ النسيج الذي اختاره التوحيدي في كتاب الصداقة والصديق يؤكد قدرته اللغوية، وقيمة بيئته وما حققته له من إمكانية القول والتوظيف لأدواته؛ بغية إيصال فكرته عن طريق اختيار التعبير الدقيق المولد لقصدية مباشر(١)، وكذلك في مضمون الرسالة الذي يهدف إلى بث روح المسامحة وهذا ما نتلمسه عن طريق توظيف الفعل المضارع في بعض مواطنها ليعطي طابع الاستمرارية للرسالة.

وهذا ما يتأكد في ضوء" التلاحم بين اجزاء النص الواحد، إذ توجد علاقة بين مكونات النص وبقية أجزائه فيصبح نسيجا وأحد فيه علاقات القصد والخلفية المعرفية بالمبدع والمتلقي"(٢)، وبهذا تكون تجربة التوحيدي التي بثها عن طريق الرسالة حققت وجودها في" كل زمان ومكان ولأن فاعليته تولد فيه ذاتيته النصية"(٣)، وكذلك يوظف التوحيدي" **الوزير – أطال الله بقاءه – قد خاطبني بما إن لو غلطت في نفسي، وادعيت ما لا يليق بي، لكان في ذلك عذري، ولست من أصحاب البراعة، فأسهب خاطباً، أو أخطب مطنباً، وأنا – وإن فاتني هذا بفوت الصناعة – فلن يفوتني إن شاء الله ما يستحق علي من القيام بالخدمة وبذل الطاعة، حتى يكون جوابي صادراً على مذهب الخدم، كما كان ابتداؤه صادراً على مذهب أرباب النعم، وها أنا قد وكلت ناظري بلحظه، ووقفت سمعي على لفظه، انتظاراً لأمره ونهيه اللذين إذا امتثلت أحدهما وملت عن الآخر ملكت المنى، وأحرزت الغنى، وكانت شمسي به دائرة وسط السماء، وعيشي جارياً على**

---

(١) ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى: ١١٠.

(٢) تماسك النص الأساس والأهداف: ٣.

(٣) النص ممارساته وتجلياته: ٥٥.

النعماء والسراء، فلا يبقى لي غم إلا تفرى، ولا وغم إلا تسرى، ولا إرادة إلا مبلوغة، ولا بغية إلا مدركة، وقد رفلت. ومن نعمة الوزير – أدام الله أيامه – في عطاف من المسرة، الله أسأل إسباله علي مدى الدهر، بنفاذ أمره، وجواز خاتمه، وجريان قلمه، وشعاع شمسه، وسلامة نفسه، ودوام أنسه، وهو يجيب الداعي إذا أخلص في دعائه، ويعطي السائل سؤله إذا صفى ضميره في سؤاله، ولرأي الوزير العلو في قبول ما جاد به عنده من طاعته، وقابل به دعوته من إجابته، إن شاء الله"[1].

إنَّ الملاحظ على هذه الرسالة وجود خطاب من الأدنى إلى الأعلى أي بين رتبتين مختلفتين، إذ إنك حين ما تقرأ النص تشعر هنالك لغة اعتذار واضحة تبتدأ من **(ولست من أصحاب البراعة، فأسهب خاطباً، أو أخطب مطنباً)** إلا إنَّه قدّم فروض الطاعة جميعها؛ ليؤكد فيها مديات هذه الصلة الرسمية بين الطرفين، وأعان فكرته التي قدم فيها اعتذاره عن طريق توظيفه لنوع جمالي وهو التضاد في قوله **(مذهب الخدم، أرباب النعم)**، فضلاً عن توظيفه قيم صوتية أكدت مرتبته أمام الوزير ولاسيما توظيفه لصوت **(الهاء)** الذي يفرز دلالات تؤكد أنَّ الخطاب جاء بصوت مهموس؛ مراعاة لمقام المتلقي.

إنَّ طبيعة الرسائل الديوانية وما تفرضه من طابع رسمي يؤكد أن صاحب هذه الرسالة قد تماهى "بالمتسلط ليشكل أحد المظاهر البارزة في سعي الإنسان المقهور لحل مأزقه الوجودي والتخفف من انعدام الشعور بالأمان... الذي يلحق به من جراء وضعية الرضوخ"[2].

أعطت اللغة قيمةً عاليةً للرسالة وهو ما أفاد منها التوحيدي في بيان ظاهرة من الظواهر التي قد صادفت، فاللغة حققت التسارع والإبطاء بصورة

---

(١) الصداقة والصديق: ١٥٦-١٥٧.

(٢) التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور: ١٢٣.

متلاحقة داخل النص، وهذا على وفق طبيعة الأصوات التي وظفها ممَّا أكد وجود انتقالية متواصلة في الخطاب[١]، وهنا التوحيدي قدم لنا مضموناً فكرياً لحادثة تاريخية في سياق أدبي فني عن طريق الأبعاد الجمالية واللغوية وحضورها في النص، وكذلك التأثير العاطفي عن طريق تعبيره الاعتذاري، ممَّا أدى إلى انسجام الشكل والمضمون في الرسالة المقدمة إلى الوزير[٢].

وخلاصة القول في الرسائل الديوانية نجدها حققت نمطاً مغايراً داخل الكتاب لما لها من قيمة رسمية وصفات وظيفية، إذ مالت إلى العنصر التوثيقي التاريخي أكثر من الخوف في البُعد الجمالي.

ثانياً: الرسائل الاخوانية: عرفت الرسائل منذ العصر الجاهلي، وأخذت بالتطور في عصر صدر الإسلام وما جاء بعده من العصور الأدبية وأخذ هذا الفن الأدبي يتطور عن طريق دخول الكثير من المفاهيم الجديدة والأطر فيه حتى برع فيه كثير من كُتَّاب هذا اللون من الرسائل؛ نتيجة استعمالات مفرداتٍ وألفاظاً مختلفة تميزهم عن غيرهم، وهذا يؤكد أنَّ الرسائل الإخوانية هي أقرب للتعبير الإنشائي الأدبي السهل الخالي من المحسنات اللفظية والألفاظ الجزلة، وهذا الضرب من الرسائل له أهمية كبيرة لما تسمى به ملامح فنية، إذ كان كُتَّاب هذه الرسائل يعمدون إلى انتقاء ألفاظهم؛ بغية إبراز المعاني الواضحة والسلسة، وشاعت هذه المكاتبات شيوعاً واضحاً؛ لشدة الحاجة إليها، ولعل هذا الانتشار بين الناس هو الحافز الذي وقع بالتوحيدي إلى أن يدخلها ضمن كتابة الصداقة والصديق؛ لتكون جزءاً من مراسلات الصداقة[٣]، وبهذا يمكن القول أن الرسائل الاخوانية هي"

---

(١) ينظر: مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٥٥.

(٢) ينظر: مشكلات المضمون والشكل في العمل الأدبي: ٧٣-٧٤.

(٣) ينظر: الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجري العراق والمشرق الاسلامي: ٢٦٤-٢٦٥.

ما تم تبادله من رسائل نثرية... بين الإخوان والأقارب والأصدقاء في قضايا شخصية وأمور اجتماعية مختلفة"[١]، ولقد تحدث عنها جملة من النقاد فقد وصفها الدكتور زكي مبارك قائلاً" وقدم هذا الفن في العربية لا يمنع عن صدورها في القرن الرابع فناً قوياً للقارئ إنه فن جديد لكثرة ما جد فيه من الصور والتعابير"[٢]، وذكرها الدكتور شوقي ضيف قائلاً" وقد تطورت هذه الرسائل إلى دلالات الوقايات التعليمية بدلاً من التعبير عن المعاني ثم صار من المكاتبات قوالب وأساليب تحفظ من لدن الكاتب ويحفظها المتأدبون ويعارضونها ويحاكونها في تراسلهم"[٣]، وكان للرسائل الإخوانية مجموعة من الأغراض منها " الشكوى والاستعطاف والاستمناح، العتاب واللون، التعازي والتأبين والمواساة"[٤]، ولقد وردت الرسائل الإخوانية في كتاب الصداقة والصديق ومنها ما وظفها التوحيدي" **وكتب أبو النفيس إلى صاحب له كان يغشاه كثيراً، ويباثه طويلاً:**

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس ينبغي – أبقاك الله – أن تغضب على صديقك، إذا نصح لك في جليلك ودقيقك، بل الأقمن بك، والأخلق لك أن تتقبل ما يقوله، وتبدي البشاشة في وجهه، وتشكره عليه حتى يزيدك في كل حال ما يجملك، ويكبت عدوك، والصديق اليوم قليل، والنصح أقل، ولن يرتبط الصديق إذا وجد بمثل الثقة به، والأخذ بهديه، والمصير إلى رأيه، والكون معه في

---

(١) الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجري العراق والمشرق الإسلامي: ٢٦٣.

(٢) النثر في القرن الرابع الهجري: ١/٢٠٠.

(٣) الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة العراق المشرق الإسلامي: ٢٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٢-٢٧٨.

سرائه وضرائه، فمتى ظفرت بهذا الموصوف فاعلم بأن جدك قد سعد، ونجمك قد صعد، وعدوك قد بعد والسلام"[1].

برع التوحيدي في اختياره لهذه الرسالة الإخوانية التي قد تكون معبرة عن رأي شخصي له في تقبل النصح والتوجيه والإرشاد من الصديق، وما يؤكد هذا الرأي أن التوحيدي أشار إلى الصديق في قوله **(والصديق اليوم قليل، والنصح أقل)**، وهنا بيان واضح لموقف مرَّ به التوحيدي ورافضاً النصيحة، حملت الرسالة بُعد إنساني وقيمة اجتماعية تجلت بأسلوب بسيط ممتع خالي من الصعوبة، وهنا كان التوحيدي يسعى لتحقيق قصدية مباشرة.

ويتأكد تحقق هذه القصدية عند التوحيدي وذلك لما تفرزه من" عمليات ذهنية تعمل على بعث الخيال وتنشيط الايحاء فيرتبط التعدد في دلالات النص بتعدد المتلقين وثقافاتهم ومعارفهم بأعراف اللغة"[2]، وهنا كان التوظيف وسيلة جوهرية أفاد منها التوحيدي؛ ليحقق منها غايات اجتماعية رام الوصول إليها في ضوء التنظيم الداخلي لفقرات النص وما تحققت من خلاله رؤى اجتماعية تدور في فلك المتلقي باختلاف طبقاته وهنا تكمن أهمية هذه الرسالة، فضلاً عن ذلك شاركت هذه الرسالة في تقديم رؤية إعلامية للمتلقي تبين له طبيعة هذه الرسالة وما تحققه من أسس إنسانية عن طريق وعي إتصالي بين المنتج النص والمتلقي بأسلوب ينسجم مع تنوع الوعي للطبقات المختلفة آنذاك، وإذا تتبعنا هذه الرسالة سنجدها تقدم نصحاً وإرشاداً وتوجيهاً عاماً حتى وقتنا الحاضر ويمكن الانتفاع منها، وبهذا يكون الوجود الإعلامي للرسالة الأدبية هو طريقها إلى تحقيق غاية التوحيدي في توظيفها في كتابه الصداقة والصديق، وكذلك وظف التوحيدي رسالة إخوانية قائلةً"

---

(١) الصداقة والصديق: ١٤٢.

(٢) ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي: ١٣٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

عهدي بك يا سيدي يتطوع بنافلة لابتداء، فكيف تخل بفريضة الجواب، وهل يرضى الصديق منك أن تبره قريباً، وتجفوه بعيداً، وتذيقه حلاوة الوصل دانئاً، وتجرعه مرارة القطيعة نائياً، وما عليك لو رضيت بالبين فاجعاً، واكتفيت بالدهر قاطعاً:

والدهر ليس بمعتب من يجزع... والبين بالشمل لمجمع مولع

فما ظنك بمن يجري ذوي المروءة مجرى سائر من يرى باطنه يخالف ظاهره، وتأويله ينافي تنزيله، وهذا هزل يترجم عن جد، والضد يبرز حسنه الضد، أودعتني، إذا ودعتني:

شوقاً إليك تفيض منه الأدمع... وجوى عليك تضيق عنه الأضلع

فكم أتلهف على ما أنفدناه في حال الاجتماع من عيش رخي، ويوم فتي، وسرور امتدت ظلاله، وليل غاب عذاله، فارغب إلى الله في إعادة تلك العهود، إنه فعال لما يريد"[1].

أفاد التوحيدي من توظيفه بهذه الرسالة إلى بيان مفهوم الصداقة الحقيقي الذي يقوم على التواد والتقارب وعدم القطيعة والاستمرار على نسق واحد حتى تأخذ هذه العلاقة بالاستمرارية، والديمومة، ولقد قدَّم التوحيدي بهذه الصورة قيمة جمالية وهي تضاد في قوله(**قريبا، بعيدا**)، وقوله(**دانيا، نائيا**)، وقد حققت هذه التضادات تكثيفاً للمعنى وتعميق للرؤى التي قدمها من خلال هذه الرسالة، فالتوظيف الاجتماعي هنا حاضر عن طريق ترجيح الصداقة التي تأخذ طابع الاستقرار بين الصديقين، وما يؤكد لغة العتب في هذه الرسالة هو توظيفه لقيمة صوتية في صوت (**الهاء**) التي تدخل ضمن الأصوات المهموسة وتضيف لصوت (**الهاء**) الذي يفرز صوتاً مهموساً

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٢٥.

وهـذا المسـتوى الصـوتي يؤكـد أن طبيعـة الخطـاب الموجـه داخـل الرسـالة هـو يأتي للتوجيه والتنبيه ولا يأتي للتمرد أو الرفض.

إنَّ البنـى الصـوتية والتركيبيـة داخـل هـذا الـنص أعطـت عمقـاً اتضـحت فيهـا الانفعـالات النفسـية للصـديق و قـدمت لغـةً أدبيـةً جليـةً عـن طريـق مـا حققتـه مـن تـأثير فـي نفـس المتلقـي، وكـذلك حـدوث تلاحـق صـوتي يؤكـد علـى تحقيـق نسـق نغمـي للدلالـة علـى المعنـى المـراد نفسـياً، فـ"إنَّ وسـائل الإيحـاء أقـرب إلـى الـدلالات اللغويـة النفسـية فـي وسـيلة انغامهـا"[١]، فهـذه الممارسـة التـي تحققـت فـي الرسـالة الإخوانيـة هـي تقنيـة الدلالـة فمـن خلالهـا يمكـن الوقـوف علـى محتـوى الرسـالة وتلمـس طبيعـة الخطـاب ومـا يحققـه مـن انتـاج للمعنـى[٢]، هـذه الرسـالة تحققـت منهـا غايتهـا عنـد التوحيـدي عـن طريـق" تقـدير اللفـظ بعـد ذلـك إلـى موضـعه مـن التركيـب الـذي يبـين فيـه استسـاغته وتنـافره وقلقـه، فـاللفظ يحسـن فـي موضـع يقـبح فـي موضـع بحسـب مكانـه مـن التركيـب"[٣]، ولقـد وظـف التوحيـدي رسـالة أخـرى مفادهـا " **بسـم الله الـرحمن الرحيم**

عافانـا الله وإيـاك، كـن علـى يقـين أنـي بـك ضـنين، وعلـى التمسـك بمـا بينـي وبينـك حـريص، أريـدك مـا أردتنـي، وأريـدك أن تنـوب عنـي مـا كـان ذلـك بـي وبـك جميـلاً، فـإن جـاءت المقـادير بخـلاف مـا أحـب مـن ذلـك لـم أعـد مـا يحمـد، ولـم اتجـاوز إلـى شـيء ممـا يكـره، هـاجني علـى الكتـاب إليـك مسـألة أبـي نـوح غيـاي، وإعلامـك رأيـي وهـواي، فمـا تبـدلت، ولا حلـت، فجمعنـا الله وإيـاك علـى طاعتـه وأنشـد: لكـل أديـب تـرى هيئـة... وهـذي تـدل علـى همتـه ولـم أر مثـل فتـى ماجـد... يـداري الأمـور علـى فطنتـه يجـازي الصـديق

---

(١) مذاهب الأدب الغربي ومظاهرها في الأدب العربي الحديث : ٢٤٦.

(٢) ينظر: في أصول الخطاب النقدي الجديد: ٥١.

(٣) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية: ١٤٩.

بإحسانه... ويزجي العدو إلى غفلته ويلبس للدهر تبانه... ويخضع للقرد في دولته بلوت الرجال وجربتهم... فكل يدور على لذته قال سفيان بن عيينة: صحبت الناس خمسين سنة ما ستر لي أحد عورة، ولا رد عني عيبة، ولا عفا لي عن مظلمة، ولا قطعته فوصلني، وأخص إخواني لو خالفته في رمانة فقلت: هي حامضة، وقال: هي حلوة لسعى بي حتى يشيط دمي"[1].

قدَّم يحيى بن خالد رسالة حرص فيها على تقديس علاقة الصداقة التي حرص على ديمومتها واستمرارها عن طريق قوله **(وعلى التمسك بما بيني وبينك حريص)** إذ جعل الصديق من ينوب عنه، ولقد وظف صاحب الرسالة نصاً شعرياً بين فيه صورة الزمان التي كانت بياناً حقيقياً لهذا الصديق من حيث الهيئة والهيمنة والفظنة والإحسان إلا أن سفيان بن عيينة قال **(صحبت الناس خمسين سنة)** فلم جديد من يستر عورته وعيبه أو يعفو عنه ظلمه وإلى آخره، وهنا يتأكد لنا طبيعة الخطاب المضاد بين الصديقين فالأول يجد نفسه بخيلاً بوصف صديقه بخلاف الثاني الذي عاش خمسين عاما ولم يجد له من صديق وهذه هي إجابة غير ملائمة لما قدمه يحيى بن خالد، ويمكن الإشارة إلى أنَّ خطاب المفارقة الموجود في الرسالة الإخوانية هي دعوة من يحيى "إلى أزالت كل مظهر من مظاهر التفرقة للوقوف بحزم وقوة بوجه الطامعين"[2]، في الصداقة وهي محاولة لتحقيق مظهر من مظاهر استغلال علاقات الصداقة استغلالاً سيئاً، فضلاً عن ذلك تجد الحزن المشوب على الإجابة على رسالة يحيى بن خالد حزناً مشوباً يكتنف روحه في إن ابن عيينة على هذه بسبب ضياع الخمسين سنة من عمره من دون صديق. ممَّا حقق في ذاته الاحتدام الشعوري والتأزم النفسي المتسم

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) الوصايا الشعرية والنثرية للعرب قبل الإسلام دراسة في ضوء علم الاجتماع الأدب: ٧٠.

باليأس المطبق"[١]، وهنا يمكن القول" أن المتخاطبين كانا في مكانين متقاربين لأنهما يصفان نفس الاطار الطبيعي في زمن وأحد ولكنهما استعمالاً... شكلا من اشكال لكتابه يستعمل بين المتباعدين في المكان عادة"[٢].

ولقد وردت رسالة أخوانية أخرى قيل فيها " **وكتب آخر: ما أعلمني أن في سعة صدرك، وفضل رأيك، وعلو قدرك، ويمن تبيرك، وشدة تحصيلك، وما مكن الله لك من سلطانك ما أغنى عن مسألتي عما أراه في أمري، فوالله ما حلت لك عن عهد، ولا من موالاة إلى عداوة، ولا عن وفاة إلى غدر، ولا عن شكر إلى كفر، ولا قصرت فيما ظننت إنه يقضي عني الحق بما بلغته الطاقة والوسع، فإن تكن الدنيا بلغتني ما لا يجدي معه سعي، فذلك على الزمان لا علي: ما كلف الله نفساً فوق طاقتها... ولا تجود يد إلا بما تجد فوالله ما كنت بذميم العهد لك في شدة ولا رخاء، ولا في حال سراء ولا ضراء، على قدر ما تبلغه طاقتي وتناله يدي، وليس من قصر به القدر بملوم على تصير، ولا من نصح بالنية إذا أعجزه الفعل بمعدود في أهل الغش**"[٣].

تمثل الرسالة الأخوانية التي نحن بصددها صورةً من صور التوجيه الاجتماعي الذي يرصد حقيقة علاقات الصداقة القائمة على الأسس الحقيقية حتى أنه يجد في صديقه سعة الصدر وفضل الرأي وعجل القدر، وهنا وظف التوحيدي هذه الرسالة لما فيها من قيم تأخذ بالمعنى إلى ذهن المتلقي عن طريق التقريب والتوضيح ولاسيما في قوله(**وفاء ،وغدر، وشدة ،ورخاء، والسراء، والضراء**)، وهذا التقابل الدلالي بين الألفاظ زرع في ذهن

---

(١)الوصايا الشعرية والنثرية للعرب قبل الإسلام دراسة في ضوء علم الاجتماع الأدب: ٢١٣.

(٢) الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية): ٧٩.

(٣) الصداقة والصديق: ٣٢١.

المتلقي تنبيها وفارقاً يأخذ من خلاله المتلقي فائدةً بتوظيف هذه الرسالة؛ ليبث التوحيدي عن طريقها تجربة اجتماعية، فضلاً عن التوظيف القرآني الموجود في قول الشاعر **(ما كلف الله نفساً فوق طاقتها)** المستمد من قوله تعالى ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[1]، وحقق التوظيف القرآني تأكيداً وتقريباً.

إنَّ مختارات التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق تجسد معرفة في اللغة؛ كونها تأخذ بالمتلقي للاهتمام بدائرة الخطاب وترك الاهتمام بالجملة مما يولد اهتماماً بالسياق الذي ينشأ فيه الكلام؛ وبهذا يكون التخاطب في هذه الرسائل يحمل مقاصد المتكلم أو منطلق أساسي من منطلقات تحديد الخصائص الإنشائية داخل الخطاب[2]؛ لتحقق ترابطاً بين ثنايا النص لتزيد من وعي المتلقي وإدراكه موجهات الخطاب داخله وهو ما يحقق علو كعب النص وسموه، وكذلك يؤكد طبيعة انسجام النسيج الداخلي له[3]، فضلاً عن ذلك إن سعة العارضة اللغوية داخل صاحب الرسالة تؤكد عدم انتفاء شعرية النص وأدبيته؛ لأنه حقق تأثيراً في المتلقي عن طريق تلمس انفعالاته حينما اختار التوحيدي هذه الرسالة ليوظفها في كتابه فتفاعل التوحيدي مع هذه الرسالة أكد دور لغة الأديب في اختيار التوحيدي لهذه الرسالة، ولذلك تكشف هذه الرسالة عن أوجه الاستعمالات المختلفة للغة في كتاب الصداقة والصديق بوصفها مظهراً فنياً يحمل في طياته قيماً أدبيةً[4]، وعليه كان قصد الرسالة الأدبية تجاوز الإخبار إلى تحقيق وظائف اجتماعية تتحول من

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية): ٧٥.

(٣) ينظر: فنون النص وعلومه: ٣٠١.

(٤) ينظر: شعرية الرسائل الرسالة الإخوانية من خلال رسائل لهناء لأبي العلاء المعري: ١٩٧.

خلال هذه المراسلات إلى حركة أدبية توجيهة تنبيهية تحقق من خلالها رصد اجتماعي لظاهره مهمة[١].

وخلاصة القول إنَّ الرسائل الاخوانية في كتاب الصداقة والصديق أخذت طابعاً فيه قيم جمالية هدفها تكثيف المعنى وتقريب الصورة، فضلاً عن لغة الخطاب التي حملت في طياتها خطاباً مضاداً يؤكد الصراع بين السرد الأول والسرد المضاد ومحاولة انتفاء الأول بوجود الثاني.

إن الرسائل بشقيها الديوانية والإخوانية في كتاب الصداقة والصديق لها حضورها البارز، إلا أن الرسائل الديوانية جسدت طابعاً رسمياً حتى وإن صحبته صفة الصداقة، فالفارق في الرتب والصفات الوظيفية هي ما حقق هذا النسج الصوري، فضلاً عن انطباقها على شخصين ولا يمكن الإفادة منها كما من الرسائل الإخوانية التي تمثل تجربةً اجتماعية خالصةً مشوبة بقيم جمالية أدبية لغوية وصوتية تمكنها من تحقيق انفعال نفسي داخل ذهن المتلقي؛ بوصفها تجربةً اجتماعيةً تحقق غاية التوحيدي في مكاشفة نفسه بالآخرين بتجارب مرَّت عليه طوال مدة كتابة كتابه الصداقة والصديق.

(١) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير العالم القديم(مشروع قراءة شعرية): ٧٩.

المبحث الثالث

الحكايات والحكم والوصايا

مدخل:

إنَّ سعة الثقافة وتعدد مرجعيات الكاتب في العصر العباسي، حققت له اتساعاً في دائرة كتابته، وتنوعاً في أطر معرفته ممَّا جعل غزارة في الإنتاج الإبداعي، وحتى على مستوى المختارات حقق وعي الكاتب نسقاً مختلفاً عن العصر الأموي الذي عُرف بموضوعاته، ونجد وعي الكاتب في تقديم رؤى اجتماعية يتحقق في كتاب الصداقة والصديق، إذ إنَّ مختاراته هي رسائل وتجارب مرَّت على التوحيدي أو حدثت معه، وقد اختارها بوعيه اللغوي، وقيمته الفنية، وتصوراته الإنسانية النابعة من منطلقات عقدية تؤكد سعة إطلاع وعمق رصد(١).

حققت أقسام النثر في كتاب التوحيدي وقائعاً إنسانيةً تحتاج كشفاً وتنقيباً؛ لأنها تتناول مسيرة أفراد مجتمع وتصوراتهم ضمن إطار أدبي، أي الجمع بين الحدث التاريخي وتخييله أدبياً(٢).

إنَّ اختيارات التوحيدي أخرجت النص في كتابه من دائرة الانغلاق إلى الانفتاح؛ كونه حقق رفضاً وسخرية وتمرداً عن طريق ما وظف من مختارات(٣)، ومن هنا ساتحدث عن الحكايات والحكمة والوصية، وهي على وفق ما يلي:

---

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٧-٨.

(٢) ينظر: الفكاهة في النثر العباسي: ٨-٩.

(٣) ينظر: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي: ٩.

أولاً: الحكايات

قبل الخوض بماهية الحكاية في كتاب الصداقة والصديق لا بدَّ من الوقوف على مفهوم الحكاية في اللغة والاصطلاح وهي على النحو الآتي:

- **الحكاية في اللغة:** وردت الحكاية في الفعل" حكى احكيت فلانا وحاكيته إذا فعلت مثله أو قوله سواء"[١].

يأتي لفظ(**الحكاية**) أيضاً من الفعل **(حكأ)** وهو فعل مهموز، إذ وردت في المعاجم عدة دلالات له ومنها المشابهة[٢]، وقيل كذلك حكى بمعنى الاقتداء ومنه" حكي حكيت شيء احكيه إذا فعلت شيئا تقتدي فيه بغيرك وتحب ان تأتي به على الصفة التي اتى بها"[٣]، ولقد ورد الفعل في لسان العرب على نسق الفعل المهموز "احتكا الشيء في صدره :ثبت ويقال: سمعت أحاديث فما احتكأ في صدري منها شيئا"[٤]، ولقد دل صاحب اللسان في ذكره للفعل احتكأ إلى الإبانة والثبات، وأخذ الفعل **(حكا)** يتطور دلالياً حتى صار بمعنى الشد والأحكام وكذلك، أيضاً ما ورد في الفعل"احتكأ العقدة لغة في احكائتها: إذا قويتها وشددتها[٥]، فضلاً عن دلالات النقل والقص فقد ورد في دلالات النقل" حكوت الحديث احكوه... عنه الكلام حكاية: نقلته"[٦].

---

(١) العين: ٣/٢٧٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣/٢٧٥.

(٣) مجمل اللغة: ٢٤٦.

(٤) لسان العرب: ١/٨٥.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١/٥٣١.

(٦) القاموس المحيط: ١٢٧٥.

وأما دلالة القص فقد ورد في قوله" فالحكاية: ما يحكي ويقص وقع وتخيل أو اللهجة تقول العرب هذه حكايتنا"[١].

خلاصة القول تعددت دلالات الفعل **(حكى، وحكأ)** في المعجم اللغوي إلى أنَّ تعددت دلالاته بين المشابهة والاقتداء والإبانة والثبات والشدة والإحكام، فضلاً عن النقل والقص.

- **الحكاية في الاصطلاح:** وردت الحكاية في حقول اللغة العربية، إذ وردت عند النحاة والبلاغيين والنقاد ولقد عُرَّفت الحكاية عند النحويين بأنَّها" كل لفظ به اللسان تاما كان أو ناقصاً"[٢]، وعرفت أيضا بأنها" نقل الكلمة من موضع إلى موضع آخر بلا تغيير حركة ولا تبديل صيغة وقيل هي إتيان اللفظ على ما كان عليه من قبل"[٣]، وكذلك عُرَّفت عند البلاغيين بصيغة تتقارب مع النحاة ومنه ما ذكره الجاحظ قائلاً:" نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن من مخارج كلامهم ولا يغادر من ذلك شيئا وكذلك تكون حكايته للخرساني والأهوازي والزنجي والسندي والاجناس وغير ذلك"[٤]، وقيل للحكاية معنيين "الأول: التقليد المشابهة وهذا ما كان سائداً في عصره والمعنى الثاني: هو رواية الخبر ونقله"[٥].

أما الدكتور عز الدين إسماعيل فيقول أن الحكاية هي" نقل حادثة من صورتها الواقع إلى صورة لغوية"[٦]، وذهب جيرار جينيت إلى مفهوم الحكاية قائلاً أنها:" مقطوعة زمنية مرتين فهناك زمن الشيء المرئي وزمن الحكاية **(زمن مدلول وزمن دال)**. وهذه الثنائيات تجعل الالتواءات الزمنية

---

(١) المعجم الوسيط: ١/١٩٠.
(٢) الخصائص : ١/١٧.
(٣) المصدر نفسه: ١/١٩.
(٤) البيان والتبيين: ١/٧٧.
(٥) الخبر في الأدب العربي: ٢٨.
(٦) الأدب وفنه: ١٠٤-١٠٥.

كلها التي من المتبدل بيانها في الحكايات"[١]، ولقد وردت الحكاية في كتاب الصداقة والصديق، إذ وظف التوحيدي حكايةً تقوب " **سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكي :قال العتابي: لا أحب رجلاً نقل إلي ما كرهت عن صديقي فغيرني له، ولا عن عدو فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءني سماعه .أما قوله{البسيط}:**

قد كنت أبكي على ما فات من سلفي وأهل ودي غير أشتات

فاليوم إذ فرقت بيني وبينهم نوى :بكيت على أهل المودات

فليس ما نحن فيه بسبيل، لأن الكلام في الصداقة على كرم العهد، وبذل المال، وتقديم الوفاء، وحفظ الذمام، وإخلاص المودة، ورعاية الغيب، وتوقر الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكل، وبذل المعونة، وحمل المؤونة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الاستنابة والثبات على الثقة، والصبر على الضراء، والمشاركة في البأساء، والعلاقة، وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئاً فليس ذلك لأنه من عتادها وأساسها، ولا ما لا يتم إلا به، ولكن من أجل التحسن والتزين، وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلام قصد، قريب، سليم، مقبول، ولسنا نتعقبه بنقص، ولا نقدح فيه باعتراض، لأن العاشق والمعشوق ليسا من الصديق والصديق، وإن كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق، ويتلاقون في بعض الأحوال، فليكن هذا الرسم كافياً محفوظاً، فإن المغالطة قد تقع في هذا كثيراً، والإنصاف يقوم عليه دائما"[٢].

مثلت الحكاية نمطاً اجتماعياً تنوع بين الصديق الذي يبوح بسر صديقه من البكاء والفرح فضلاً عن الكلام عن الصداقة، ولقد أفاد التوحيدي

---

(١) خطاب الحكاية بحث في المنهج: ٤٤.

(٢) الصداقة والصديق: ١١٠-١١١.

من هذه الحكاية؛ ليصنع منها طريقاً اجتماعياً يسير عليه من بعده، وهذه الحكاية قد تكون تجربة مريرة مرت على التوحيدي واختزلت معاناته، إذ إننا نجد في هذا الحضور الاجتماعي تنوعاً لمواقف، وهذا يؤكد أن هذه الحكاية أكدت تجربةً داخل نفس التوحيدي.

يجد التوحيدي في هذه الحكاية بوحاً لحرمانه الذي عُرف عنه وبثه في مضامين كتبه، وهذه الحالة التي لوحظت في مؤلفاته ومن ذكره كانت نقطة معرفة بالتوحيدي(١).

نجد في هذا التوظيف أنَّ "التوحيدي يصف الأشخاص بمن انطبع في ذهنه عنه ذاكراً عيوب مع المحاسن ومؤلفاً صورة تكاد تكون واقعية"(٢).

شكلت الحكاية التي وظفها التوحيدي قصديةً مباشرةً تهدف لتقديم رسالةً اجتماعيةً وتستبعد الباحثة أن تكون هذه هي جزء من نفسيته المتسمة بالشكوى التي عرف بها؛ كون هذا الكتاب يمثل رسالةَ التوحيدي سجل فيها تاريخ أحداث مرت به أو عليه.

ولقد وردت الحكاية أيضاً في قول وظفه التوحيدي يبدأ ب" **سمعت ابن بأبويه القمي العالم يقول: قال جعفر بن محمد: مناغاة الصديق أعبث بالروح، وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك والصديق تفرع بحديث المعشوق إلى الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق**(٣).

إنَّ التوظيف الذي قدمه التوحيدي الذي تحقق بنسج لغوي ماتع عن طريق توظيف لفظ **(الصديق، والمعشوق)** تكون هاتين اللفظتين هي لدى هذه الحكاية، فقد قدَّم الإمام الصادق **(عليه السلام)** لوحة لتعريف الصديق فهو**(ابعث بروح وعندي على الفؤاد من مغازله المعشوق)** ثم يعلل السبب

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ٨٧.
(٣) الصداقة والصديق: ١٦٩.

بأن الصديق هو أندى من المعشوق؛ لأنه المكان الذي نفرغ به الحديث وهنا يكون الصديق هو الوعاء الحقيقي لحفظ السر بمعنى أن يكون الصديق صدوقاً.

إنَّ التوظيف الذي تحقق عند التوحيدي هو بيان واضح لسعة المعرفة وتنوع الروافد الفكرية فجمعه لهذه الحكايات يؤكد سعة إطلاعه ومعرفته بالعلوم.

وقدمت هذه الحكاية "نسج موسوعية الخطاب وتأكيد سمته المعرفية وغايته التواصلية وتؤدي وظيفة تثقيفية توجيهية سعى منتج الخطاب إلى تبني حالة المتلقي[1]، فتحقق بلاغة الخطاب داخل هذا النص عن طريق تأثيرها بالمتلقي وتحقيقها قيمة جمالية تضمن مضامين إنسانية وبهذا يكون التواشج بين التاريخ والأدب قيمة تحقق تأثيرها لدى لمتلقي، فضلاً عن توسيع مداركه[2].

وكذلك وردت الحكاية" **وحدثني ابن السراج قال: كتبت إلى ابن الحارث الرازي :- كتبت إليك عن محل قد ابتهج بودك، وانزعج لصدك، يُناديك، ألا إن القلب قد تألم بمفارقتك، فمتى يُلَمُ شَعْثُ الأنس بمشاهدتك، فأجبته: كلا وإن امتزج فرح الاتصال، بترح الانفصال، فما ضر مباعدة الأشباح مع مساعدة الأرواح، قال: فأجابني: أما صدر كتابك فغني عن دلالتك عليه، لإحساسي بشاهده عندي، وكيف أعدم الشاهد عليه وأنا الأول فيه، والجالب له، وأما عجزه فشديد الأخذ بطرف من القسوة، لسلوك بأحد الأمرين عن الآخر، ولو علمت أن تمام الأفراح، بمساعدة الأرواح، ومشاهدة الأشباح، لم تقل ما قلت، ولم يبلغ – أكرمك الله – في اللطافة أن يكون من غير هذا النوع الذي نحن منه، لكني أقول: كتبت إليك من**

---

(١) ينظر: البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة: ٩٤-٩٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٣.

محل موحش لبعدك، بلفظ مضطرب أنس بذكرك مستوحشاً، واستوحش إلى رؤيتك مستأنساً، ولو كنت قريباً مني لكان هذا كله مطرحاً، والأمل مُدْرَكا مقترحاً، والعائق مرفوعاً، والطَّرف متنزها، والزمان نضراً، والدهرُ محموداً، والسلام"[1].

إنَّ الأثر اللغوي المتجلي داخل النص بتوظيف الأصوات والسبك والحبك والقصد المباشر وهي سمات هذا النص إلا أنه صدر لنا وعياً ثقافياً وقيمةً إنسانيةً تُحقق مبتغاها لدى المتلقي؛ لتأثيره لما ورد فيه من مضامين.

فالقيم الإنسانية هي روح الصداقة التي سعى التوحيدي لبناء كيانها برسائل اتسمت بعمق التجربة ومديات تأثيرها فيه، وقارئ هذا النص يلحظ نغماً موسيقياً ونثراً إبداعياً يؤكد عمق الوعي لدى التوحيدي في اختياره؛ لهذا النص كون هذه العناصر تحقق إتحاداً يؤكد كسر الرتابة وترك التشبع بما سمع من نصوص من قبل المتلقي وهي عملية تنشيط القراءة و توسيع الذاكرة لديه[2].

وهذا الوعي في الاختيار ولاسيما بحضور النغم الموسيقي يؤكد "وقعا موسيقيا لا يقل تأثيره في النفس وما تؤثره الوزن والقافية "[3].

خلاصة القول حققت الحكاية في كتاب الصداقة والصديق وعظاً اجتماعياً وتنبيهاً حياتياً؛ كون هذه الحكاية نقلت تجربةً مرت بالتوحيدي أو من رواها، لتشكل مؤثراً على المتلقي.

---

(١) الصداقة والصديق: ١٦٩-١٧٠.

(٢) ينظر: الرسالة الأدبية: ٥٦٨.

(٣) أبو حيان التوحيدي: ١٤٤.

ثانياً: الحكمة:

قبل الوقوف على مضامين الحكمة في كتاب الصداقة والصديق لا بدَّ أن نؤسس لها على النحو الآتي:

- **الحكمة في اللغة:** عرَّف ابن فارس الحكمة قائلاً هي" تمنع من الجهل"[١]، وبينها ابن منظور قائلاً هي: "الحكيم ذو الحكمة والحكمة عبارة عن معرفه أفضل الأشياء بأفضل علوم والحكمة: العدل و رجل حكيم: عدل حكيم"[٢].
- **الحكمة في الاصطلاح:** عرَّف الشريف الجرجاني الحكمة قائلاً" تجيء على ثلاثة معاني: الأول الإيجاد والثاني العلم والثالث الأفعال المثلثة كالشمس والقمر وغيرهما، وقد فسَّر ابن عباس(**٦٣هـ**) **(رضي الله عنه)** الحكمة في القرآن الكريم بتعليم الحلال والحرام وقيل: الحكمة في اللغة العلم مع العمل وقيل الحكمة يستفاد منها ما هو الحق في النفس الأمر بحسب طاقة الإنسان وقيل كل كلام وافق الحكمة فهو حكمة وقيل :الحكمة الكلام المعقول المصون عن الحشرة"[٣] ولقد وردت الحكمة في كتاب الصداقة والصديق، إذ وظفها التوحيدي قائلاً:" **كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية قاعداً في مجلس، والمستملي في حدته، فجلس إليه فتى وأراد أن يكتب فقال له :أيها الرجل استمد من محبرتك، قال :لا، فانكسر الرجل، فأقبل عليه أبو داود، وقد أحسن بخجله :أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان، فقد استوجب بالحشمة الحرمان، فكتب الرجل من محبرته، وسمي أبو دأود حكيماً**"[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٣٠١/٢.

(٢) لسان العرب: ١٤١/١٢.

(٣) التعريفات: ٩٦.

(٤) الصداقة والصديق: ٤٢-٤٣.

وظف التوحيدي هذه الحكمة ليؤكد مساراً اخلاقياً ورابطاً إنسانيا يحقق تواداً بين الاصدقاء وهو توظيف مضمون **(الاستئذان)** بوصفه موضوعاً أخلاقي يُجنب الآخر خجلاً و حراجاً بحسب موضع الحاجة.

إنَّ هذه الحكمة تمثل ميزانا للأخلاق التي تقوم من خلالها سلوكيات الإنسان المرتبطة بالدين في توجيه تصرفات الفرد الإنساني توجهاً صحيحاً أي تدخل ضمن مضامين المسؤولية الكلمة والشعور بالحادثة، فضلاً عن تعريف المتلقي بالحسن والقبيح وهدف التوحيدي من هذه الحكمة إرتقاء الإنسان بشأنه وإيصاله إلى مكان تليق به[١].

لقد حققت القيمة الإبداعية عند التوحيدي توضيحاً لهذه الحكمة، إذ إنَّه" امتلاك الكاتب ناصية اللغة امتياز يرفعها عن تلال بقدر ما يمنعها من الإفصاح أقصد الافصاح السهل المبتذل ويعطلها على أن تكون لغة أي أداة تفهم وإتصال امتلاك الكاتب ناصية اللغة يغال في الصمت واعتناق للوحشية في اللغة تبتعد بقدر ما تكتشف وتنقطع بقدر ما تعرف وتنحسر ضمير المخاطب بقدر ما تربح ضمير المتكلم[٢].

خلاصة القول إنَّ الحكمة عند التوحيدي لم تحقق حضوراً وافرا بسبب العمق الذي يحتاج إلى رؤية من قبل المتلقي؛ ليتمثلها في ذهنه وتكون ذات مقبولية عنده، وسعى التوحيدي إلى المباشرة وهذا لا ينطبق كثيراً على الحكمة، وبهذا ذهب إلى عدم الإكثار منها في كتابه حتى تكون هذه المختارات من النصوص الأدبية رسالة تحاكي المتلقي في قصديتها المباشرة.

---

(١) ينظر: الفكاهة في النثر العباسي: ٣٧.

(٢) ينظر: التوحيدي المغامرة اللغة الطقسية: ٢٩٣.

ثالثاً: الوصايا:

وردت الوصايا في كتاب الصداقة والصديق إلا أنَّه لا بدَّ من الوقوف على مفهومها في اللغة والاصطلاح وهي على النحو الآتي:

حظيت الوصايا بمكانة خاصة عند العرب من القدماء وحتى وقتنا الحاضر، ولقد شكلت القيمة النثرية للوصايا حضورها في المدونة العربية بشكلٍ وافرٍ، وقبل الوقوف عليها في كتاب الصداقة والصديق سنعرفها في اللغة والاصطلاح وهي على وفق مايأتي:

- **الوصايا في اللغة:** ذهب الازهري(٣٧٠هـ) إلى إنَّ الوصية هي من" وصا الشيء يصي: إذ اتصل ووصاه غيره يصيه: وصله"[١]، وقال ابن فارس كذلك أن " الوصية من هذا القياس كأنه كلام يوصي أي يوصل"[٢].

وكذلك دلت الوصية كما ذهب الزبيدي إلى أنها" وأوصاه إيصاء ووصاة توصيتا إذا عهد اليه"[٣]، وذهب ابن منظور إلى أن الوصية هي من "أوصا الرجل وصاه: عاد اليه"[٤].

دلَّ المفهوم المعجمي للوصايا إلى الإتصال والارتباط وعدم القطيعة بين الناس.

- **الوصايا في الاصطلاح:** عرفت الوصية في الاصطلاح على أنها " وصيتان: وصية الاحياء للأحياء وهي أدب وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحذير من زلل وتبصر بصالح العمل ووصية الأموات بحقي

---

(١) تهذيب اللغة: ٣/٣٢٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٢٠٧.

(٣) تاج العروس : ٣٠ / ١٩٨.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٣٤٩.

يجب عليهم أدائها ودين يجب عليهم قضاؤه"[١] وعُرفت كذلك من قبل المعاصرين على أنها نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة تنتقي ألفاظها انتقاءً ممتازاً يطلقها مجرب حياة ومختبر دنيا فيشرع فيها نهج القوي من السلوك التنظيمي لإنسان عزيز عليه أو مهم لديه يبصره ما ينبغي عليه أن يفعله فيما يستقبل من حياة إذا أذلهم خطب أو حسب أمراً في مجالات الحياة المتعددة الأطراف المترامية جوانب وليست من شروطها الانتقال والموصى على فراش الموت"[٢].

ولقد وردت الوصايا في كتاب الصداقة والصديق ومنها قوله: **وحدثت أن رجلاً قال لسفيان الثوري ": أوصني: فقال: أقل معرفة الناس، وأنكر من تعرفه منهم، وأبدأ بي، وأغضب من شئت ودس من يسأله، فو الله لو لا خيت رجلاً في زمانه فغضب لما أمنت أن يترامى به غضبه إلى سفك دمي، وأفرط أعزك الله مفرط في هذا الزمان فقال: لا أقول كما قال سفيان لنقصان دهرنا عن دهره، ولكني أقول: أرض من شئت، ودس من يسأله عنك، وما أنكر لكثرة الشر في الناس أن يكون جواب كثير ممن يرضى مثل جواب من يغضب، إلا أني أرجو أن لا تكون هذه القضية عامة"**[٣].

في الوصية أن رجلاً وهو سفيان الثوري قال وصيةً وهي وصية اتسمت بوجود موقفٍ من هذا الرجل اتجاه المكان الذي يقطنه أو البيئة التي يتواجد فيها، إذ طلب طلبات لا تمت بصلة الرحم ولا التواد الاجتماعي ولا التكافل وهي مضامين قدمها القرآن الكريم والحديث النبوي المبارك، إلا إن سفيان الثوري قال سأرضي من شئت وغيره من الوصايا فإرضاء من شاء وعدم الإنكار ما هي إلا أهداف سامية تقدم خدمة للمجتمع وبهذا يكون

---

(١) لباب الآداب: ٨.

(٢) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام: ١٧١.

(٣) الصداقة والصديق: ٣٠٨-٣٠٩.

التوحيدي كسب رسالة تقدم وعياً ورصداً لحوادث اجتماعية ورفقاء قد يكونوا ليسوا بصالحين تأتي بهم وصايا لا تكون بقدر الحدث الذي في حينه عليه.

إن هذه التجربة الإنسانية التي تحققت في ضوء الوصية حققت تواشجاً بين التجربة والمتلقي، فقد وظفها التوحيدي في كتابه؛ لتكون تحقيقاً لمبتغاه، وهو جزء من العملية الإبداعية لدى التوحيدي التي اتسمت بالذهن الوثيق والفهم الدقيق الذي ألقى به في هذه الاختيارات المائزة التي تقدم تصويرا لحالة معينةً[1].

وهنا يكون التوحيدي موثقاً للقيم التاريخية بأسلوبه الأدبي الذي عُرف بتعبيره وهدفه من وراء هذه الممارسة البلاغية الإبداعية.

والخلاصة أن الأجناس الأدبية التي وردت في هذا المبحث لم تحقق حضورها الوافر في كتاب الصداقة والصديق مقارنة مع الأخبار والرسائل، وقد يعود السبب في ذلك إلى مضامين هذه الأقسام النثرية التي لا تقدم قصدية مباشرة للمتلقي، بل تذهب إلى القيم التأويلية وهذا ما حاول التوحيدي الابتعاد عنه؛ بغية تصدير ثقافته إلى الآخر من حيث ما مرَّ به من تجارب على وفق المضامين التي وردت في هذا الكتاب.

---

(١) أنماط الشكل التعبيري في كتابات أبي حيان التوحيدي: ٤.

الفصل الثالث

(الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة)

المبحث الأول: الأحاديث النبوية وأقوال أهل البيت

المبحث الثاني: أقوال الفلاسفة الغرب

المبحث الثالث: الأقوال عند الفلاسفة الشخصيات العربية

توطئة:

تمثل الأحاديث النبوية الشريفة أحدى الوسائل التي أفاد منها التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق، إذ وظفها؛ ليشكل طريقاً يقدم من خلاله رسائله التي ترمي إلى الطابع الإنساني الاجتماعي، وكذلك حقق التوحيدي بالأحاديث النبوية تكثيفاً في جمع وعي المتلقي بوصفه الأقرب إلى ذهنه بعد النص القرآني المبارك، فضلاً عن الأقوال المأثورة لأهل البيت الكرام(**عليهم السلام**)، وكذلك الأقوال المأثورة لفلاسفة الغرب والعرب وعدد من الشخصيات التاريخية، وبهذا يكون التوحيدي أفاد من هذه الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة في تحقيق التحول الممنهج في ذهن المتلقي وتقريب الصورة التي أراد غرسها في ذهنه، عن طريق القيم الفنية والإبداعية الموجودة داخل هذه الأحاديث والأقوال رافضاً في ضوئها كل شيء يهدد سلمه النفسي وسكونه الذي عُرف به، إذ يوصي ويقدم نماذجاً من الصداقات التي لا بدَّ أنْ تكون بالصورة التي يراها مناسبةً وتخدم كلا الطرفين مع تقديم صورةً حضاريةً واعية خالية من الزيف في التعبير عن الحب أو حتى في كل ما يتلاءم وطبيعة الفرد الإنساني[1]، وتعدد المشارب الفنية عند التوحيدي جعلت النثر الذي يوظفه ينماز بالتنوع ولكن الهدف وأحد، فهو يتنقل بين التقليدي والإبداعي؛ ليحقق مبتغاه في كتابه؛ كون الكتاب يقدم لنا الشخصيات" الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والثقافية والدينية والعلمية"[2]، وهو جزء من وعي الكاتب وطريقته في تقديم منتجه الثقافي التوعوي إلى المتلقي.

إنَّ التوحيدي بهذا التوظيف حقق رسماً للمشاهد الواقعية بصورة أدبية تمثيلية تركز على أهم عناصر السرد والحوار بالصور المثيرة للمتلقي

---

(١) ينظر: موقف الشعر من الحياة و الفن في العصر العباسي: ١٢٢-١٢٣.

(٢) النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٣٧.

والذائقة مستنداً في ذلك إلى سعة مرجعياته الثقافية وغزارة إنتاجه، وتنوع فكره وروافده[١]، وهذا التوظيف يريد تجاوز كل ما يشوب العلاقات من الكذب؛ كونه "شعارَ خلقٍ، ومِوردَ رنق، وأدبَ سيء، وعادةً فاحشةً، وقل من استرسل فيه إلا ألفه، وقل من ألفه إلا أتلفه"[٢]، فثقافة التوحيدي تؤكد أنها مدونة علمية وافرة الإشارة بالمتعدد الثقافات واسعة الأفق متعددة الرؤى، اكتسب هذا من الإطلاع الوافر على الحقول المعرفية التي اشتغل فيها التوحيدي إلا أن طبيعة الأقوال الواردة في كتاب الصداقة والصديق تؤكد أنها ذات رؤى متقاربة تبعث برسالة قصدية مباشرة؛ بغية إحياء ما اندثر من مضامين إنسانية وأخلاقية نتيجة الظروف التي أحاطت بيئته آنذاك.

فالتوحيدي وأسلوبه في الكتابة يجعل الكلمة مفرغة من "شحنتها الموروثة التقليدية و يملؤها بشحنه جديدة تخرجها من إطارها العادي ودلالتها الشائعة"[٣]؛ ليمنحها قيمةً اجتماعيةً هدفها الأول بث تجربته التي مرت عليه وهذا ما سنجده في الفصل وهي على النحو الآتي:

---

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ١٠٩-١١٠.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٧٤.

(٣) الحداثة الشعرية: ٤٤ – ٤٥.

المبحث الأول

الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال أهل البيت

كثرت الدراسات في هذين المحورين إلا أنَّني بصدد الوقوف عندهما من جنبة مختلفة، وهي دورها في إحياء مضامين اجتماعية قد تلاشى بعضها، وسيتم الحديث عنهما على وفق ما يلي:

أولاً: الأحاديث النبوية الشريفة:

دأب الباحثون في دراسة الأحاديث النبوية الشريفة بمختلف الاتجاهات، إلا أننا اليوم في صدد الحديث عنها في كتاب الصداقة والصديق، إذ وظفها التوحيدي؛ ليصحح مساراً ويبني متلقياً عارفاً بحقيقتها التي غرسها هذه الأحاديث ووضحتها، ومن بين الأحاديث التي وردت في كتاب الصداقة والصديق هو قول النبي محمد **(صل الله عليه وآله وسلم)**"**تصافحوا فإن التصافح يذهب غل الصدور، وتهادوا فإن الهدية تذهب السخيمة**"[1].

وظف التوحيدي الحديث النبوي المبارك؛ ليحقق من خلاله نصحاً وارشاداً وتوجيها بطابع مستمر؛ نتيجة لتوظيفه الأفعال المضارعة**(تهادوا وتصافحوا)**، فضلاً عن ذلك قصد التوحيدي بتوظيفه هذا القول لتحقيق قصديةً مباشرةً خالية من التأويل، فالرسول**(صل الله عليه وآله وسلم)** يريد أن تكون المصافحة والتهادي طريقاً لتحقيق النفس المطمئنة والمحبة الدائمة.

إنَّ توظيف النص الحديثي في كتاب الصداقة والصديق يؤكد إحياءً للإرث النبوي المبارك، وإيقاظاً للذاكرة وانعاشاً للنفس ونمواً للوعي الجمعي؛ لما تحمله هذه الأحاديث من طابع روحاني وقيمة للكتابة، ونسج للنصوص وتعالق مع الوعي التاريخي للفرد العربي في كل زمان ومكان.

---

(١) ميزان الحكمة: ١١٦/٢، وينظر: الصداقة والصديق: ١٨١.

إنَّ فكرة توظيف الحديث النبوي الشريف تؤكد القيمة العقلائية والمنهجية ذات القصد المباشر والدلالة المعرفية الحية التي تحقق المعنى اللغوي والقيمة الإنسانية في ضوئها[١]، فضلاً عن تأويل البعد الاجتماعي الذي نتلمسه من خلال هذا الحديث، وهنا يتأكد حضور المتلقي بمختلف مستوياته المعرفية.

لم يتمكن التوحيدي من أحداث قيمة تخييلية داخل الحديث النبوي الشريف؛ لقدسيته من جهة وثباته في المدونة النبوية من جهة أخرى، إلا أنَّه حقق حياة إنسانية رغيدةً للفرد الذي يقف عند الحديث و يتمسك به ويوظفه في حياته عملياً، إلا أنَّه قد بنى عالماً من وعيه وعمق تجربته وفكره، وهذا يؤكد نمو الوعي الأخلاقي داخل الأفراد[٢]، الذين هم الهدف الرئيس للتوحيدي في محاولة منه لبناء ذواتهم.

ولقد ورد الحديث النبوي الشريف في كتاب الصداقة والصديق" **رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس**"[٣].

يقدم التوحيدي رسالةً وافيةً لها من القدسية ما يجعلها أكثر حضوراً في نفس المتلقي وهو اختيار وافٍ أكد فيه التوحيدي رسالته الاجتماعية التي تميل إلى تقريب المتباعدات ومسج المتقاربات؛ لتكون لوحةً إنسانيةً بهدف إحياء مآثر قد دثرتها بعض التجارب التي تخطت هذه الأسس الأخلاقية.

يحقق النص عن طريق منتجه مراعاة لتوقعات المتلقي أي أنَّه لم يحدث خللاً في رؤيته أو كسراً لأفقه بل على العكس حاول أن يخلق قاعدةً تتبع هذه المضامين من حيث المعتقد والثقافة والميول وغيرها[٤]، وهنا قدم

---

(١) ينظر: أطياف النص دراسات في النقد الإسلامي المعاصر: ٤٠.

(٢) ينظر: القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل: ٩٩.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦-٢٩٥، وينظر: الصداقة والصديق: ٢٢٣.

(٤) ينظر: التلقي إلى الصحيفة السجادية دراسة تطبيقيه في النقد العربي الحديث : ٨٩.

التوحيدي طريقاً مرَّ بعددٍ من المحطات تبدأ بتجربة الذات وتنطلق إلى الآخر؛ لتولد تجليات وإشراقات إنسانية لا تتلاشى وتؤكد إحقاق الحق وهذه هي خصلة من خصاله ببقائه على صفة من صفات الحق.

إنَّ هذا الطرح الذي يقدمه التوحيدي هو نتاج تواشج عنصري العاطفة والانفعال، بوصفها المكون الرئيس لاختيارات التوحيدي في هذا الكتاب فهو تجاوز عناصر المغالاة والتفخيم والتزويق اللفظي إلى المباشرة؛ ليحقق فيها صدقاً إنسانياً قبل أن يكون فنياً وهذا الانفعال الذي رصد داخل هذا الكتاب يؤكد أنَّه كان مثقلاً بالهموم وجاءت هذه الرسائل؛ لتكون انتقالة من الجلوس إلى الحماسة ومحاولة منه لإشاعة هذه الروح الإنسانية أي أن ما يحصل للتوحيدي هو انعكاس لروحه وطبيعته النفسية والمزاجية التي يحاول تصحيح المسار على وفقها ووفق التجارب التي أخذت به إلى هذه المزاجية[1].

ثانياً: أقوال أهل البيت(عليهم السلام):

إنَّ الحديث عن فكر أهل البيت(**عليهم السلام**) يتطلب مساحةً واسعةً فقد تناولته أقلام المؤلفين من كل جهة وصوب، ولا تزال الدراسات مستمرةً في هذا الفكر لما له من مرجعية دينية رئيسة مؤطرة بإطار الإنسانية لتقدم إرشاداً وتوجيهات ونصحاً إلى المتلقي، وحتى أنَّ من جاء بعدهم تناول عنهم وصار يذكر أقوالهم ويستشهد بها لما لها من أثر في النفوس والحياة على وجه العموم، وإذا ذهبنا إلى الإمام علي (**عليه السلام**) وجدنا نهج البلاغة هو الرافد الأول لأقواله وخطبه وما ورد فيه من حكم وأدب وتاريخ وفلسفة وكل ما يقدم للفرد الإنساني من مواعظ حياتية وحكم أخلاقية تأخذ به إلى بر الأمان و إلى الرُقي المعرفي والإنساني، فضلاً عن ذلك دور السيدة

---

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٢٣٢.

الزهراء(**عليها السلام**) في حياتهم وارتباطها بالنبي محمد(**صل عليه وسلم وآله وسلم**) وأبنائه وأحفاده الإمام الحسن والحسين وباقي العترة المباركة(**عليهم السلام**).

إنَّ الأئمةِ (**عليهم السلام**) تلقوا " المعارف والأحكام والإلهية وجميع المعلومات عن طريق النبي أو الإمام من قبله وإذا استجد شيئاً لا بدَّ أنْ يعلمه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه فإن توجه إلى شيء وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقي لا يخطأ فيه ولا يشتبه ولا يحتاج في ذلك إلى البراهين العقلية ولا إلى ترقينات المعلمين"[١]، ومما تقدم لا يعني الوصول إلى مرحلة التقديس المنحرف عن الدين أو التخلي عن عبادة الله سبحانه وتعالى بل يقودنا إلى مديات الارتباط بين فكر أهل البيت (**عليهم السلام**) ومرجعياتهم الإلهية القرآنية النبوية.

وردت أقوال أهل البيت(عليهم السلام) في كتاب الصداقة والصديق للتوحيدي، إذ وظف في قول الإمام علي (**عليه السلام**) "**شر الأخوان من تكلف له، وخيرهم من أحدثت لك رؤيته ثقة به، وأهدت إليك غيبته طمأنينة إليه**"[٢].

وظف التوحيدي قول الإمام (**عليه السلام**)؛ بغية تقديم مقارنة بين فردين أحدهما يتجه باتجاه الخيرِ والآخر باتجاه الشر، وهذه المتضادات غايتها توثيق فكرة أرادها التوحيدي.

إنَّ عمق الوعي عند التوحيدي وصدق تجربته في كتاب الصداقة والصديق منحته القدرة في التمحيص باختيار هذه الأقوال؛ لتحقق القيم

---

(١) عقائد الأمامية: ٥٦.

(٢) الصداقة والصديق: ٦١.

الإدراكية لدى المتلقي، وبهذا يكون التوحيدي عارفاً بالقيم التي تحقق منجزها الفكري عن طريق وعيه بالمتلقي الناتج عن ارتباطه الشديد بالبيئة.

إنَّ التصور الذي قدمه التوحيدي بطبيعته الأدبية وخلفيته التاريخية يؤكد أن " الإطار الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية الخارجية عن نطاق الجمالي تقرب بدورها في تأسيس المعايير وتغييرها؛ لأنها تسهم في تغيير أفق الجمهور"(١)، ممَّا تولد وعياً متجدداً.

وتذهب الدكتورة نادية هناوي إلى أنَّ هذه الرؤى لها مرجعياتها التي تفرض سلطانها" على المنشئ في إنتاجه وقد تكون هي نفسها التي تخلق القراءة عند القارئ وسيرها بمسارها الخاص"(٢)، وهذا يؤكد سعي التوحيدي إلى محاولة التوحيدي في تنقية مجتمعه من الدخيل غير النافع.

وظف التوحيدي قول الإمام جعفر بن محمد الصادق **(عليه السلام)**، إذ قال "**لن لمن يجفو فقل من يصفو**"(٣).

وظف التوحيدي هذا القول في كتابه؛ ليضع صفاتٍ لا بدَّ أن تكون متلازمة بين الصديقين و هي اللين والصفاء، إذ لا تدوم هذه العلاقة من دون هاتين الخصلتين أي أن العلاقات الإنسانية تدوم عن طريق هاتين الصفتين، وعليه لا بدَّ من توافرها في علاقات الصداقة والاخوة، فضلاً عن ذلك القيمة اللغوية وتوظيفه للفعلين**(يصفو و يجفو)** وغايتها منح دلالة استمرارية لهذه الفكرة، أي أن الفكرة الصادقة والمحبة تدوم بهاتين الصفتين والابتعاد عن الجفاء والتقرب من الصفو.

إنَّ خاصية القصدية المباشرة الذي أنشأ بهذا النص في كتاب الصداقة والصديق هو نقل لخطاب التوحيدي وما يجوب بصدره، فالحوادث

---

(١) نظرية التلقي والنقد العربي الحديث: ١٧.

(٢) تعدد القراءة الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع الهجرة: ٨٣.

(٣) الطبقات الكبري للشعراني لوافح الانوار في طبقات الاخيار: ١/ ١٧٣.

التاريخية وطريقه كتابتها عن طريق المؤرخ التوثيقي جعلها التوحيدي أدباً عن طريق" تجارب الأمم وكأنه يشاهدها بعينه وقد عادت إلى الحياة أو كادت تتجلى له العبرة في مراه عقله"[١].

إنَّ النص الذي نحن بصدده يوفر وعياً لغوياً ونسقاً في النظم الإبلاغي، أراد منه الأديب إتمام قصدية عن تلقي النص وتدبره بنسيجة النهائي الذي يقدم رسالةً اجتماعية تهدف إلى رصف المتباعدات من المضامين المجتمعية التي عرفها المجتمع العربي.

إنَّ طبيعة الأسلوب الذي إنماز بالمباشرة والفصاحة والتواصل مع اللفظ وهو تفكير ينتمي لتفكير المثقفين أمثال التوحيدي الذي يختار النصوص ليوظفها في كتابه، فالكلام في النص اختزل تجربة كبيرة بمضامين لغوية موجزة، ومعانٍ واضحة[٢]، فضلاً عن ذلك أنه استعمال الخطاب المباشر والحوار غير المبطن، وكذلك تكثيف القيم اللغوية التي تؤكد خضوع النص إلى بعدٍ تخييلي ذي حبكة يراد منها تقديم كشف واضح للمتلقي بحقيقة وعمق تجربته، بأهداف إنسانية وقيم أدبية تُمتع القارئ وتقوي إقناعه بما يريد تأسيسه عن طريق السمة التخيلية في البعد التاريخي للحكاية أو القول أو القصة[٣]، وهنا يكمن قيمة الأسلوب الأدبي لدى التوحيدي في طريقة عرضه للحدث المنقول.

---

(١) المرجعي والتخييلي في الكتاب التاريخي حتى مطلع القرن الخامس الهجري مقاربة سردية تداولية: ٤٣٥.

(٢) ينظر: تكنو ثقافة الرواية في تداول المعرفي: ١٦٥-١٦٦.

(٣) ينظر: المرجعي والتخييلي في الكتابة التاريخية حتى مطلع القرن الخامس الهجري مقاربة سردية تداولية: ٣٦٨.

وأيضاً ورد قول للإمام جعفر بن محمد الصادق(**عليه السلام**) وظفه التوحيدي في كتابه قال فيه" **من أفطر من أجل أخ له، ثم لم يمنن عليه عدل له ذلك بصيام شهر**"[١].

إنَّ المتتبع لقول الامام الصادق(**عليه السلام**) يلحظ فيه طابعاً توجيهياً تفرزه لغة المجاز الموجودة داخل النص فهو لا يدعو إلى ترك الصيام بقدر ما يدعو إلى أهميه الصديق وكيفية الحفاظ عليه وعدم التفريط به، وكذلك هذا التنبيه قدم مفارقةً لكسر التوقع، فالمتلقي قد يتوقع حضور دعوة إلى إكمال الصيام والتفضيل على الصديق، إلا أنَّ القول جاء بمخالفه لهذا التصور وحقق بعداً جمالياً في هذا القول إلا أن الغاية من هذا القول في اللغة المجازية هو تحقيق التواد والتراحم وتوطيد أواصر المحبة.

إنَّ توظيف الحديث المبارك يؤكد لنا أن التوحيدي كان عارفاً بالطريقة التي تحقق الأثر في النفس الإنسانية ومدى إدراكها لهذا القول وللشخصية القائلة داخل النظام الكوني الذي تحقق في ضوئه الإدراك، فضلاً عن الإطار النظري المولد للمعنى المستعمل في الإفهام والتفسير والتحليل والمنتج لقصدية منتج النص وهو الإمام الصادق(**عليه السلام**) وما يحققه من امتداد التوحيدي اللاهي والرعاية المحمدية للقيم الدينية ذات الطابع التقاربي التوادي التراحمي، وهو جزء من الزاوية المعرفية ذات الارتباط الاجتماعي[٢]، التي سعى التوحيدي للنهوض بواقعها الإنساني.

وهنا يتأكد سعة المرجعيات الثقافية للتوحيدي الذي أنتج لنا ألوانَ البراعةِ في التوظيف والاقتباس والربط وصناعة النص بطريقة أدبية تحاكي المتلقي بجمالية المعنى وقصدية النص المباشرة وروعة الأسلوب، وما نلمسه من كتابات التوحيدي أنها لا تخلو من إشارة واضحة إلى أهمية حضور

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٤١.

(٢) ينظر: الوحي والتاريخ والمنظور المعرفي التوحيدي: ٦.

المتلقي في الكشف عن قيمة النص وتأثيره من خلال البواعث المؤثرة فيه[١] سواء كانت نفسية أو لغوية أو ما شابه يربط بين المتلقي وعالم النص الأدبي وما يحتويه من عوالم مصغرة تتواشج مع القلب والنفس والعقل والفهم.

وظف التوحيدي قولاً آخراً للإمام محمد الباقر **(عليهما السلام)** قال لأصحابه" **أ يدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذا بإخوان**"[٢].

قدم التوحيدي من خلال قول الإمام **(عليه السلام)** نقطة التقارب بين الصديقين في ضوء وضع اليد في الكم وهو **(الجيب)** الذي يضع به الفرد ما يمتلكه من أموال عند خروجه أو دخوله وبهذا يكون الإمام**(عليه السلام)** وضع تصنيفاً واضحا لقرب العلاقات بين الاصدقاء التي تتخللها هذه الفعالية التي لا يمكن التمييز بين الدائن والمدين فيها.

وفي هذا التوظيف قدم التوحيدي وحدةً للموضوع، إذ جاء برسالة إنسانية تقدم هدفاً اجتماعياً يتصل بالصداقة والصديق وما هي الفوائد التي ينتفع منها الصديق وما التي لا بدَّ أن ينتفى منها في صديقه لما في الصداقة من مسالك العقلِ وباب المروءة وأرمى إلى حدود الرشاد والأخذ بالسداد[٣].

إن التوحيدي في هذا التوظيف سلك مسلكَ الأمان والسكينة حينما سكن بين متصوفي شيراز ووجد بينهم الراحة النفسية فهم قوم صداقتهم في

---

(١) ينظر: التفكير السيميائي في اللغة والأدب دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي: ١٣٦.
(٢) الصداقة والصديق: ٤٤، وينظر: شرح إحقاق الحق: ٢٨/ ٢٦٦.
(٣) ينظر: الصداقة والصديق: ١٢٠.

لله لا في الدنيا[1]، وقد يكون هذا هو السبب الرئيس في توظيف هذا القول؛ ليؤكد عمق العلاقة بين الصداقة بوصفها مكاناً وملاذا في كل وقت وحين.

خلاصة القول إنَّ الأحاديث النبوية المباركة التي وظفها التوحيدي وكذلك أقوال أهل البيت **(عليهم السلام)** أفاد منها إفادة وافية في تقريب معاني الصداقة وتحقيق أطرها الحقيقية في ضوء ما طرح من أبعاد إنسانية بقيم جماليةٍ حققت تخييلاً واسعاً للمتلقي عن طريق أخذ هذه الحقائق التاريخية وتوظيفها أدبياً لأخذ المتلقي إلى قصدية منتج النص المباشرة التي من خلالها وظف التوحيدي هذه النصوص المباركة، ولقد تحقق ذكاء التوحيدي بمجمله باختياراته لهذه الأحاديث والأقوال لأهل البيت**(عليهم السلام)** لما لقائليها من تأثير في الساحة الإنسانية والدينية والعربية على وجه العموم، فضلاً عن ذلك جاء بهم لما لهم من مصداق في هذا المكان وما يفرزوه من حضور ذهني لدى الوعي الجمعي من قيم ومُثل عليا ترتبط بالدين والإنسان والأخلاق والأواصر الاجتماعية، فالتوحيدي سعى لتحقيق هدفٍ اجتماعيٍ للحد والقص من الظواهر السلبية أو الدخيلة على مجتمعه التي أخذت بتقديم مضامين على أخرى ومن بين هذه المضامين التي قدم عليها هي مضامين الصداقة.

---

(١) ينظر: الصداقة والصديق: ٢٩١.

المبحث الثاني
أقوال الفلاسفة الغرب

يمثل أبو حيان التوحيدي رمزاً لامعاً ومفكرا عربيا وأديبا بارزا حتى أنه عُرف بلقب **(فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة)**؛ لما احتوته كتبه من عمق الفكرة وأناقة العبارة ورشاقة الأسلوب ودقة الاختيار من أجل ذلك فإنَّ بعض المؤرخين يلقبونه بـ**(الجاحظ الثاني)**، وعلى الرغم مما تقدم من هذه المزايا نجد أبا حيان التوحيدي كان سيء الحظ مُضطهداً محدود الرزق عمل بالوراقة والنسخ أحيانا وكذلك في خدمة الوزيرين، ولم يكن موفقاً في كثير من مضامين حياته ومن بينها الصداقة[١]، وكذلك التجارب التي مرت عليه جعلته يتخذ من هذا الكتاب طريقاً للبوح بوحاً تاماً لما في صدره من ملامح ترتبط بهذه المضامين الاجتماعية التي بدأ ينتقض العهد فيها بخلاف ما كانت عليه في السابق.

طَرَقَ التوحيدي باباً مغلقاً تم فتحه لما له من تجارب في هذا المضمار، فكتاب الصداقة والصديق وظف فيه عدداً من أقوال الفلاسفة التي تتناسب موضوع كتابه، فسعة الإطلاع لدى التوحيدي منحته مرجعياتٍ ثقافية متنوعة أفاد منها في كتابه ومنها البُعد الفلسفي، إذ اختار قول للديوجانس[٢].

قال فيه "بم **يعرف الرجل اصدقاءه، قال: بالشدائد، لأن كل أحد في الرخاء صديق**"[٣].

---

(١) ينظر: أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة: ٣-٤(المقدمة).

(٢) ديوجانس: وهو فيلسوف من اليونان عاش في حقبة مابين ٤١٣-٣٢٧ قبل الميلاد ويعد أحد أنصار المدرسة الكلبية، ويذهب إلى أن الرياضة البدنية والنفسية للكثير من رق الأهواء. ينظر: نقض أصول العقلانين، ابن حجر الهيتمي(٩٧٤هـ: ١/ ٣٢.

(٣) الصداقة والصديق: ٧١.

وظف التوحيدي هذه المقولة؛ ليثبت فيها حديث العرب الصديق عند الضيق، إذ نلحظ أن القول حقق تناغماً وفكرة التوحيدي التي بنى كتابه في ضوئها وهي تقديم رسالة اجتماعية تهدف إلى ترميم ما هدمته الأفكار الدخيلة على الفكر العربي الإسلامي من وجهة نظره؛ لأن التوحيدي يؤمن" بأن الإنسان يعيش في تشويش تام في كل ناحية من نواحي الحياة مع أن الله خلق العقل؛ ليكون مقياسَ الإنسان"[١]، وهذا الرؤية للتوحيدي تؤكد مديات معاناته الكبيرة؛ نتيجة الأحداث الحاصلة آنذاك.

لقد حقق النص قيمة صورية حملت في طياتها المعنى أي إن نصوص التوحيدي تحقق اهتماماً بالغاً بالبنية الصورية التي تعكس اللغة وتحرص حرصاً شديداً على العلاقات المتبادلة بين الجمل؛ لتحقق قصديتها في ذهن المتلقي، فالتوحيدي هو المفكر الذي يستعمل اللغة استعمالاً متنوعاً من حيث الجمل وهذا يؤكد القيمة العالية ومعرفته بالجذور الدلالية للكلمات[٢]، فضلاً عن ذلك أن الناحية الفكرية التي تدور في فلك التوحيدي يؤسسها الباعث الفلسفي الموجود لديه التي يسعى إلى معرفة الحقيقة الاستدلالية التي يقوم العقل عليها في تفسير الحقائق والوجود وإشكاليات الإنسان التي تنضوي تحت فكرته[٣] وبهذا جعل التوحيدي النص بؤرة تحفظ ديمومته وقدرته على الانسجام مع متغيرات المكان والزمان بمعنى خلق فهماً جديدا ومتطورا للحقيقة.

إنَّ التوحيدي في هذا النص أراد تقديم عملية تذكيرية ذات باعث نفسي تتم في مجال النفس الإنسانية بمساعدة هذه الحواس؛ لتحقق تأثيرها

---

(١) ثيولوجيا التشيع السياسي بين حق الله والشعب وواقع الممارسة: ٨٥.

(٢) ينظر: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس: ٢٥-٢٦.

(٣) ينظر: بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، والوظائف، والتقنيات دراسة: ٥٣.

بالعالم الخارجي ومن ضمنها المتلقي لتقدم له صور الحياة الاجتماعية بعملية إدراكية تقوم بها النفس عن طريق التذكير ومؤسسها الأول الذاكرة[١].

وكذلك وظف التوحيدي قول الفيلسوف لثيفانوس الفيلسوف "**من صديقك؟ قال: الذي إذا صرت إليه في حاجة وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها منه**"[٢].

إنَّ المتتبع للنص الذي وظفه التوحيدي يجد أن التوحيدي قد مرَّ بتجربة مريرة بهذا المجال، إذ لقى رفضاً من أحد أصدقائه أو عدم الاهتمام بقضاء حاجته لذا كان هذا القول أقرب إلى أن يكون رسالةً شديدة اللهجة من التوحيدي إلى أحد أصدقائه بقصدية مباشرة خلت من التأويل لتأكيد شدة التجربة وصعوبتها على التوحيدي الذي وجد هذا الصديق ناكراً لهذه العلاقة الوطيدة، وما يؤكد هذه الدعوة هي بداية النص الاستفهامية **(من صديقك)** الذي أراد من خلالها التوحيدي التأكيد على عدم الاستقرار والحاجة إلى التوضيح عن قيمة الذي نكره.

إنَّ ما يؤكد هذه الرؤية البيئة الاجتماعية وحتى السياسية التي عاش في حقبتها التوحيدي وطبيعة الفوضى التي تحققت بحكم بني بويه وقد انعكست هذه المظاهر على الحياة الاجتماعية وأسلوب المعاش وطبيعة العلاقات، فضلاً عن ذلك أن التوحيدي" لم يكن أديباً متفلسفاً بحسب بل فيلسوفا بالذات"[٣].

فشدة التجربة وعمق الإحساس عند التوحيدي جعل هذه المرارة والوجع الداخلي نصاً وظفه في كتابه ليحقيق تجاوزاً لتجربته عند الآخرين، وتحقيق النضوج الفكري عن طريق هذه التجربة لدى المتلقي، وتخرج هذه

---

(١) ينظر: فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي: ١٦٩.

(٢) الصداقة والصديق: ٧١.

(٣) أبو حيان التوحيدي مغترباً: ٢٦.

الأفكار من رجلٍ عرف بقدرته "العقلية والنفسية والروحية الكبيرة تؤهله لأعلى مراتب المجد واسما مكانه اجتماعية يمكن أن يصب إليها"[١].

إن اختيار التوحيدي حقق خطاباً عن طريق اللغة ببُعدها الجمالي والعقلي؛ وذلك ليحقق هدفاً اجتماعياً ورسالة واضحة للمتلقي خالية من الجدل الفلسفي والغموض الأدبي بهدف رفض السلوك غير الصحيح وهي آلية من آليات التوحيدي في الإنتاج المعرفي الاجتماعي[٢]، وقد يكون هذا التوظيف للتوحيدي هو مناجاة لما في صدره من وجع والتأثر بالتجربة الأليمة ولهذا تتابعة أقوال الفلاسفة في سياق واحد وهي سمة من سمات التوحيدي في التبسيط والإطناب والإطالة في تصوير الفكرة التي يصبو إليها حول المعنى الواحد ولكن بصيغ متعددة بغية إضفاء الفكرة ومعناها وتقديمها إلى المتلقي بطريقة تحقق له مبتغاه[٣].

لهذا يخلق التوحيدي تساوياً بين قيمة النص اللغوية وهيكله الإيقاعي وقيمته الجمالية ليقدم رسالة تامة للمتلقي بهدف اجتماعي نبيل، وهنا يتأكد معرفة التوحيدي بقيمة جانب الإستواء داخل هيكل النص وهي طريقة تساعده في تحديد الدرجة البلاغية للنصوص التي تتفق في فكرة واحدة وهي فكرة الصداقة والصديق[٤].

ولقد حقق التوحيدي استكمالا لرسالته في توظيفه لقول الفيلسوف انكساغورس" **كيف تريد من صديقك خلقا وأحدا وهو ذو طبائع أربع**"[٥].

---

(١)أبو حيان التوحيدي مغترباً: ٧٦.

(٢) ينظر: اللغة والبلاغة في فكر أبي حيان التوحيدي مقاربة منهجية: ٤٥-٤٦.

(٣) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٢٢٤.

(٤) ينظر: نظرية الاستواء البلاغي في ضوء الدرس النصي الحديث: ٨٢-٨٣.

(٥) الصداقة والصديق: ٧١.

قدم محقق الكتاب توضيحا لهذا القول بأن" على هذه الحال التي هو عليها من ناحية الطبيعة، فإنك في مسكه، وخاط على مسلكه، فاجتهد بالاختيار الرشيد، والرأي السديد أن تجعل طبائعك الأربع طباقا لطبائعه الأربع، أو طبائعه الأربع، طباقا لطبائعك الأربع، فإنك إذا قدرت على ذلك، قدرت بعده على أن تتعرف روائد هذه الأربع، ذاهباً بها نحو الاعتدال الذي هو صورة من صور الوحدة، فإذا أنت صديقك، وصديقك أنت، على ما صرح به كانيا، أو على ما كنى عنه مصرحاً، فقد بان هذا الحديث من ناحية اللفظ، والنطق والعبارة، والإشارة، وإن كان قد بقي علينا أن نجد هذا المطلوب من ناحية العيان والمشاهدة فإنا إن وجدنا ذلك غنينا عن الخبر والاستخبار؛ لأن الأثر لا يطلب بعد العين، والحلم لا يتمنى بعد اليقظة، والسكر لا يحمد بعد الصحو"[١]، وبهذا يكون التوحيدي قدم توجيهاً عاماً وحقق فيه توجيها للوعي الجمعي، إذ إنَّ " الذات النفس الواعية والنفس الجماعية تشكل في ذلك شخصية أوسع وتلك الشخصية هي نحن"[٢].

إنَّ اختيار التوحيدي لهذا النص نتيجة التفاعل بينه وبين البيئة التي يقطنها والموقف الذي جعله يختار هذا القول في كتابه، فذاته بدأت في نمو وتطور بإتساع البيئة والمواقف التي حلت به من خلال ما جرى معه وتحققت في ضوئها الخبرات والتراكمات الحياتية، وهذا النص هو محاولة منه للتكيف مع البيئة المحيطة به، وتقديم توصية اجتماعية تهدف إلى خلق التناغم بين الذات والآخر **(المتلقي)**[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ٧٢.

(٢) جدلية الأنا واللاوعي: ٩٤.

(٣) ينظر: مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق: ٤٧.

فالتوحيدي يسعى إلى خلق تنبيه يؤكد في ضوئه على وجود" أشكال جديدة ومضامين جديدة يستطيع بها أن يؤمن المواجهة الجديدة للحياة"[١]، وهنا يكون التوحيدي قدم تقريباً إلى حقيقة التجربة كونه" يجب أن يستمد وجوده من الواقع ويجعله قابلا للفهم"[٢]، وهذه هي مرامي التوحيدي الذي يؤكد على تقريب الواقع إلى المتلقي وتصحيح الأفكار.

وكذلك وظف التوحيدي قول الفيلسوف" **ليس يحسر العاقل على الصديق، لأنه إن كان فاضلا تزين به، وإن كان سفيها راض حلمه به**"[٣].

جدد التوحيدي في هذا التوظيف نوعين من الأصدقاء وبكلتا الحالتين هو يتحسر على صديقه إنْ كان سفيهاً ويرتفع به إذا كان فاضلاً وقد أرسل التوحيدي هذه الرسالة ليقدم توجيهاً ونصحاً إلى المتلقي بمراعاة صاحبه ولتصحيح مساره بقصدية مباشرة أراد منها بث هذه الرؤيا الاجتماعية، وهنا التوحيدي صور موقفين من فضالة الرجل ومن جانب سخطه و قلة عقله من جانب آخر فهو يرسم لنا صورة توضيحية تبين حاله من خلال اختيار أصدقائه وهنا هو يتجاوز الصور الساخرة بحق الصديق لحفظ ماء وجهه وكرامته واعتزازه، فالتوحيدي لم يستعمل الصورة المضحكة أو أداة سخرية بصديق بخلاف ما وظفه من سخرية لاذعة كسلاح يهاجم به المتكلمين كما في كتابه البصائر والذخائر[٤].

---

(١) من ملامح العصر: ٤٥.

(٢) الشعر والتجربة: ٦٤.

(٣) الصداقة والصديق: ٧١.

(٤) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ١٠٦-١٠٨.

وبهذا قصد التوحيدي إلى أن يكون "إنتاج ذلك النوع من الصلات الاجتماعية التي يصبح بمقتضاها موقف الحديث المثالي حقيقة واقعة إلى مجرد مسلمه"(١).

إنَّ النسق الاجتماعي الذي إلتزم به التوحيدي في كتابه يؤكد سعيه إلى تقديم رسالة ثقافية إنسانية يحتاج منها لتقدم توجيهاً دائمياً اجتماعيا يتخفى هذا التوجيه تحت رؤى جمالية يتذوقها المتلقي بوجود مضامين مجازية وأخرى توجيهية وغيرها من الخصائص الأدبية التي يجوز من خلالها تقديم الرؤى بطريقة أدبية متجاوزة فيها الأنا المطلقة المتفردة إلى الرؤى الجمعية وتسويقها ثقافياً عبر ما تحققه من قبولٍ لدى المتلقي(٢).

أنتج التوحيدي باختياراته لهذه الأقوال رؤية واقعية حاول من خلالها تسريد التاريخ وبنائه أدبياً بوجود عناصر الإبداع مثل الخيال وغيره إلا أنه على الرغم من هذه العناصر الجمالية بقيت الرؤية الواقعية بحسيتها تصور لنا الأشياء و تبث لنا الرسائل ذات القيم الاجتماعية الإنسانية متجاوزاً بذلك الكثير من المبالغات الموجودة في النصوص الأدبية التي تتجاوز الحقيقة وهذا الوعي(٣)، وهذه الأبعاد الجمالية لم تخل من القيم الواقعية التي أراد التوحيدي إيصالها إلى المتلقي؛ بغية أحداث رؤى إنسانية اجتماعية ذات طابع دائمي وهذا يؤكد قوة العامل الحضاري عنده ووعيه اللغوي الذي مكث فيه كثيراً ليختار هذه المقولات لتحقق مبتغاها الإنساني.

وكذلك وظف التوحيدي قول الفيلسوف لديوجانيس الذي قال فيه "**ألك صديق؟ قال: نعم، ولكني قليل الطاعة له، قيل: لعله غير ناصح فلذلك أنت على ذاك قال: لا بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة، قيل:**

---

(١) الفلسفة الالمانية الحديثة: ١١٥.

(٢) ينظر: دينامية النسق الثقافي في القصيدة الجاهلية: ١.

(٣) ينظر: عبد القادر القط والنقد العربي: ١٠٣.

فلم أنت على دأبك هذا المذموم مع إقرارك بفضل صديقك؟ قال: لأن جهلي طباع، وعلمي مكسوب، والطباع سابق، والمكسوب تابع، قيل: فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق حتى نخطب إليه صداقته، ونجتهد في الطاعة له، والقبول منه، قال: صديقي هو العقل، وهو صديقكم أيضا، ولو أطعتموه لسعدتم ورشدتم، ونلتم مناكم في أولاكم وأخراكم، فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك فقلما تجده، فإن وجدته لم يفِ لك بما يفي به العقل، ولم يبلغ بك ما يبلغ بك العقل، وربما أتعبك، وربما حزنك، وربما أشقاك، فاكبحوا أعنتكم عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم، فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف، ويحسن فيعدد، ويسيء فيحتج، ويشكك فيضل"[1].

قدَّم التوحيدي رسالة ذات قصدية مباشرة يحقق من خلالها طريقاً لاختيار الصديق ذي العقل وترك أحادية الرأي على الرغم من أنَّ معرفته الصواب، وقد بنى لنا التوحيدي صورة وافية عن الصديقين وكيفية الإفادة من الصديق الذي عرف برجاحة عقله ومراسه في الحياة ومعرفته في الأشياء الذي يتسم بالصدق والوفاء وحدد هذه الصداقة بـ**(العقل)** فهو الصديق الذي نجده دائما حاضراً عند الضيق وبإطاعته تتم السعادة والرشد، وبهذا فضَّله حتى على الصديق الذي من جنسه أي إنسانٍ، فضلاً عن ذلك نلحظ أن التوحيدي يقدم القيم العقلية على العاطفية ويكون اختيار الصديق على وفق ضوابط ومنهج، فالعقل هو الراشد والدليل لهذه العلاقات وقد يتفرد التوحيدي بهذا التوجيه من حيث تفضيل العقل على الصديق؛ كون العقل هو من يحقق للفرد مكانته وحضوره أكثر من الصديق.

إنَّ ما يقدمه التوحيدي في توظيفه النص يؤكد حمله لدلالات كاملة في جوهره؛ لتحقيق الصورة المدركة في ذهن المتلقي عن طريق التصوير

---

(١) الصداقة والصديق: ١٢٣-١٣٣.

الحقيقي للفكرة وتجسيدها حسيا والعناية بها وقد نتلمسها قريبة من أنفسنا نتيجة لتصويرها الدقيق وتقريبها من مستوى الذهني للمتلقي[١].

وقد يكون الجحود في بعض الأحيان لا يعد وسيلةً إلى العقل، وهنا التوحيدي أراده من هذا التوظيف أن يكون الفرد متسماً بثقافة مغايرة للسلبيات، وبهذا التوجيه يسعى التوحيدي إلى تجاوز القلق النفسي الذي يتعلق بجوارحه دائماً والوصول إلى راحة نفسه التي تحقق في ضوئها آماله وأحلامه وتجاوز مرحلة اليأس التي ترافقه نتيجة الظروف التي واكبت حياته[٢]، فضلاً عن ذلك أن الصورة الخطابية التي رسمها التوحيدي لذاته المتكلمة والمتألمة، فلا يمكن أن تأتي عن صورة ما قبل الخطابية التي تواترت عن التوحيدي؛ لأننا عندما نقرأ المؤلف في النص الأدبي لا نستطيع أن نغفل المؤلف الحقيقي واضع النص المذكور؛ ذلك فإن نسج صورةً إبداعيةً لمنتج النص أو من اختاره لا يمكن له إخراج الذات عن هذا الاختيار؛ لأنه وقع نتيجة لتجربة مرَّ بها التوحيدي[٣].

فالسعي الحثيث الذي أبداه التوحيدي يحاول من خلاله إعادة بعض المفقودات الاجتماعية الى طاقتها الحيوية والنفسية في مجتمعة وفي ذهن المتلقي عن طريق آليات ثقافية تتناغم مع طبيعة البيئة التي يتواجد فيها.

وكذلك وظف التوحيدي قول افلاطون" **الأشرار يتتبعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح**"[٤].

---

(١) الاتجاه النفسي في النقد الشعر العربي دراسة: ٣٢١- ٣٢٢.

(٢) ينظر: أبو حيان التوحيدي: ٩٥.

(٣) ينظر: صورة المتكلم في نثر أبي حيان التوحيدي دراسة في التشكلات والوظائف: ١٢١- ١٢٢.

(٤) الصداقة والصديق: ١٨٥.

ذهب التوحيدي في توظيفه لقول إفلاطون لبيان حالهِ استشرح حضورها في المجتمع العربي في مدة معينة حتى وقتنا الحاضر وهي إتباع مساوئ الناس وعدم الإلتفات إلى محاسنهم وهذه هي ثيمة بارزة في كثير من الفئات المجتمعية وحاول التوحيدي إبراز هذه الظاهرة بوصفها صفه يتبعها الأشرار لا الأخيار هي محاولة منه للكف منها والابتعاد عن هذه المقولة بوصفها ظاهرة لا تنتمي إلى الأخيار.

إنَّ طبيعة الفلسفة الإفلاطونية والميل إلى المثالية دعا التوحيدي إلى اختيار هذا القول؛ ليحقق من خلاله المسعى الاجتماعي الذي رام الوصول إليه، فضلاً عن سعيه بإحقاق بعض المضامين التي قد تلاشى حضورها نتيجة الظروف والتداخلات الثقافية التي أودت بكثير من بضائع الرؤى الاجتماعية الاسلامية آنذاك.

تقارب التجربة بين ما حدث مع التوحيدي من موقفٍ وقول إفلاطون ممَّا دعا التوحيدي لتوظيف هذا القول وسعياً منه إلى إيصال الفكرة بلغة وحديث داخل سياق محدد ينتج لنا رؤى اجتماعية تتعالق بطبيعة الفرد العربي في تلك المرحلة وحتى وقتنا الحاضر، فالرسائل التي يقدمها التوحيدي هي رسائل إنسانية تعكس مديات الاغتراب الذي قد يكون جزءاً من تجربة حياته الحقيقية ومحاولاً تخطيه من خلال هذه الرسائل، فقد عمد التوحيدي على موقفه الفكري والثقافي... أكثر من اعتماده على تجاربه... المباشرة جعلته يدرك الكثير من العوالم الخاصة بحياته ومجتمعه نتيجة ترابطه مع البيئة فهو لا يفكر في حدود ذاته بل تجاوز إلى الآخر أو المجتمع.

وهنا يكون التوحيدي "قادراً على أن يعَّبر بالكلمة البليغة عن إحساسه والاستعانة بالصور الحية والمعنوية لتؤكد المعنى الذي أراد بالإضافة إلى استثارة خيال القارئ وقد استقصى ووازن وناظر ويفعل ذلك

مـــع التـــوائم... بالتوضـــيح والتفســـير والتفصـــيل والتقريـــب إلـــى الـــذهن والتصور"[١].

خلاصـــة القـــول إن التوحيـــدي فـــي كتـــاب الصـــداقة والصـــديق وظـــف جملـة مـن الأقـوال الفلسـفية التـي تعـود لفلاسـفة تباعـد حضـورهم الزمنـي؛ ليؤكـد مـن خلالـه السـعة المعرفيـة لـه، فضـلاً عـن إفادتـه مـنهم بتقـديم مـا فـي صـدره مـــن خلجـــات يؤكـــد تضـــمينها رســـائل اجتماعيـــة ليوصـــل فـــي ضـــوئها فكـــرة اجتماعيـة تـروم تحقيـق بعـض المضـامين الإنسـانية التـي أثـرت بالتوحيـدي مـن خـلال تجربتـه الشخصـية أو تجـارب مـرت عليـه بلغـة تركيبيـة واقعيـة محملـة بقيمـة أدبيـة ليحيـى مـن خلالهـا الباعـث النفسـي والفكـري والثقـافي لديـه؛ ليحقـق القـيم الإنسـانية التـي تصـل إلـى المتلقـي بلغـة واضـحة خاليـة مـن التكلـف وهـي صفة من صفات التوحيدي في هذا الكتاب.

إن هـــذا التوظيـــف أراد منـــه التوحيـــدي تنبيـــه النـــاس و تـــوخي الدقـــة باختيـــار الصـــديق وإدراك حقيقـــة العلاقـــات الاجتماعيـــة الوثيقـــة التـــي تحتـــاج تطابقـاً مـن حيـث اللغـة والفكـر وحتـى الـوعي، وبهـذا يكـون التوحيـدي قـدم نسـجاً إنسـانياً ورؤى للمتلقـي يسـعفه بهـا اختياراتـه؛ ليتجـاوز بهـا الكثيـر مـن المواقـف التي مرَّ بها التوحيدي أو دارت عليه.

---

(١) أبو حيان التوحيدي: ٣٥.

المبحث الثالث

أقوال الفلاسفة والشخصيات العربية

أفاد أبو حيان التوحيدي من توظيفه لبعض الأقوال التي جرت على ألسنة عدد من الشخصيات العربية الفلسفية و التاريخية والأدبية، وقد وظفها في كتابه؛ لتكون صورةً واضحةً؛ لتقدم رؤيةً للمتلقي فهي رسائل تمثل ماهية الصداقة والصديق، وهذه الشخصيات لها ثقلها وأثرها في الساحة العربية آنذاك وحتى وقتنا الحاضر، إذ إنها حققت للتوحيدي استدراكاً لذهن المتلقي، ولقد وردت هذه الأقوال في كتاب الصداقة والصديق على النحو الآتي.

ومنها ما قاله جعفر بن يحيى[١] لبعض ندمائه " **كم لك من صديق ؟ قال: صديقان قال: إنك لمثر من الأصدقاء**"[٢].

وظف التوحيدي قول وزير الخليفة لما له من ثمرة يجنيها التوحيدي مثل رسالة اجتماعية تهدف إلى اختيار دقيق للصديق، فضلاً عن بثه لفكرة وهي أنَّ كثرة الأصدقاء لا تعني الثمرة الحسنة، فالصديق والصديقين هما كافيان إذا كانا على قدرٍ من الصدق والاخلاص.

استعمل منتج النص **(جعفر بن يحيى)** نسقاً أفاد منه بالتنبيه، إذ إنه استعمل أداة الاستفهام **(كم)**؛ ليجعل المتلقي يتنبه إلى عدد أصدقائه ودورهم في حياته، وهذا يؤكد أن التوحيدي لا يهتم بكثرة أصدقائه بقدر ما مواقفهم.

أراد التوحيدي أن يجعل المتلقي أمام استراتيجية يحققها في كيفية تعامله مع النص وما يرسمه له من حدود يقف عندها ويحاول معرفتها

---

(١) هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جاماس بن يستافس البرمكي وهو وزير الخليفة العباسي هارون الرشيد كامل علو القدري ونفاذ الأمري وبعد الهمة وعظم المحل وجلاله المنزلة عند الخليفة يقال عنه انه سمح الاخلاق طلق الوجه ظاهر البشر ذو فصاحة وبلاغة عالية وأستاذه هو القاضي ابو يوسف الحنفي. ينظر: الوافي بالوفيات: ٣٨/٤.

(٢) الصداقة والصديق: ٨٦.

وهكذا تكون هنالك استراتيجيات متعددة منها ما يهتم بها القارئ من المعنى الحرفي واللغة الطبيعية التي تسمح بلغة مباشرة تحددها طبيعة النص ولا يقف عند الكشف عن المعنى بل الوقوف على الرسائل والآليات التي يقدمها هذا النص وما يحمله من عناصر ودورها في إيصال الرسالة إلى المتلقي[١] على الرغم ممَّا عرف من فلسفة التشاؤم عند التوحيدي نتيجة ما قاساه من ظروف وحرمان كابدها مثل مرارة الغربة و صعوبة الظروف وذل الفقر وما عاناه من إخفاقات متكررة في تجاربه الاجتماعية، إلا أنه في جانب آخر مشرق، كان يسعى إلى تقديم رؤى يخدم فيها المجتمع؛ بغية عدم مرور هذه الظروف على ما يعانيه من الظرف ليتجاوز من خلالها العناء الطويل والبلاء الكبير الذي دار عليه ثم وصل لديه من يأس تام وانعزال وزهد كما ذكر في مقدمه كتابه لم كل ذلك يمنعه عن تقديم هذه الرسائل التي أراد منها الاصلاح والتقدم والازدهار[٢].

فيجب أن يكون الصديق هو" في الدهري صالح فالحسيب اللبيب الأديب فأنك تستفيد من حسبه كرماً ومن أدبه علماً ومن لبه رأياً وأما في زمان السوء، فالأرض في المكاشر الذي يعطيك بعضه بالحياة وبعضه بالنفاق ويمتعك ظاهره وانسائك باطنه ولكن زمان حكم ولكل ظاهراً حكم"[٣].

تجد الباحثة إن ما يسعى إليه التوحيدي هي محاولة لينتشل المجتمع الذي يعيش معه من الظروف التي مر بها، فضلاً عن خلاصة تجربته فيه ومعرفته العميقة في الاتجاه الصوفي الذي أخذ منه حيزاً واسعاً في تفكيره، وهو يروم إلى التوافق والتقارب والتواد والتراحم وهي مضامين قرآنية نبوية

---

(١) ينظر: النص من القراءة إلى التنظير: ٩٧.

(٢) ينظر: الصداقة والصديق عند التوحيدي: ١١٩.

(٣) هاك هذا الصاحب وخذ الخلافة: ٢٧٢.

إمامية دعت لها أغلب المذاهب غير المتطرفة؛ بغية بناء الإنسان بناءً سوياً.

استطاع التوحيدي أن يقدم لنا في ضوء كتابه الصداقة والصديق ملاحظ قيمة ترتبط بأسرار الإنسان الداخلية والخارجية وهو يصف لنا تجارب استعمل فيها مصطلحات ومفاهيم متعددة أكد من خلالها على مضامين لا بدَّ للإنسان من التحلي بها لتخطي المشكلات؛ بغية أن تكون العلاقات الإنسانية علاقات متسمة بالصفاء والتواد.

وكذلك وظف التوحيدي قول سهل بن هارون(٢١٥هـ)[١] " **الصديق لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له**"[٢].

وظف التوحيدي قول سهل بن هارون لما له من ايجاز؛ فالصديق الذي أراد منه اختيار الصديق الذي لا ينكر، إذ إن القول ورد في سياق الحساب والاحتساب، فضلاً عن ذلك قد يكون هذا الاختيار لمنتج النص من بلاغة واضحة حتى دعت الجاحظ إلى أن يحكي عنه، وكذلك لما له من كتب في الحكمة ومنافعها[٣] حتى أن هنالك من جعل مكاناً للصداقة وفضلها على القرابة، ولقد ذهب صاحب العقد الفريد في قول لبزرجمهر قيل فيه" **من احب اليك: اخوك ام صديقك؟ فقال: ما احب أخي الا إذا كان لي صديقا**"[٤].

---

(١) هو سهل بن هارون بن الهيون بن راهيون الدستميساني، أبو عمر انتقل إلى البصرة واتصل بخدمة الخليفة العباسي المأمون(٢١٨هـ) وتولى خزانة الحكمة له وكان حكيماً فصيحاً شاعرا أديبا أصله فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد التعصب على العرب. ينظر: الوافي بالوفيات : ١٧١/٥.

(٢) الصداقة والصديق: ٨٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٨٦/٥.

(٤) العقد الفريد: ١٩١/١.

إنَّ علاقة الصداقة علاقة متماسكة لا بدَّ أن تتجاوز الحدود المذهبية والاختلافات الفكرية، إذ إننا نجد الشاعر الكميت بن زيد الأزدي وهو أحد شعراء الشيعة صديقاً للطرماح الذي هو من شعراء الخوارج وهذان الشاعران تجاوزا الحدود المذهبية والمكانية؛ ليصل إلى علاقة صداقة أي أقرب ما يكون إلى شقيقين(١).

هنا حقق هذا التواد بين الصديقين رؤية إنسانية تسعى إلى خلق مجتمع آمن خال من النزاعات والمماحكات على أصعدتها المختلفة.

إنَّ اختيارات التوحيدي تؤكد مدى إبداعه واستنطاقه لكثير من الجوانب في المجتمع ومحاولة كسرها وبنائها بناءً جديداً متجاوزاً فيه الحدود الزمانية والمكانية، وهو تأكيد على مديات إبداعه؛ لأن المبدع حينما يفعل ذلك هو بلا شك تمكن من أداة تعبيره وتطويعها؛ بغية إيصال رسائله إلى المتلقي(٢).

وكذلك وظف التوحيدي قول ابن يونس بن عبيد(**١٣٩هـ**)(٣) قال فيه "**إن ابن عون لم يأتك فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أخ لا يضرنا ان لا يأتينا**"(٤).

إنَّ القول الذي وظفه التوحيدي يمثل الوثوق بالمودة، إذ إنَّ التوحيدي سعى إلى أن يكون الصديق صادقاً بعهده ومحبته من دون أن ينتظر شيئاً من الطرف الآخر، وهو ما يمكن أن يطلق عليه بإيثار الصديق لصديقه.

---

(١) ينظر: ثمار القلوب في المضافي والمنسوب: ٩٧.

(٢) ينظر: التشخيص والتجسيم في كتابات أبي حيان التوحيدي: ٤٣٩.

(٣) يونس بن عبيد العبدي ابو عبد الله البصري يقال له مولى عبد القيس سمع الحسن بن أبي الحسن. ينظر: التاريخ الكبير: ٤٠٢/٨.

(٤) الصداقة والصديق: ٩٥.

رسم التوحيدي صورةً دقيقةً نابعة عن تصوره ونفسيته وحاجته إلى الصديق من هذا النوع، فهو يتمنى من دون أدوات لتمني، وهذا التمني تغلب عليه الصفات الحميدة، أي إنه يحاول إيجاد صديق خالٍ من الشوائب يعينه على ظروفه التي دارت عليه.

إنَّ خطاب التوحيدي الموجه في هذا القول يشكل منهجاً لما في صدره من مواقف، فضلاً عن بعض الإرشادات التي تسدد رؤاه من خلاله، وقد تجاوز التوحيدي في هذا القول الآخر في رد الدَين أو الحاجة له عن طريق المبادلة بين المواقف، إذ إنَّ التوحيدي قدم صورةً إيثارية هدفها النصح والإرشاد؛ لبلوغ رضى الله سبحانه وتعالى عن طريق التقارب والتصافي بالقرب، والتصافي والاعتصام بالمحبة ورضى الله سبحانه وتعالى[١]، فهو لم يفكر باستغلال طيبته أو الإشارة بسذاجته إنَّما سعى سعياً حثيثاً؛ لتحقيق وظائف إنسانية بنماذج واعية، وكذلك اختياره للشخصية القائلة التي عرفت بمكانتها؛ لتكون حاضرة في ذهن المتلقي لتحقيق مبتغاه.

إن غاية التوحيدي هو حمل هذا القول على باب الشكل والمشابهة حتى يكون ملجأ لكثير من العلاقات التي حضرت في الثقافة العربية آنذاك ودعوه إلى مقاييس حقيقية ومعايير منطقية قادرة على اختيار الصديق اختياراً حقيقياً متجاوزا فيها عدم الوضوح في الرؤيا[٢].

وكذلك وظف التوحيدي قولا أخر وهو للأعمش(١٤٨هـ)[٣] "**أدركت أقواما كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرا وشهرين فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت، وكيف الحال، ولو سأله شطر ماله لأعطاه، ثم أدركت أقواما لو**

---

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ١٧٧.

(٢) المثل والحكاية عند العامة الموضوع والنموذج والوظيفة: ٧٥.

(٣) الأعمش: هو ابو محمد سليمان بن مهران الاعمش قارئ وحافظ عالما بالفرائض. ينظر: الوافي بالوفيات : ٣٤٢/٢.

كان أحدهم لا يلقى أخاه يوما سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبة من ماله لمنعه"[١].

وظف التوحيدي هذا القول يصدر فيه إنموذجاً آخر من الأصدقاء الذين يتغير عليهم الحل بسبب انقطاع لأيام أول لأشهر، وهو يجد الصداقة اسماً من الغياب والفراق؛ لأنها صفة تتعالق في الأرواح، فالقصدية المباشرة ظاهرة في توظيف التوحيدي وهذا يؤكد أنه مر بهذه التجربة التي اثرت فيه ودعته إلى توظيف قول الاعمش.

إنَّ تخلي التوحيدي عن القصدية التأويلية وثباته على نسق القصدية المباشرة يؤكد مدى الأوجاع التي مرت عليه خلال مدة كتابته لهذا الكتاب، فدقة اختيار الألفاظ التي وظفها التوحيدي بغية تصدير دلالة قوية من معاني الألفاظ تجاوز بها لغة الاقتضاب إلى الاتساع؛ لتصدير ما في ذاكرته من أوجاع وما في صدره من خلجات، فالصورة التي رسمها التوحيدي هي تمثل طرفين لم يكتسب أحد الأطراف معنى الصداقة الحقيقية[٢].

شكَّل العامل الصوتي في هذا النص حضوراً عن طريق توظيفه لعدد من الأصوات والتكرار ولاسيما في الأدوات الواردة في **(كيف، ولو)** ليحقق من خلالها كشفاً عن مقاصده وعن الحالة النفسية التي مرت به وهذا سعي منه لإيضاح مقاصده إلى المتلقي[٣].

لقد وقعت اختيارات التوحيدي بوصفه فرداً من جماعة يتوجه إليها تمر به هذه الظروف وهو جزء من الخطاب الثقافي في تلك المرحلة التي

---

(١) الصداقة والصديق: ٩٨.

(٢) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ١٠٩.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة دراسة في الدلالات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية: ٥٩.

حاول التوحيدي تصحيحه عن طريق قناعات ورؤى المجتمع، فالمجتمع حاضر بقوة في أي فعل يحمل في طياته بعداً أدبياً؛ وذلك لطبيعة البيئة التي تساعد على تقلب الأفكار عن طريق فهمها للعلاقات السائدة آنذاك؛ فالترابط بين العمل الأدبي والمجتمع يولد تواشجاً و يمنحه فرصةً أكبر للمتلقي، فلكل عمل أدبي منهج يتغلغل في ضوئه في البيئة الاجتماعية ويؤدي وظائفاً يسعى لها منتج النص أو من وظفه، فالأدب لا يمكن أن ينفصل عن سياقه المجتمعي؛ كونه ناتج عن تجربة اجتماعية مرتبط بواقع تخييلي على الرغم من أنَّ البعد الزمني بين الموضوعة الرئيسة وطريقة كتابتها إلا أنَّ المجتمع يلقى بظلاله على الصيرورة العملية الإبداعية بل يوجه مساراته الممكنة في كثير من الأحيان فلا أدب من دون مجتمع ولا مجتمع من دون أدب، فالأدب هو من يكشف ويقرب ويوضح شؤون مجتمعه(١).

إنَّ التوحيدي هنا تمكن من "التوليد والتأمل والإنزياح والارتياب والحركة وماله بالتالي من كفاءة في تحويل تجربة المعاناة الحسية والمتناثرة إلى نص يطوي الحدث الخارجي فيصنع منه قيمة وعالما يقبل المشاركة والانفتاح والثورة وينفتح في التالي إلى تجارب القوة الكامنة "(٢).

وفي قول آخر وظفه التوحيدي" **خير إخوانك من آساك، وخير منه من كفاك، وخير مالك ما أغناك، وخير منه ما وقاك**"(٣).

بيَّن التوحيدي في هذا التوظيف مراحل الأخوة وما تحققه من عمق حسب الصفة التي جاءت فيه، فالأخ هو من **(آساك، وكفاك، واغناك، وقاك)** وهذا التوظيف الذي قصده التوحيدي أراد منه حقيقة الصداقة وعمقها

---

(١) ينظر: الهامش الاجتماعي في الادب قراءة سيسيوثقافية: ٣٣-٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٢.

(٣) الصداقة والصديق: ١٧٢.

ودقة مضامينها؛ لتكون رسالة لمن لم يقف معه مؤاسياً مكفياً غانيا وواقيا، وساعد أبو بكر في بيان خير الإخوان كما يجده هو.

فحقق هذا القول بتعبيره الفني ارتكازاً على القيم الحسية والوجدانية والنفسية والمزاجية عند التوحيدي، إذ كان مخرجاً لكل ما احتواه التوحيدي من حسن وعقل وانتماء وحاجه، فالكلمة قالها بإحساس سافر إلى ذهن المتلقي متدفق المعنى وبعمق التعبير ورصانة للفظ[١].

فاختلاط الشعوب الإسلامية وتداخل الثقافات ودخول الفلسفات مثل **فلسفة ماني** وإباحة **مزدك** وضعف الواعز الديني وظهور الغلمان والمجون وظهور الشذوذ وبعض الانحرافات لم تكن عائقاً أمام رؤى التوحيدي التي حملت في طياتها الرؤى الصوفية المتمثلة ببعدها الفلسفي، فضلاً عن الأبعاد الفلسفية والاعتزالية التي شكلت طريقاً في إحياء الباعث الإنساني في تحقيق تجربة اجتماعية[٢].

وفيما وظفه التوحيدي قول: خلف الاحمر (١٨٠هـ) "**وصف لي رجل أخا له فقال: كنت لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى به عنك، وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر ذنيك، وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المسيء**"[٣].

إنَّ توظيف شخصية خلف الأحمر بوصفه إيقونةً في الساحة العربية على المستوي الأدبي واللغة وجاء؛ ليؤكد جذب نظر المتلقي إلى هذا القول لما يحقق له من رصد دقيق للصديق، فالقول جاء في وصف صديق أراد منه التوحيدي مثل صديق له يقلل أنينه وينظم حياته ويعينه على المواقف والتجارب العصيبة.

---

(١) ينظر: جمالية الفنون: ٣٢-٣٣.

(٢) ينظر: فن المقامة بين الأصالة العربية وتطور القصصي: ٣٨-٣٩.

(٣) الصداقة الصديق: ٢٧٧.

فالصديق من كان لا غنى عنه من صديقه بل هو أحوج إليه حتى حينما يكون الصديقَ مذنباً بحق صديقه وهذه الصفات التي اختارها التوحيدي في قول خلف الأحمر هي رسالة مباشرة للصديق الذي لم يكن كما عهده التوحيدي مثل صديق صدوق له، وكذلك توظيف لفظ **(الدهر)** الذي يؤكد المدة التي أراد بها أن يكون الصديق مستمراً مع صديقة.

إنَّ اختيار التوحيدي لهذا القول يؤكد سعة ثقافته وعمقه ومقدرة على اختيار التعبير الذي يدق ناقوس الخطر أمام الأصدقاء غير الأوفياء لما له من معرفة في الأساليب التي تؤثر جوهرياً في المتلقي من حيث الدقة في اختيار الألفاظ ومعرفته في رصد الجمل والتراكيب التي تحقق له المبتغى في هذا القول وذاك.

حاول التوحيدي في ضوء هذه الرسائل أكمام أفواه الكثيرين ممن أساؤا له القول والسمعة وليغلق الأبواب عنهم من دون وجود أية ثغرة للحديث عنه[1]، فجودة السبك وعمق القصد أكد على وجود نص إبداعي وفعل استثنائي تتمحور حوله القيمة الدلالية وباعثها الجمالي؛ لتمييز هذه الرسائل من ناحية الدلالة والتوجيه الاجتماعي؛ بغية بناء أواصر اجتماعية متماسكة، وكذلك التقارب والتواشج بين الألفاظ وما تحققه من إيحاءات صوتية هدفها جذب انتباه المتلقي الذي قد يكون شارداً أو نافراً من هذه الدعوة بسبب التغييرات التي دخلت على البيئة في الحقبة التي عاشها التوحيدي، إذ لم يقلد في هذه التوظيفات المتلقي الجاهلي الذي كان ميالاً للمبالغة في ذائقته ومعتاد على أساليب المغالاة والتضخيم الأدبي؛ بغية تحقيق جذب ومتابعة وتفوق ادبي في الساحة آنذاك.

---

(١) ينظر: النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: ٢٢٤.

وخلاصة القول نلحظ أن التوحيدي في اختياراته للشخصيات العربية وتنوعه من حيث الوزراء و الكتاب والقرَّاء والحفاظ وغيرهم من الشخصيات التي أراد منها التوحيدي جذب نظر المتلقي إلى طبيعة تجربته لما لهذه الشخصيات من حضور في الساحة العربية، فضلاً عما لها من عمق بلاغي وجودة لفظية تدعو المتلقي إلى إتمام ما يقولونه نتيجة اللغة المتزنة ذات التأثير المباشر ولم يخل هذا المبحث كسابقاتها من القصدية المباشرة التي أراد منها التوحيدي بناء تصور مغاير عما قدمه في كثير من كتبه التي اتسمت بالسخرية أو البعد التأويلي وغيره.

ربما يكون التوحيدي قد تجاوز كثيراً من كتبه في هذا الكتاب بوصفه تجربة حقيقية مريرة مرت لمدة طويلة من الزمن فذاكرته أنتجت لنا هذه المماحكات الاجتماعية التي ترسخت في نفسه بقوالب صامدة لمده طويلة من الزمن أراد منها تصحيح بعض المسارات في العلاقات الاجتماعية التي حطمتها كثير من المضامين الدخيلة على المجتمع العربي نتيجة لانفتاح الثقافات على الساحة العربية.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذه الرحلة البحثية الطويلة يمكن أن نثبت أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج والتي يمكن إيجازها على النحو الآتي:

أولاً: اتسمت النصوص التي وظفها التوحيدي في كتاب الصداقة والصديق بالقصدية المباشرة؛ وقد يكون السبب وراء ذلك هو تقديم تجربته إلى المتلقي من دون غموض وعناء.

ثانياً: إنَّ مدة كتابة التوحيدي لكتابه كانت نيفاً وثلاثين وهي حقبة زمنية تؤكد أن هذا الكتاب هو تجربة شخصية مرَّت على التوحيدي؛ لأن المدة الزمنية التي كتب فيها تجاوزت المدة المألوفة في تأليف الكتاب الواحد، وما يؤكد هذا الكتب التي ألفها التوحيدي في الحقبة التي كتب فيها كتابه الصداقة والصديق.

ثالثاً: لم يذكر التوحيدي في كتابه الصداقة والصديق اسما أشار له بالصداقة، وينتمي إليه، وهذا يؤكد أن مفهوم الصداقة لم يتحقق عند التوحيدي أبداً.

رابعاً: لم يذكر التوحيدي المرأة في كتابه بل أغفلها وقد يعود هذا إلى نفسيته المتأزمة المضطربة غير المستقرة في هذا الجانب، أو لما عاناه وآساه من مواقف في طفولته انعكست على شبابه و شيخوخته.

خامساً: اتسمت الأغراض الشعرية التي وظفها التوحيدي في كتابه بنسقٍ اجتماعي وأحد هدفه الإصلاح والتوجيه، وهذا يؤكد أن المنهج الذي اتبعه التوحيدي في هذا الكتاب هو منهج أخلاقي وإنساني يروم منه ترميم بعض المضامين الحياتية التي أصابها الضرر؛ نتيجة التداخلات الثقافية، وهذا الأسلوب يحسب إلى التوحيدي؛ بسبب سعة ثقافته وتنوع مشاربه الثقافية.

سادساً: إنَّ اللغة الشعرية في كتاب الصداقة والصديق اتسمت بالوضوح فقد تجاوز فيها التوحيدي الغموض في الاختيارات، وهذا ينم عن وعي التوحيدي في إيصال رسالته إلى المتلقي بأبسط الطرق على الرغم من أن البيئة العربية هي بيئة شعرية ولكن ما حققه التداخل الثقافي ودخول غير العرب إلى هذه الساحة قد يكون سببا في هذه السهولة.

سابعاً: تفردت الصورة الشعرية بقيمة جمالية إضافة إلى تأثيرها الضمني بالمتلقي، إذ إنَّ التوحيدي اختار صوراً شعريةً تحقق غايته في اختيار الصديق وبث تجربته مثل موجه للمتلقي عن طريق التقريب والتوضيح والمشابهة.

ثامناً: شيوع الخبر التاريخي والأدبي على غيره من الأخبار؛ وذلك لطبيعة البيئة، فالتوحيدي في أغلب أخباره حاول تسريد التاريخ ونقل الحدث والتجربة من قيمتها التوثيقية إلى قيمتها الأدبية؛ بغية إقناع المتلقي بهذه التجربة.

تاسعاً: حققت الرسائل حضوراً وافرا في كتاب الصداقة والصديق، وقد يعود السبب في ذلك إلى أنها جنس أدبي جديد من ناحية تقسيمه في تلك الحقبة(**الديوانية والإخوانية**)، أو أنه أكثر تأثيراً بالمتلقي ولهذا مال عليه من دون غيره من الأجناس.

عاشراً: لم يركز التوحيدي كثيراً على الحكم والوصايا والحكايات؛ كونه لا يريد بالمتلقي الجزع والملل لما في الحكمة من صعوبة والوصايا من تنبيهات وإرشادات.

أحدى عشرة: ساهمت الأحاديث النبوية والأقوال الإمامية والفلسفية للغرب والعرب ببيان سعة ثقافة التوحيدي وعمق مرجعياته الثقافية وتعددها، وكذلك كثافة وعيه في تحقيق الترابط بين الأصدقاء عن طريق هذه الأقوال؛

كـون هـذه الشخصـيات التـي اختارهـا هـي ذات أثـر فـي نفـس المتلقـي النـاتج عـن حضورهم في الوعي الجمعي.

مظان البحث

- القرآن الكريم
- أبو حيان التوحيدي، د.إبراهيم الكيلاني، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت.
- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، د. زكريا إبراهيم، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٤.
- أبو حيان التوحيدي، د.احسان عباس، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، ط٢، ١٩٨٠.
- أبو حيان التوحيدي رأيه في الاعجاز وأثره في الأدب والنقد، محمد عبد الغني الشيخ، الدار العربية للكتاب، لبنان، د.ط، د.ت.
- أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، د.علي محمد الصباح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، د.بدوي طبانة، دار الثقافة، لبنان، ط٣، ١٩٨١.
- اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، د. عبد الهادي عبد النبي، مصر، ط١، ١٩٩٠.
- الاتجاه النفسي في النقد الشعر العربي دراسة، د.عبد القادر فيدوح، أداره اتحاد الكتاب، ط١، ١٩٩٢.
- إحياء الشعر، عارف حجأوي، دار المشرق، القاهرة، ط١، ٢٠١٨.
- الآخر في القرآن، حسين الشاه بندر، مركز دراسات فلسفة الدين، العراق، د.ط، ٢٠٠٥.
- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، د. فايز عبد النبي فلاح القيسي، دار البشير، الاردن، ط١، ١٩٨٩.
- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، دار العودة ودار الثقافة بيروت، ط٥ ، ١٩٨٧.

- الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي، د.علي الدب، دار العربية للكتاب، لبنان، ط٢، ١٩٨٠.
- الأدب وفنه، د. عز الدين إسماعيل، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، د.ت.
- الاستعارات والشعر العربي الحديث، سعيد الحنصالي، دار توبقال، المغرب، ط١، ٢٠٠٥.
- الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، د. يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٧.
- الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، أحمد يُوسُف علي، دار كنوز، الأردن، ط١، ٢٠١٥.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تح: محمود شاكر أبو الفهر، مكتبة الخانجي، مصر، د.ط، د.ت.
- الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنه، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، مصر، ط٣، ١٩٧٤.
- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، د. أحمد الشايب، مطبعة النهضة، القاهرة، ط٦ ، ١٩٦٦.
- الأسلوبية، د.يوسف أبو العدوس، دار عمان، الاردن، ط٢، د.ت.
- الأسلوب والأسلوبية ، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٣، د.ت.
- الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، د.مسعود بودوخة، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط١ ، ٢٠١١.
- الأغاني، أبو فرج الأصفهاني، تح: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، ط١، د.ت.

- الاغتراب، ريتشارد شاخت، تر: كامل حنين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، د. محمد راضي جعفر، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٣.
- الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع هجري دراسة اجتماعية نفسية ، أحمد علي الفلاحي، دار غيداء، عمان ، ط١، ٢٠١٣.
- الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تح، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.
- أمراء البيان، محمود كرد علي، مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر، القاهرة، د.ط ، ١٩٣٧.
- الأنساب، أبو سعد، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٩٦٢.
- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن دأود البلاذري، تح: محمد باقر المحمودي، دار التعارف، بيروت، ط١، د.ت.
- بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية، د.عبد العالي قادا، دار كنوز، عمان، ط١، ٢٠١٦.
- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، عمان، ط١، ٢٠٠٣.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط١، د.ت.
- بلاغة الفلسفة مقاربات مفهومية الإنسان والعالم، د.دريس كثير، عالم الكتاب، الاردن، ط١، ٢٠٠٤.

- البلاغة والسرد والسلطة في الامتاع والمؤانسة، د.هشام مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٥.
- بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، والوظائف، والتقنيات دراسة، د.ناهضة ستار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٣.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، تر: محمد الوالي – محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تح: د.محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط٥، ١٩٨٥.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، تر: السيد يعقوب بكر، د.رمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٨٣.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تح: د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١،٢٠٠٢.
- التاريخ الكبير، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجعفي، دار الانجلو، القاهرة، د.ط، د.ت.
- التجربة الجمالية في الفكر العربي، عبد القادر فيدوح، دار الشجرة، سوريا، ط١، ٢٠١٤.
- التحليل الاجتماعي للأدب، السيد يسين، دار مدبولي، القاهرة، ط٣، د.ت.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة دراسة في الدلالات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، د.محمود عكاشة ، دار نشر للجامعات، القاهرة ، ط١، ٢٠١١.
- التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، د.مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، لبنان ، ط٩، ٢٠٠٥.
- تصوير المجتمع العباسي في كتاب الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، د. مهدي عايدي، ارتباط ناشري، ايران، ط١، .

- التضاد في القرآن الكريم، محمد نور الدين المنجد ، دار الفكر، دمشق ، ط١، ١٩٩٩.
- تعدد القراءات الشعرية في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن السابع الهجرة، د. نادية هنأوي، المركز العلمي العراقي للابحاث، بغداد ، ط١، د.ت.
- التفكير السيميائي في اللغة والأدب دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي، د. الطيب دبه، عالم الكتاب الحديث، ط١، ٢٠١٥.
- تكنو ثقافة الرواية في تدأول المعرفي، د. إسماعيل إبراهيم عبد، دار الامل الجديد، ط١، ٢٠١٨.
- التلقي إلى الصحيفة السجادية دراسة تطبيقيه في النقد العربي الحديث ، د. حيدر محمود جديع ، دار الكفيل للطباعة والنشر، العراق، ط١، ٢٠١٥.
- تماسك النص الأساس والأهداف، د. حسن محمد عبد المقصود، دار السلام، مصر، ط١، د.ت.
- التناص بين النظرية والتطبيق، د. أحمد طعمه حلبي، الهيئة العامة للمنشورات، سوريا، دمشق، د.ط، ٢٠٠٧.
- تهذيب الأسماء واللغات، للعلامة أبو زكريا محيى الدين بن شرف النووى، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان.
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تح: عبد السلام هارون وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط١، ١٩٦٤.
- ثمار القلوب في المضافي والمنسوب، محمد بن عبد الملك الثعالبي، دار الفكر العربي، مصر، ط١، د.ت.
- ثيوجيا التشيع السياسي بين حق الله والشعب وواقع الممارسة، صلاح شبر، دار الرافدين، لبنان، ط١، ٢٠١٧.

- جدلية الأنا واللاوعي، كارل غوستاف يونغ، تر: نبيل محيسن، دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٩٧.
- جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار رشيد، بغداد ، د.ط، ١٩٨٥.
- جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت–دمشق، ط٢، ١٩٩٦:.
- جمالية الفنون، د.كمال العيد، منشورات دار الجاحظ، بغداد، د.ط، ١٩٨٠.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية ، بيروت، د.ط، د.ت.
- الحداثة الشعرية، محمد عزام، إتحاد الكُتاب، دمشق، د.ط، د.ت.
- الحجاج في الخبر الأدبي الأندلسي حجاجية التخييل وتخييل الحجاج، محمد ناصر كحولي، دار محمد علي للنشر، المملكة السعودية، ط١ ، ٢٠١٦.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متز، مكتبة وهبة، مصر، د.ط، د.ت.
- الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية، د. محمد القاضي، منشورات كلية الآداب، مصر، ط١، ١٩٩٨.
- الخبر في السرد العربي الثوابت والمتغيرات، سعيد جبار، الدار البيضاء، المغرب، ط١ ، ٢٠٠٤.
- الخبر والحكاية التشكيل الدلالي في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، دار بشرى قانت– دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ٢٠١٤.
- الخصائص، ابن جني(٣٩٢هـ)، تح :محمد علي النجار، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، د.ت.

- خطاب الحكاية بحث في المنهج، جيرار جينيت، تر: محمد معتصم واخرون، المجلس الاعلى الثقافي، لبنان، ط٢، ١٩٩٧.
- الخيال في الشعر العربي، محمد الخضر حسين التونسي، المطبعة الرحمانية، مصر، د.ط، ١٩٢٢.
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح د. محمود محمد شاكر مكتبة الخانجي القاهرة.
- الدلالة الزمنية في الجملة العربية، د. علي جابر المنصوري، الدار العلمية الدولية – دار الثقافة النشر والتوزيع، عمان ، ط١، ٢٠٠٢.
- دينامية النسق الثقافي في القصيدة الجاهلية، د. فتحي أحمد الشرناني، دار عالم الكتاب الحديث، الاردن ، ط١، ٢٠١٩.
- ديوان دعبل الخزاعي، جمع وتحقيق: عبد الصاحب الدجيلي، مطبعة آداب النجف، العراق، د.ط، ١٩٦٢.
- الذاكرة والنسيان ، بول ريكور، ترجمه وتقديم وتعليق: د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، فرنسا، ط١، ٢٠٠٩.
- الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة العراق والمشرق الإسلامي، د. غانم جواد رضا الحسن، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ ، ٢٠١١.
- الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم مشروع قراءة شعرية، صالح بن رمضان ، دار الفارابي، لبنان ، ط٢، ٢٠٠٧.
- الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في العصر بني الأحمر المضمون والأهمية من حيث الشكل، د. عبد الحليم هروط، دار جرير، الاردن، ط١، ٢٠٠٦.
- رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية للشعر الوجداني الحديث في العراق، د.عبد الكريم راضي جعفر، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط٢، د.ت.

- سايكلوجية الطفل، السيد عبد الحميد سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- السجع العربي بين النسقية النوعية والنظرية البلاغية ، د.بدر الجابري ، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٧.
- السرد الروائي وتجربة المعنى، سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨.
- السرد العربي القديم (الأنواع الوظائف والبنيات)، إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، جزائر، ط١، ٢٠٠٨.
- السرد العربي مفاهيم وتجليات، د. سعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.
- شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي، تح – تع: السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، دار الأرقم، ايران، ط٤، د.ت.
- شرح ديوان الحلاج، د. كامل مصطفى الشيبي، منشورات الجمل، بغداد، ط٢، ٢٠٠٧.
- الشعر الاجتماعي في الأندلس، د.نضال أحمد النوافعة، دار جليس الزمان، ط١، ٢٠١٤.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، مصر، ط٣، د.ت.
- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ايلزايت ومورو، تر: د.محمد إبراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنا، بيروت، د.ط، ١٩٦١.
- الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، تر: سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة، لبنان، د.ط، د.ت.
- شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي دراسة إجناسية لأدب نزار قباني، د. فيروز رشام، دار فضاءات، عمان، ط١، ٢٠١٧.

- الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي ، تح وتع: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، دار الفكر لبنان، سوريا ط٢.
- الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، شرح علي متولي صلاح ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٩٧٢.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، د.ط، ١٩٨٦.
- الصورة، جاك أو مون، تر: ريتال الخوري، مركز الدراسات الوحدة العربية، لبنان، ط١، ٢٠١٣.
- صورة الآخر في الخطاب القرآني دراسة نقدية جمالية ، د. حسين عبيد شراد الشمري، التميمي للنشر والتوزيع، النجف الاشرف، ط٢، ٢٠١٤.
- الصورة الأدبية، د.مصطفى ناصف، دار الأندلس ، بيروت، د.ط، د.ت.
- الصورة الشعرية، سيسيل دي لويس، تر: أحمد نصيف الجندي واخرون، دار الرشيد، بغداد، د.ط، ١٩٨٢.
- الصورة الشعرية والرمز اللوني، د.يوسف حسن نوفل، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.
- الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية بلاغية، د. محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد، بغداد، د.ط، ١٩٨١.
- الصورة وحدوده التأويل وحدود الترجمة، أعمال ندوة الصورة، أعمال ندوة مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، المغرب، طنجة.
- صورة المتكلم في نثر أبي حيان التوحيدي دراسة في التشكيلات والوظائف، د.كريم الطيبي، دار دجلة الاكاديمي، العراق، ط١، ٢٠٢٢.
- الطبقات الكبري للشعراني لوافح الأنوار في طبقات الاخيار، عبد الوهاب الشَّعْراني، مكتبة المويلحي، القاهرة، ط١، د.ت.

- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، دار الجامعية للطباعة والنشر، عمان، د. ط، ١٩٨٢.
- عبد القادر القط و النقد العربي ، د. عبد الحميد لقط، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.
- العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، د.ت.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تح: عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، د.ت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، د.ت.
- علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الفكر اللبناني، بيروت، د.ط، ١٩٩٥.
- علم الأصوات اللغوية، د.مناف مهدي الموسوي، عالم الكتاب، الأردن، ط ١، ١٩٩٨.
- علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان، بسيوني عبد الفتاح، دار المعالم الثقافية، د. م، د. ت، ط٢.
- علم التناص والتلاص، عز الدين مناصرة، الهيئة العامة للعصور والثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق، د.محمد علي الحسيني، مؤسسة التوحيدي للنشر الثقافي، إيران، ط١، ١٩٩٧.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تح محمد زغلول، دار الانجلو، القاهرة، ط٣، د.ت.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح:مهدي المخزومي وآخرون، دار الملايين، لبنان، ط١، د.ت.

- الفخر في الشعر العربي، إعداد: سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، لبنان، د.ط، د.ت.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري(٣٩٥هـ)، تح: محمد إبراهيم سليم، دار الثقافة والعلم، القاهرة، د.ط، د.ت.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تح: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ١٩٧١.
- الفكاهة في النثر العباسي ، د.علي عزيز صالح، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠١٠.
- الفكر الجمالي عند التوحيدي، د.عفيف البهنيسي، المجلس الأعلى الثقافي، لبنان، ط١، ١٩٩٩.
- الفلسفة الألمانية الحديثة، رود ايجر بوبنار، تر: فؤاد كامل ، دار التنوع الثقافي، سوريا ، ط١، ٢٠٢٢.
- فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي، د. حسين الصديق، دار القلم العربي– دار الرفاعي، لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- فن المقامة بين الأصالة العربية وتطور القصصي، د.عباس مصطفى الصالحي، دار الحرية للطباعة، بغداد، د.ط، ١٩٨٤.
- فنون النص وعلومه، فرانسوا راستي ، تر: ادريس الخطاب، دار طوبقال، الدار البيضاء ، ط١، ٢٠٢٠.
- في أصول الخطاب النقدي الجديد، تودوروف وآخرون، تر: أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط١، ١٩٨٧.
- في الشعر العربي المعاصر، عبد الرحمن بدوي، مكتبة الإنجلو، القاهرة، د.ط، ١٩٦٥.
- في لغة الشعر، د.إبراهيم السامرائي، دار الفكر النشر والتوزيع، عمان، د.ط، د.ت.

- في اللغة والتأويل، عمارة ناصر، مقاربات في الهرمونطيقيا الغربية والتأويل العربي، دار الفارابي – منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١٠، ٢٠٠٧.
- في النقد الاسلامي المعاصر، د.محمد سالم سعد الله، عالم الكتاب الحديث، الاردن، ط١، د.ت.
- القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل ، تحر: سوزان روبين سليمان – انجي كروسمان، تر: د. حسن ناظم – علي حاتم قاطع، الكتاب الجديد، الاردن، ط١، ٢٠٠٧.
- قراءة في النقد القديم، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، مصر، ط١، ٢٠١٠.
- قواعد الشعر، أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني المعروف بثعلب، تح: محمد عبد المنعم خفاجة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط١، د.ت.
- الكامل في اللغة والأدب، أبو عباس المبرد ، تح: محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، لبنان، ط٣، ١٩٩٧.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني(٨١٧هـ)، تح: باسل العيون السود، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢، د.ت.
- الكتاب، سيبويه، تح: د. محمد عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ط، د.ت.
- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهأوني، دار الكتب العربية، القاهرة، ط٢، د.ت.
- كلام البدايات، علي أحمد سعيد أدونيس، دار الآداب، سوريا ، ط١ ، ١٩٨٩.
- الكلام والخبر مقدمات للسرد العربي، د. سعيد يقطين ، مركز الثقافية العربي، لبنان، ط١، ١٩٩٧.

- لباب الآداب ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٧.
- لسان العرب، ابن منظور الانصاري (٧١١ هـ)، دار الصادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية، د.حسين عدنان العوادي، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، العراق، د.ط، ١٩٨٣.
- لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، د.محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، مصر، ط١ ، ١٩٩٦.
- اللغة والخطاب، عمر أوركان، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠١.
- مبادئ علم النفس العام د. يوسف مراد ، دار المعارف، ط١، د.ت.
- المثل والحكاية عند العامة الموضوع والنموذج والوظيفة، د.لطيف حاتم الزاملي، دار ابن السكيت للطباعة والنشر، العراق ، ط١ ، ٢٠١٨.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه دكتور أحمد الحوني والدكتور بدوي طبانة، دار نهضة، مصر، د.ط، د.ت.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد محمد الميداني (ت:٥١٨هـ) تق: نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ط، د.ت
- مجمل اللغة، ابن فارس ، الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.
- المديح في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، لبنان، ط١، د.ت.
- المديح، سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

- مـذاهب الأدب الغربـي ومظاهرهـا فـي الأدب العربـي الحـديث ، د.سـالم أحمـد الحمداني، مطبعة جامعة الموصل، العراق ، د.ط، ١٩٨٩.
- المرجعـي والتخييلـي فـي الكتـاب التـاريخي حتـى مطلـع القـرن الخـامس الهجـري مقاربـة سـردية تدأوليـة، د. قـالط بـن حجـي العنـزي، دار كنـوز المعرفـة، ط١، ٢٠٢٢.
- مشكلات المضمون والشكل في العمل الأدبي، ي. فينو غرادوف، تر: هشام الدجاني، د.ط، د.ت.
- المصـنفات، عبـد المعـين الملـوحي، وزارة الثقافـة والسـياحة والارشـاد القـومي، دمشق، ط١، ١٩٦٧.
- معجـم الأدبـاء، يـاقوت الحمـوي ، تـح: إحسـان عبـاس، دار الغـرب الإسـلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٣.
- معجـم السـرديات، مجموعـه مـؤلفين، إشـراف محمـد القاضـي، دار الفـارابي، لبنان، ط١، ٢٠١٠.
- معجـم المصـطلحات البلاغيـة وتطورهـا، د. أحمـد مطلـوب ، مكتبـة لبنـان ناشرون، بيروت ، ط ١، ٢٠٠٧.
- معجـم المصـطلحات العربيـة فـي اللغـة والأدب، مجـدي وهبـة، مكتبـة لبنـان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
- المعجـم الوسـيط، إبـراهيم مصـطفى واخـرون، دار الكتـاب العربـي، لبنـان، ط١، د.ت.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، لبنان، د.ط، د.ت.
- المعنـى خـارج الـنص أثـر السـياق فـي تحديـد الخطـاب، فاطمـة الشـيدي، دار نينوى، دمشق، ط١، ٢٠١١.
- مفتـاح العلـوم، السـكاكي، ضـبطه وعلـق عليـه: نعـيم زرزور، دار الكتـب العلمية، لبنان، ط٢، ١٩٨٧.

- مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، قحطان أحمد الظاهر، دار وائل للنشر والتوزيع، الاردن، ط١، ٢٠٠٤.
- مقالات في الشعر الجاهلي، د. يوسف اليوسف، دار الحقائق، الجزائر، ط٢، ١٩٨٠.
- مقدمة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، دار الفن للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- مقدمة في النقد الأدبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية الدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- من ملامح العصر، د.محي الدين إسماعيل، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- مواقف الأدب والنقد، د. عبد الجبار المطلبي ، دار الرشيد، بغداد ، ط١، ١٩٨٠
- موسوعة السرد العربي، د.عبد الله إبراهيم، دار قناديل، دبي، ط١، ٢٠١٦.
- موقف الشعر من الحياة و الفن في العصر العباسي ، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٨١.
- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، تح: دار الحديث، ط١، د.ت.
- النثر الأدبي في الأندلس مضامينه وأشكاله في القرن الخامس، علي بن محمد، دار أبيكيو ، المغرب، ط١، د.ت.
- النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله، دار رشيد للنشر، بغداد، د.ط، د.ت.
- النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د. فائز طه عمر ، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، ط١، ٢٠٠٠.

- النحو وبناء الشعر في ضوء معايير النصية (شعر الجواهري نموذجاً)، صالح عبد العظيم الشاعر، دار الحكمة، مصر، ط١، ٢٠١٣.
- نسب معد واليمن الكبير، ابن الكلبي(٢٠٤هـ)، تح:د. ناجي حسن، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، د.ت.
- النص من القراءة إلى التنظير، د.محمد مفتاح، تق: أبو بكر العزاوي، عالم الكتاب الحديث، الاردن ، ط١، ٢٠١٦.
- النص والسياق، فان دايك، تر:عبد القاهر قنيني، دار افريقيا الشرق، المغرب، د.ط، ٢٠٠٠.
- نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، د.وسيم سليم، دار دمشق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤.
- نظرية التلقي في تراثنا النقدي والبلاغي ، د.عبد شعبان عبد الحكيم محمد، العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، مصر، ط١ ، ٢٠١٠.
- نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، د.صلاح إسماعيل، دار قباء، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.
- نقض أصول العقلانين، ابن حجر الهيتمي(٩٧٤هـ)، دار الرياض، المملكة السعودية، ط١، د.ت.
- النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت: ٣٨٤هـ)، تح: محمد خلف الله – د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري(ت: ٧٣٣هـ)، تح: د.يوسف الطويل– الأستاذ محمد هشام، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تع: د.نصر الله حاجي، دار صادر، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

- الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية، د.هويدا صالح، رؤيا للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٥.
- الهجاء والهجاءون في الجاهلية، د.محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، د.ت.
- الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تح: أحمد امين- السيد أحمد صقر، مطبعة التأليف والترجمة، مصر، د.ط، ١٩٥١.
- الهوية والذاكرة الجمعية إعادة انتاج الأدب العربي قبل الإسلام نموذجا، د.عبد الستار جبر، تق:نادر كاظم، دار المدار الاسلامي، لبنان، ط١، ٢٠١٩.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين دار إحياء التراث العربي، لبنان، د.ط، ٢٠٠٠.
- وسائل الشيعة، الحر العاملي، دار الارقم، قم المقدسة، ايران، ط١، د.ت.
- الوصايا الشعرية والنثرية للعرب قبل الاسلام دراسة في ضوء علم الاجتماع الأدب، د. سهام حسن السامرائي، دار لندن، ط١، ٢٠١٩.
- المؤتلف والمختلف، ابن القيسراني (ت٥٠٧هـ)، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
- نظرية الإستواء البلاغي في ضوء الدرس النصي الحديث، د.حازم علي كمال الدين، دار غريب، مصر، ط١ ، ٢٠٢٠.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه، د.د، ط٣ ، ١٩٥٥.
- أبو حيان التوحيدي، د.إبراهيم الكيلاني، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت.
- الصداقة والصديق في تراث أبي حيان التوحيدي، محمد إبراهيم حور، بحث منشور في مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، م١٤، ع٣، ١٩٩٥.

- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت:٢١١هـ)، تح –تع: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، د.ت.
- العمدة في محاسن الشعر وادبه، ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت.
- الوعي جمالي في السرد القصصي، د. علياء الداية، دار الحوار، سوريا، ط١، ٢٠١٢.

ثانياً: الرسائل والأطاريح:

- أنماط الشكل التعبيري في كتابات أبي حيان التوحيدي، غازي عبد العزيز ،رسالة ماجستير ،الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٩٤.
- بنية السرد في كتب إخبار النساء والجواري للقرن العاشر الهجري، رائد حامد خضير، أطروحة دكتوراه، إشراف الدكتور شاكر هادي التميمي، جامعة القادسية، العراق، ٢٠١٦.
- الحجاج في شعر النقائض(دراسة تداوليَّة)، مكلي شامة، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠٠٩.
- دلالة الأنس في ليالي الإمتاع والمؤانسة، حفيظة سي بوعزة، رسالة ماجستير، إشراف :الأستاذة صفية مطهري ، جامعة وهران ،٢٠١١.

ثالثاً: الأبحاث والدوريات:

- أبو حيان التوحيدي، محمد كرد علي، بحث منشور في مجلة المجمع الفكر العربي، مصر، م٨، ج٣-٤، ١٩٢٨.
- بحث في نوع الاستعارة البلاغي، مشتاق عباس معن بحث منشور في مجلة جذور، م٧، ج١٤، ٢٠٠٣.

- بلاغة الخبر تقاطع التخيلي وتداولي في إخبار الإمتاع والمؤانسة، هشام مشبال، بحث منشور ضمن كتاب البلاغ والخطاب للدكتور محمد مشبال، دار الامان، المغرب، ط١، ٢٠١٤.
- التخييل والفلسفة والتاريخ، د. عثمان الميلود، بحث منشور في مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر،ع٨١، ٢٠٢١.
- التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ (دراسة أسلوبية)، د.محمد عبد المطلب، بحث منشور في مجلة فصول ،ع٢، ١٩٨٣.
- التوحيدي المغامرة اللغة الطقسية، د.أحمد عبد المعطي حجازي، بحث منشور في مجلة فصول الهيئة المصرية، القاهرة، م١٥، ع١، ١٩٩٦.
- الرثاء في الشعر الجاهلي والإسلامي، عذراء عودة حسين، بحث منشور في مجلة الأستاذ، العراق، م١، ع٢٠٨، ٢٠١٤.
- الركائز الفكرية في نظرة أبي حيان التوحيدي إلى المجتمع، وداعة القاضي، بحث منشور في مجلة الابحاث الصادرة من الجامعة الامريكية في بيروت، لبنان، د.ع، ١٩٧٠.
- السيميائية والتأويل مقاربة لسيميائية الاستعارة، د. موسى ربابعة، بحث منشور في مجلة الجمعية الأدبية، القاهرة، في عدد المؤتمر الدولي الخامس للنقد الأدبي – التأويلية والنظرية النقدية المعاصرة، ٢٠١٠.
- شعر الهجاء: قبول ام رفض، عبدالاله عبد الرزاق، بحث منشور في مجلة المورد، العراق ،ع٣-٤، ١٩٧٢.
- شعرية الرسائل الرسالة الاخوانية من خلال رسائل لهناء، أبو العلاء المعري، أحمد السماوي، بحث منشور في مجلة حوليات التونسية، ع٤٩، ٢٠٠٥.
- الصداقة والصديق عند التوحيدي، قسول ثابت، بحث منشور في مجلة الكلمة،ع٩٣، ٢٠١٦.

- الصداقة والصديق في تراث أبي حيان التوحيدي، محمد إبراهيم حور، بحث منشور في مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ،م١٤،ع٣، ١٩٩٥.
- فن الخبر في تراثنا القصصي، د. شكري محمد عياد، بحث منشور في مجله فصول، م٢، ع٤، ١٩٨٢.
- قراءة سيسيو سياسية /دلالية في رسالة السقيفة لأبي حيان التوحيدي، عبد الرزاق عيد، بحث منشور في مجلة اللغة والأدب، سوريا،ع١٥، د.ت.
- اللغة والبلاغة في فكر أبي حيان التوحيدي مقاربة منهجية، عبد السلام المسدي، بحث منشور في مجلة علامات، المغرب، ج١٨، م٥، ١٩٩٥.
- اللغة والعجز عن التعبير في أدب أبي حيان التوحيدي، وداد القاضي، بحث منشور في مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، م١٤، ع٤، ١٩٩٦.
- المتخيل والمرجع سيروة الخطابات ،د. شعيب حليفي ،بحث منشور في مجلة فصول، القاهرة،، ع٥٥،٢٠٠٥.
- الموتيف بين الأدب الشعبي والأدب الفردي، سليمان العطار، بحث منشور في مجلة الفنون الشعبية ،مصر، ٢٠١٠، ع ٨٦.
- الموتيف والطراز مفاهيم اساسية لتحديد المأثور الشعبي الشفهي ودراسته، حسن الشامي، بحث منشور في مجلة جامعة الملك سعود، السعودية، ٢٠٠٧، ع٢.
- الموتيف ودلالته في شعر الشاعر العراقي عدنان الصائغ(موتيف النافذة نموذجا)، علي خضري – رسول بلأوي، بحث منشور في مجلة الباحث، إيران، م ١٣، ع ١، ٢٠٢١.

- النثر وأساليب بناء الخبر في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الاندلسي، د.لؤي حمزة عباس، بحث منشور في مجلة المورد، العراق، ع١، ٢٠٠٦.
- النص ممارساته وتجلياته، د.منذر عياشي، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، د.م،ع ٩٦، ١٩٩٢.
- نظرية التلقي والنقد العربي الحديث، غسان السيد،بحث منشور في مجلة الاعلام، ع٤، ١٩٨٨.
- هات هذا الصاحب وخذ الخلافة: أبو حيان التوحيدي ومعضلة الصداقة، سمر العطار، بحث منشور في مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مج ١٤ ،ع٣ ، ١٩٩٥.
- الوحي والتاريخ والمنظور المعرفي التوحيدي، محمد الشريف الطاهر، بحث منشور في مجلة مؤمنون بلا حدود، د.ت.

Abstract

The book Friendship and the Friend represents a model full of literary and philosophical texts، in addition to the personalities employed by the author of the book. This feat was intended to present a sublime message for the sake of man to rid him of the difficult experiences that the author of the book tasted، and all of this came with direct intent; With the aim of explaining his experience without ambiguity or affectation، Al-Tawhidi's creativity was confirmed by his approach to a category that was not covered by the old pens before him.

stry of Higher Education and Scientific Research

Al-Qadisiyah University / College of literature

the department of Arabic language

The inclusion of literary genres in Abu Hayyan al-Tawhidi's book Friendship and Friend

A master's thesis submitted by the student (**Saja Mohammed Jawad**) to the Council of the College of literature at the University of Al-Qadisiyah, which is part of the requirements for obtaining a master's degree in Arabic language and literature

Supervisor

Prof.Dr

Yasser Ali Abdel-Khalidi